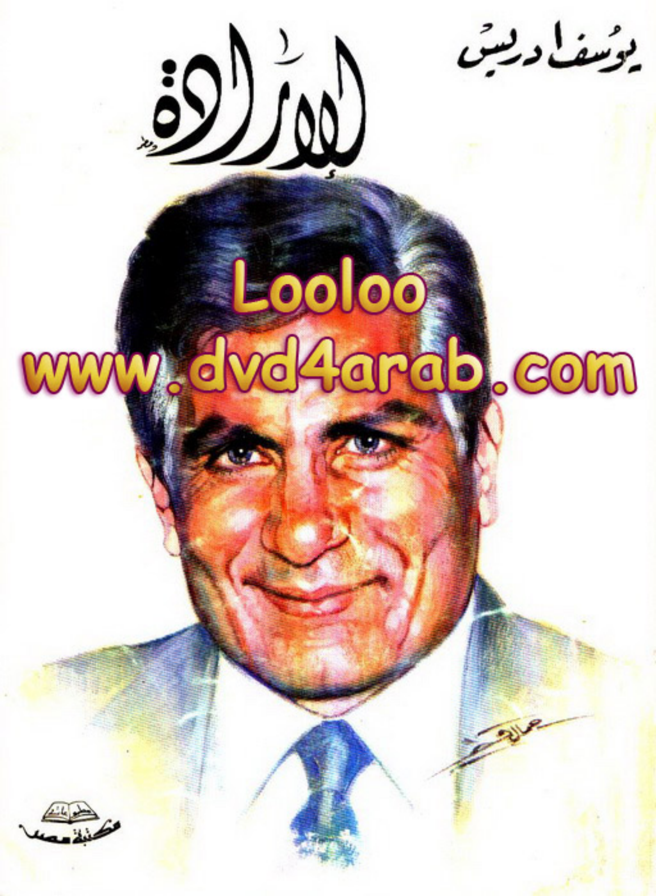

يوسف إدريس
الإرادة
مكتبة مصر

عطاء لا ينفد

بعد ربع قرن من العطاء لم يعد يوسف إدريس فى حاجة إلى من يقدمه للناس ، لكن احتياجهم للاحتفاء به لم يتوقف يوما !!

ومنذ نشر قصصه الأولى .. على مشارف الخمسينات — أدرك الذين يقرأون أن مغامرا شجاعا فى عالم الجمال قد تخلق . وهكذا نبضت قصصه الأولى — التى كتبها فى عشرينات عمره — برائحة عالم فنى جديد ، وتشكلت القصة العربية القصيرة — من خلال عطائه — لتصبح بساطة أسرة ، ولتشع عمقا إنسانيا دافئا ، هو الحصاد الطبيعى للحنو الدافق للإنسان ، والحب المشبوب له ، ذلك الذى جعل مغامرة يوسف إدريس الجمالية مرحلة يبتدئ بها عصرا جديدا فى الأدب العربى .

فى مصر — ١٩٢٧ — ولد يوسف إدريس فى واحدة من قرى محافظة الشرقية ، إحدى . محافظات (الوجه البحرى) . وشهدت طفولته فصولا من تراجيديا الأزمة الاقتصادية العالمية ، ومشاهد من النضال المصرى العنيد والمستبسل ضد الاستعمار ومن أجل الديمقراطية .. وسرعان ما أصبح واحدا من العناصر التى صبت فى مجرى هذا النضال فى الأربعينات ، وفى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما كانت أمتنا العربية تعانى مخاض الميلاد الجديد ، بحثا عن استقلالها ووحدتها وصدى للقوى التى كانت تريد أن تكرس أوضاع عالم ما قبل الحرب !

وأعطته دراسته للطب ، وعمله به لسنوات ليست بالقليلة ، الفرصة لاكتشاف قارته الفنية الخاصة ، واستطاع ــ بقدرته الفائقة على التقاط أصغر الجزئيات ، وأكثرها دلالة ــ تخليق عالم متكامل من الفرح الفنى الآسر ، يعتمد الإنسان البسيط ، مطحونا ومسحوقا وضاحكا وحزينا ، بطلا .

ولولا أنه منذ البداية صاحب موهبة يندر تكرارها ، وصاحب مقدرة على الملاحة فى البحار الصعبة ، لكان قد صمت بعد مجموعاته الأولى . لكن يوسف إدريس عاش فى وجدان نقاد الأدب كما عاش فى وجدان القراء لأنه لم يتوقف يوما عن الإبداع الجديد ، ولم يكف عن المغامرة الفنية بكل أبعادها .. كما أنه لم يكف عن تجربة كل الأنواع الأدبية ، فكتب المسرحية والرواية ، والرواية القصيرة ، كما كتب المقال والخاطرة .

فصاحب « أرخص الليالى » ــ ١٩٥٤ . ــ هو الذى كتب بعدها ثمان مجموعات أخرى هى « جمهورية فرحات » ــ ١٩٥٥ ــ أليس كذلك ؟ ــ ١٩٥٨ ــ البطل ــ ٥٦ ــ حادثة شرف ــ ٥٦ ــ آخر الدنيا ــ ٥٨ ــ ــ لغة الآى آى ــ ١٩٦٧ ــ النداهة ــ ١٩٦٩ ــ بيت من لحم ــ ١٩٧٣ ــ فضلا عن مجموعة أخرى تحت الطبع .

وكتب يوسف إدريس ثمان مسرحيات مثل بعضها على المسرح ، بينما حجب الآخر لأسباب رقابية ، « جمهورية فرحات » ١٩٥٨ ــ ملك القطن ــ ١٩٥٨ ــ اللحظة الحرجة ــ ١٩٦٠ ــ الفرافير ــ ١٩٦٥ ــ المهزلة الأرضية ــ ١٩٦٨ ــ المخططين ــ ١٩٦٩ ــ

الجنس الثالث ــ ١٩٧١ ــ فضلا عن شلة الغد ــ تحت الطبع .

وكتب يوسف إدريس خمس روايات هى : الحرام ــ ١٩٥٨ ــ العيب ــ ١٩٦٢ ــ رجال وثيران ــ ١٩٦٢ ــ العسكرى الأسود ــ ١٩٦٠ ــ البيضاء ــ ١٩٦٨ ــ كما صدر له كتابان ضمنهما خواطره وانطباعاته هما « بصراحة غير مطلقة » ١٩٦٩ و « اكتشاف قارة » ١٩٧١ .

وفى بداية العام ١٩٧٥ أصيب يوسف إدريس بانزلاق غضروفى . ثم بتليف من العلاج الخاطئ ، أثر على قلبه ، فسافر إلى أمريكا حيث أجرى عملية جراحية خطيرة ، ومكث هناك ستة أشهر يعالج من آثارها ، وبدأت تجربته فى مواجهة الموت تطرح نفسها فى كتاباته ، فبالإضافة إلى روايته الجديدة « افتح القلب » التى قال عنها فى حديث صحفى إنها لو صدرت على النحو الذى يتخيله لكف تماما عن الكتابة ، إضافة إلى ذلك استأنف يوسف إدريس بعد عودته كتابة يومياته الأسبوعية ، فى جريدة الأهرام ، فاستمر على امتداد عدة أسابيع يكتب عن تجربته فى اكتشاف أمريكا وفى مواجهة الموت .

ثم ها هو يوسف إدريس فى هذه السلسلة يواجه حياتنا المصرية والعربية بجرأة واقتحام ، داعيا للتحرر والمواجهة وكى نأخذ قرارنا بأن يعيش العالم المصرى والعربى حياة غير تلك الحياة المؤلمة التى نحياها !

و .. وجهاً لوجه مع رجل الشارع

وليكن الرأى هذه المرة من الطرف الآخر للمشكلة . رجل الشارع واحد من المئات الواقفين فى قيظ الظهيرة ينتظرون الأتوبيس . واحد من العشرات الواقفين فى طابور الجمعية ، واحد ممن تزدحم بهم المكاتب والغرف وعنابر المصانع . ولكن أيهم أختار ؟ قد تجد المشكلة فى الرجل ولكنك لن تجد لديه القدرة على التعبير عنها ، أو قد تجد المقدرة على التعبير وحتى المبالغة فيه ولكنك ستجدها مشكلة محدودة بشخصه أو بعمله . فى محاولتى البحث عن رجل الشارع وما يعانيه من مشاكل بدأت ألاحظ الناس بدقة أكثر ، وبدأت أدرك ليس فقط صعوبة الاختيار ، وإنما حتى صعوبة الرؤية . فنحن نحيا وكأنما نحيا نلهث . الأزمة . الإنسان المصرى تحول إلى كائن غريب حتى على نفسه . لم تعد أقواله أو تصرفاته مبنية على أساس عقلى أو محسوب ، إنما هو بقوة الدفع الغريزية يتصرف فى حالة تحفز مستمر وردود فعله بالغة التوتر . والإنسان المصرى هذا موجود فينا كلنا ، فىّ أنا الذى أحاول أن أعبر ، وحالتنا حالة من الصعب معها حتى أن (نفكر) مجرد أن (نفكر) .

أى تتأمل وتعى وتحلل وتأخذ موقفا ورأيا . هذا كله ترف لا يملكه المواطن العادى ولا الكاتب . الكتابة نفسها فى اللحظات الفاصلة ،

لحظات الحياة والموت تصبح لا معنى لها بالمرة ، ولا أثر لها بالمرة ، والمشاكل كثيرة كثيرة وكل شىء وكل شخص وكل تصرف فى حاجة إلى نقد وتقييم وتقويم ، ولكن المرعب هو .. كيف وأنت فى هذه الحالة تستطيع أن تتمالك نفسك و (تنفصل) عن المشاكل وتحكم عليها حكما (موضوعيا) . أنت فى قلب المشكلة . أنت وأنا وكلنا ، مرضى الأزمة . أزمة مادية جماعية خانقة من المحتم أن يصحبها أزمة روحية خطيرة . حتى الذاكرة أصبحت وقتية ، والتصرف أصبح ابن لحظته .. فعل ورد فعل .. فعل ورد فعل .. مئات الملايين من ردود الأفعال التلقائية المتصادمة نتيجتها تأزم أكثر . لكأن الواحد منا يحيا اللحظة وهو فى كل ثانية يريد أن يستغيث بأعلى صوته ويجأر ويقول للعالم : لا .. لم أعد أحتمل . هذا فوق طاقة البشر . حتى الموت أصبح مطلبا صعبا من الترف التفكير فيه . بل الانتحار نفسه اختفى و لم نعد نقرأ عن أناس يلقون أنفسهم من فوق البرج أو المجمع ، ذلك أنه حتى الانتحار فى حاجة إلى قرار وخطة . ولا وقت ولا (نفس) لرؤية قرار أو عمل خطة .. النكت نفسها اختفت ، ولم نعد ننكت .. فالنكتة ذلك التأمل الساخر ، تحتاج أولا إلى متأمل .. فإذا كان الكل حتى المتأمل بطبعه فى أزمة ، فالنكتة تموت قبل أن تولد .. بل المتعة نفسها غير موجودة ، وكأن لم يعد ثمة شىء ممتع ، كل الأشياء لها نفس الطعم ونفس المذاق ، مذاق اللامذاق ، فالتذوق والتمتع فى حاجة إلى جهاز عصبى سليم ، وكائن سليم ، ونفس مفتوحة .. ونحن لحظة بلحظة يحيا الإنسان يؤرقه الألم الطاغى والقلق الأعظم ليس فقط من اللحظة التالية ولكن : ماذا

يحدث غدا وبعد غد ، وأولادى إلى آخره . لقد تزايدت المشاكل ، كثرت ، قلت حركة الإنسان ، حوصر من كل النواحى . لامخرج . كلما حاول الخروج يغوص أكثر .

ذلك انطباعى الأول وأنا أحاول معرفة رأى ما كان يسمى فى الماضى (رجل الشارع) ، عرفت رأى رئيس الوزراء . والآن أريد أن أعرف الرأى الآخر . المشكلة كيف ـــ؟ من تختاره ليتحدث ويفضفض ليعبر عن الكون العام الذى نحيا فيه كلنا وعن رأيه فى قوانينه ولوائحه وأخطائه . لكل كونه الخاص الغارق فيه حتى أذنيه ، مهما رفع البصر ، لا يرى أبعد من مشاغله الوقتية الحادة . وتعتقد أن الزمن لابد هو الآخر متوتر ، وأن لا وقت لأى شىء ولكن الكارثة أن الزمن ممتد وطويل طويل .

* * *

كيف اخترق الحاجز الصوتى والبصرى الكائن بينك وبين أى إنسان حولك . معا نحيا هذا صحيح ، ومعا نعانى ، فى الأتوبيسات نتكدس ، فى المجمعات نختنق ، لكى ننتزع لقمة عيش أخيرة لابد أن (نقاتل) . قتالا حقيقيا رهيبا عذره أنه قتال ضد اللاشىء . فلا عدو واضح تضربه كما حدث فى العبور وتنتهى . ليت مشاكلنا كانت كلها خط بارليف وعبور القناة ! فلو كانت مبلورة هكذا ومحددة لانتهينا منها من زمن بعيد . إن حل المشكلة يكمن فقط فى إدراكك لها . بمجرد وضع يدك على المشكلة فهذا يعنى حلها . ولكن ما نعانى منه الآن أشياء لا نستطيع بالضبط أن نضع أيدينا عليها . هل المشكلة أن المياه ملوثة أو أن بعض

المسئولين اختلسوا أموال التبرعات واعتمروا بها ؟ طيب .. فرضا أن الماء لم يكن ملوثا ، وأن أحدا لم يحج اختلاسا فهل كنا سنستريح وتنتهى الأزمة ؟ . أبدا » . إن هى إلا أعراض كلها . وتستطيع أن تعد ليس فقط اختلاسا هنا أو هناك أو سرقة أو رشوة أو (قرع) . و (كوسة) . لا تؤاخذنى فى استعمال الكلمات فقد أصبحت عادية ودارجة ومن قواميس المرحلة . نستطيع أن تعد آلاف الآلاف من (الأعراض) . أما المرض نفسه فما هو ؟ ماذا يشقينا ؟ فلنقل أو بالتأكيد هذا هو الشىء الأول الملموس إن المشكلة مادية محضة . وجود الشخص منا على قيد الحياة أصبح يتطلب منه نقودا لا يكفى دخله لإيجادها . المضحك أن هناك دولا أخرى تعانى من (التضخم) ، أى أن هناك فيها نقودا كثيرة وبضائع قليلة . نحن نعانى من عكس أزمة التضخم تماما . بل حتى من أزمة الأزمة . فلا توجد نقود وحتى لا توجد بضائع . والمشكلة أننا نحيا ولا بد أن نظل نحيا ولهذا دائما نحن نسأل أنفسنا فى كل دقيقة : ما العمل ؟ . ومن أين نحصل على النقود ؟ . مجالات الإنتاج وبيع العمل تختنق ذلك لأن الأزمة أربكت تماما جهاز الإنتاج .. عمالة زائدة كثيرة جدا . أكثر بكثير مما تتطلبه عملية الإنتاج ، ونتيجة كثرتها أن ينخفض الإنتاج أكثر وأكثر . أى مكتب حكومى . تجده مكتظا إلى حافته بالموظفين . ماذا يفعلون ؟ لا شىء . أفندى محترم معه بكالوريوس أو ليسانس معين ويقبض ماهية وعمله أن لا يعمل . ومعنى هذا ، ونظرا لتدخله فى عملية الإنتاج لجسمه وشخصه ووجوده ، يتعطل الإنتاج أكثر . بمعنى أن المكاتب مكتظة ولا إنتاج . لكى يتعطل إنتاجنا إذن

ويعطينا نقودا تكفينا يستلزم الأمر عقولا وأعصابا وإنسانا سليما على الأقل (يفكر) فيما يجب عمله . ولكننا فى هذا الازدحام الأجوف لا نستطيع أن نفكر أو ندبر . نحلم . أجل نحلم . أن تهبط علينا الفلوس من السماء . أو من دول النفط . كيف ستهبط ، وهل الحل أن توجد ليلة قدر لكل واحد ، أو صرف ثلاثين جنيها . صرفت وصرفناها . وبقى كل شىء على ما كان عليه والموقف ينحدر إلى أسوأ . لا يعيش الناس بالإحسان أو بالقروض . الناس تعيش بعرقها وكدها . ولكن العرق والكد وحده لا يعود بالنقود . لابد من وجود نظام إنتاج وعمل تستثمر فيه عرقك ليعود عليك بالنفع وبالنقود . المأساة أن أسس الإنتاج من مصانع أو جامعات أو دكاكين أقل بكثير من أن تستوعب طاقة ملايينا الكثيرة على العمل والإنتاج . الخبرة موجودة والقدرة موجودة . موجودة بكثرة زائدة عن الحد . تتكدس وتتكدس ويتزاحم الناس داخل الأتوبيس وداخل البيوت وفوقها وداخل الفصول وداخل الورش . زحام . زحام كثير . وعجلة . عجلة عصبية زائدة فارغة الصبر . الكل متعجل . ليصنع ماذا ؟ . لا أحد يعرف . نشبه موتور عربة كبيرة يعوى بالصوت والضجيج والصراخ والكلاكسات ولكن العربة نفسها لا تتحرك . إننا جميعا ، وأقولها صادقا ، مسئولين وغير مسئولين ، حاكمين ومحكومين لا نقدر ولا ندرك بالضبط الواقع الغريب الذى نحياه . إن المطلوب أكبر بكثير من قدرة أجهزة تخطيطنا الحكومية وحتى الأهلية . أكبر بكثير من طاقة رجل أو عشرة أو مائة أو عدة آلاف على التفكير . أكبر من ذكاء أى منا بمفرده ومقدرة أى منا بمفرده . . وهذه هى

الحقيقة . . إن المشاكل التى تعانى منها هى نفسها المشاكل التى أعانى أنا منها ، قد تختلف بعض الشىء فى التفاصيل ولكنها جذريا نفس المشاكل . حلولها إذن ليست فردية بأن تهبط على أى منا ثروة من السماء تنقذه وتنقذ أولاده أو أن يهاجر إلى بلاد أخرى فيها العمل وفيها الكسب والنقود ، فهذه كلها قد تحل مشكلة واحدة أو عائلة أو حتى بعض العوائل والقرى والمدن على أقصى تقدير ، ولكنها أبدا لا تحل مشكلة (أمة) . أمة بأكملها تخوض مشكلة رهيبة تتبدى أمامها ربما لأول مرة فى تاريخها الطويل : تكون أو لا تكون . لا نسأل السؤال واقفين أو متأملين ولكنا نسأله ونحن نلهث ، وسياط غير مرئية تلهب ظهورنا ونحن نندفع بسرعة مخيفة وكتلة جماهيرية رهيبة . تندفع ، وحتى لا نعرف إلى أين فى أوضاع كهذه يصبح الحديث عن المضايقات الشخصية أو الخاصة تافها إلى أبعد حدود التفاهة . بل يصبح الحديث عن مشكلة واحدة بذاتها لا معنى له بالمرة . فهل المشكلة غلاء الأحذية ؟ إن أسعارها صحيح قد أصبحت تدعو للتذمر والدهشة . ولكن المنظر العام أغرب ألف مرة .

* * *

ماذا أهدف بكتابة هذا ؟ . أليس يربك أكثر أن تقول للمرتبك أصلا إنك مرتبك . وماذا يفيد قولك المخنوق بالأزمة أن لديك أزمة . هو يعرف وأنا أعرف وكلنا نعرف . هو يئن وأنا أئن وكلنا نئن الأحمال ثقيلة ولكنها بلغت من الثقل حد استحالة الشعور بثقلها . أكتب لماذا ولمن وهل لأكشف عن فساد هنا أو هناك وأنا أعرف وأنت تعرف وكلنا يعرف عن

الفساد أكثر بكثير مما كتب أو يكتب أو يمكن كتابته . الروح فى الحلقوم وكأننا فى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه . فعلا . فى قسم الدقى رأيت رجلا يحمل طفلا رضيعا على يديه وحوله ثلاثة أطفال آخرون ويبكى أمام المأمور ويقول : امرأتى هربت . تركت الأطفال وهربت . أى قوة دافعة رهيبة تجعل الأم تترك وليدها وتهرب ؟ لابد أن مايعانى منه البعض ويعتقد أنه أبشع الأشياء ، يوجد أبشع منه بكثير .

حتى أحكامنا لم أعد أثق بها كثيرا فهى ليست صادرة عن روية أو تفكير إنما هى على الدوام أحكام (انفعالية) ، بنت اللحظة ، أى ردود فعل وليست أبدا نتيجة موازنة ثم اتخاذ موقف . الحوادث المؤسفة ليست إلا التصرف الجماعى لما يتصرفه أى منا بمفرده أو يقوله بمفرده . هى نفسها الولد أو الرجل الممسك بمسمار يحك به بياض المنزل أو دوكو العربة ويخربشه . هى نفسها ألفاظ البذاءة تسمعها على الهواء من جماهير الكرة ، فقط على السطح تطفو التصرفات وتتصور أنها (ظاهرة) . لا أعرف ماذا أصبح يعجبنا وماذا أصبح لا يعجبنا . أحكام محمومة كتخاريف الجوعان أو الصائم أو الضائق ذرعا بكل شىء وأى شىء .

* * *

أكتب إذن لأحاول أن أرى ولأحاول أن نرى جميعا ماذا يحدث لنا . فقط نراه . فنحن نحيا لانرى ، ولا نريد أن نرى لأننا نعرف أن ما سوف نراه سيقبض أنفسنا وأنفسنا ليست فى حاجة لاكتئاب أكثر . هى مشبعة به ولا داعى لأى مزيد . ذلك لأننا فى العادة نرى وحدنا ، وننظر بعيوننا الخاصة إلى وضع كل منا الخاص ووضع الآخرين منه . ربما لو رأينا كلنا

معا ، ربما وضحت الرؤية لنا كلنا ، فالرؤية هى النور ، والظلام هو أن نغلق أعيننا . والرؤية الجماعية هى الوسيلة الأولى والوحيدة ليس فقط لحل المشاكل وإنما حتى لمواصلة الحياة .

لا أعرف ما الحل ، ولكن الواضح والمحتم أننا فى حاجة إلى شجاعة كبرى وإلى مصارحة أنفسنا مصارحة تامة . لم تعد المسألة مسألة شعب وحكومة ، والحكومة من هى ؟ إنها نحن أيضا موظفون ومتعاملون ، لم تعد المشكلة مشكلة وزارة أو وزير ، المشكلة هى نحن جميعا .. نحن المشكلة .. هل تبلغ بالشجاعة حد أن نعترف نحن الشعب المصرى أننا نواجه أزمة وجود حقيقى وفى كل مجال . وأن لا حل لهذه الأزمة إلا باشتراكنا جميعا فى رؤيتها وإدراكها وبالتالى حلها . لم نكن فى حاجة إلى مؤتمر شعبى حقيقى . مؤتمر لا يحفل بالخطباء والمتحذلقين وإنما اجتماع يضمنا معا أو يضم ممثلينا وكل قدراتنا العقلية وكل خبرائنا وعلمائنا ، نتدارس فيه بلا ضغائن ضد بعضنا البعض ولا الكزات أو ضربات فنحن ننهش ونخربش أنفسنا وكأنما قد أصبحنا نكره بعضنا البعض إلى درجة مخيفة ، وكأن كل منا هو السبب فى أزمة الآخر فى حين لو عرفنا أن كلا منا مأزوم هو الآخر ويعانى من نفس الأوضاع وأننا بدلا من إلقاء التهم والضربات بالأقدام والقبضات وإضاعة وقت كثير فى مهاترات جانبية . نركز همنا كله فى مشكلة وجودنا نفسه ، وجودنا ككل ، ونحدد بالضبط ماذا نعانى منه وكيف نعالجه ، أيضا ككل . فكما قلت المشكلة ليست خاصة بأى منا على حدة ، فالذى دخله عشرون جنيها مثلا يتصور أن كل مشاكله ستحل لو صار دخله مائة جنيه ، ولكن

المضحك أن الأعباء تزيد بزيادة الدخل بحيث لو صار دخله مائة جنيه فستظل أعباؤه أكثر بكثير . صحيح أن مواجهة العدو عسكريا تكلفنا الكثير ولكن جهاز الحكومة نفسه وأجهزة القطاع العام نفسها بل وحتى القطاع الخاص غير قادر على إعطاء إنتاج يكفينا ويكفى احتياجاتنا . المضحك أن ما نعانيه كأفراد تعانى منه الدولة نفسها . فالدولة المصرية كالفرد المصرى فى حالة تأزم وتعطل إنتاج . لو سأل كل منا نفسه هذا السؤال : هل أنا فعلا أعمل بطاقتى كلها أو أعطى للعمل طاقتى كلها ؟ فمن المحتم أن يكون الجواب لا ، لأن فى داخل كل منا طاقات كثيرة معطلة وغير مستفاد بها ولا يوجد الجهاز الذى يستخرجها ويضمها إلى الطاقات الأخرى ويحيلها إلى نقود وبضائع .

* * *

إن لدينا قدرة على الرؤية المحدودة هذا صحيح فهناك تفكير فيما يسمى بالثورة الإدارية ، و (تطوير) القطاع العام ، و (تطوير) الاتحاد الاشتراكى ، و (تطوير) الذوق والثقافة . ولكن هذه كلها نظرات جزئية إلى مشكلتنا ، تصلح إذا كان المجتمع فعلا سائرا ويتحرك إلى الأمام ويلزمه بعض (الإصلاح) ، ولكن ماذا يكون الوضع إذا كان المجتمع لا يتحرك أو يتحرك ببطء شديد جدا يشبه السكون أو ربما يتحرك إلى الخلف ونحن لاندرى ولكن الواضح أن كل يوم يمر ندرك أنه كان أحسن .. لم يعد يصلح إذن فى علاج مشاكلنا أن نعتبرها مجرد مشكلة فى الإنتاج أو فى الإدارة أو فى نهب بعض المال العام . ما فائدة أن ينصلح حال (الكهرباء) على حدة أو البنزين على حدة ، إذا كان الموتور ككل

لا يعمل أصلا ، أو أنه يعمل ولكن العربة لا تتحرك . إن المشكلة كما قلت مشكلة وجود ، مشكلة أن نوجد ونتحرك فعلا وتعود علينا حركتنا بالعمل والإنتاج والدخول .

* * *

نتصور أن (الحكومة) قادرة على الإصلاح . وتكثر الشكوى . ويحدث انفصال غريب بين الكلمة والفعل . فنحن نجأر بالشكوى من شيء ، والجرائد تنشر ، والناس تتكلم ولكن لا يحدث شيء يصلح ما نشكو منه ، ذلك لأننا نتصور أن أحدا آخر هو المسئول عن الإصلاح ، إن الحكومة نفسها لا تستطيع أن تحل المشاكل ولكنها هى نفسها أصبحت — نظرا لتدخلها فى حياة كل منا — مشكلة من مشاكلنا . والحكومة ليست شيئا معنويا أو جهازا غريبا قابعا على أرضنا ، إن الحكومة هى موظفون ، أى مواطنون أيضا غير قادرين على حل مشاكلهم الخاصة .

ونتصور إن المشكلة هى أن بعض الناس يسرقون أو يختلسون أو ينهبون أو يمالئون ، وصحيح أن هذه كلها جرائم خطيرة لابد من عقاب مرتكبيها ولكنها أيضا ليست (الأصل) ، إنها عرض من أعراض الأزمة فالأزمة يستتبعها دائما أزمة ضمائر ونفوس وصغارات نفوس وتصرفات وقحة ومخجلة ، وحتى ألفاظ بذيئة وسلوك أكثر بذاءة ، هذه كلها توابع وليست أصلا للأزمة ، هذه كلها عروض من جملة الأعراض ولكنها ليست الداء الدفين .

لنتصور أن كائنا من المريخ مثلا ، حافل بالموهبة والقدرة على الإنتاج

هبط القاهرة ليعمل وينتج . كائنا نظيفا لا يعانى من أزمة سابقة وليس محملا بأثقال مسئولية والتزامات . لنتصور أنه بدأ يزاول وجوده ذلك ويحاول أن يعمل ويتحرك . أن يتكلم فى التليفون مشكلة . أن يركب الأتوبيس مشكلة . أن يأكل مشكلة . أن يغسل يديه مشكلة . أن يذهب إلى سينما مشكلة . أن يدخل المصلحة أو المؤسسة مشكلة . أن يحاول منع الغير من التدخل فى عمله مشكلة . أن يحارب كى يظل فقط محتفظا (بحقه) فى أن يعمل مشكلة . لابد ستجده ولما يكد يمضى يوم على وجوده معنا إلا وقد استحال إلى كائن عصبى جدا ، مكتئب جدا ، مغيظ جدا ، حاقد جدا ، (كفران) بكل القيم والتقاليد والمثل ، ناقم على كل شيء . فهل ممكن لإنسان فى حالة كهذه أن (يفرغ) عقله للعمل العقلى أو اليدوى أو حتى لفلاحة الأرض .

أجل . لقد بدأت مشكلتى حين حاولت أن أجرى حوارا مع ما يسمى برجل الشارع لأعرف بالضبط ماذا يعانى وكيف وبأى طريقة يحيا ولكننا رأينا أننا كلنا غرقى وفى هذا ليس هناك فرق بين من يستغيث من الشارع أو من الشرفة فالطوفان واحد لا يرحم ، والآلام واحدة والشعور واحد ومشترك .

* * *

إنها الدائرة المفرغة المروعة ، الأزمة توجد ، تصيب الناس بأزمة ، الناس المتأزمون تقل قدرتهم على العمل والإنتاج وهذا بدوره يؤدى إلى أزمة أكثر تؤزم الناس أكثر وهكذا .. هكذا تستحيل الدائرة الرهيبة المفرغة إلى أزمة (وجود) ، والكارثة أن لا أحد يستطيع إخراجنا من

هذه الدائرة المفرغة إلا نحن .. نحن المريض ولا بد والمريض فى عز مرضه أن يكون الطبيب ويعالج نفسه ، كمن تطلب من مكسور الساق أن يجرى ، وهذا هو العمل البطولى العملاق الذى يتحدانا ويواجهنا ، والمسألة لا هزل فيها إما أن نقوم به أو نموت ، سنموت إذا لم نخرج من الأزمة ، سنموت حتى لو ظللنا أحياء ، وأبشع أنواع الموتى هم الموتى حياة .

* * *

فهل نترك أنفسنا نغرق ، أو نستغيث ونحن فى عالم لا ينقذ فيه أحد أحدا . لا الاستغاثة ، مجرد الصرخات على صفحات الجرائد والاحتجاجات تجدى ، ولا الأنين والتأوه يجدى ، ولا التعبير بالكتابة أو بالمسرحية يجدى ، ففى كل هذه الأعمال نحن نفترض أن هناك آخرين فى أيديهم الحل والربط والقدرة على إنقاذنا . ربما لو أدركنا عن يقين ، وأعود وأكرر عن يقين ، أن ليس هناك غيرنا ينقذنا وأن لا معين لنا ولا أى معونة أو قروض أو حتى استقدام خبراء أجانب ولو حتى خبراء فى حل الأزمات والسرقات ، لا شيء من هذا يجدى ، فكما نحن المشكلة فنحن أيضا الحل بل لا حل إلا بأيدينا ومنا ، ولأجل هذا فأوضاعنا أصبحت تحتم وأكرر مرة أخرى تحتم أن نقف لأجلها وقفة ، وقفة مع النفس هذه المرة .. وأن ندير حالا وفورا مؤتمرا (نفكر) فيه ، مؤتمرا لا (نعبر) عن المشاكل فيه ونصرخ ، وإنما (نفكر) فيه بصوت عال

يسمعه الناس أجمعون . نفكر فيه وندرك إلى أين وصلنا وما هى المشكلة ، والحل سيكون هذا ، سيكون أن (نفكر) ، وأن نعرف ، وندرك (المشكلة) .. المشكلة التى تعوق سيرنا وتوقفنا وتقتلنا ببطء شديد ، ولكنها تقتلنا .

أجل .. مؤتمر لنعرف رأى رجل الشارع . رأينا ، فرأينا هو المشكلة وهو الحل .

* * *

قبل فتح القلب

لأسباب كثيرة ـــ ربما تبدو عاطفية وعلى العموم ـــ ساحتفظ بها لنفسى ، أردت أن تكون عودتى للقاء الأعزاء القراء على هيئة هذه المفكرة بعينها ، وبالذات هذه المرة ، ربما يتغير كل شىء بعد هذا ، ولكن ، فى هذه المرة بالذات أنا أشد حاجة من القارئ أن أفكر أو أتفكر وأتذكر وأحيا اللحظة . ستة أشهر لم أكتب فيها أو بالأصح لم أنشر . ليست شيئا فى عمر الكتابة أو القراءة ، ولكنها بالنسبة إلى كانت كأشعة الحياة حين تركزها العدسة المتأزمة الرهيبة والمحدبة أيضا فى بؤرة يصبح الضوء فيها احتراقا وتصبح الحياة عصيرا مركزا مهلكا تماما ، كأنه الموت . كما يستحيل النور إلى نار يستحيل البقاء إلى هلاك .

وكذلك تستحيل نقطة الحبر إلى نقطة انفجار .

أنا لا أشكو ولا أشكر ولا أتعذب ولا حتى أحس أن شيئا غريبا ومهولا قد حدث ، حتى ولا أتفرج فالفرجة تستدعى قدرا أدنى من الاندماج وأنا لست بذلك الذى خرج من الناموس ولست بالقطع داخله .

أين أنا ؟ ..

سؤال موضوع رواية شرعتها ، موضوع مذكرات تحتل مئات الصفحات ، موضوع إنسان قريب قد تواتيه القدرة على كتابته ، ولكنه

الآن ليس بأى حال موضوعنا ، ليس مهما أن أعرف بالتحديد أين أنا ، بل حتى ذلك التحديد الدقيق تأباه النفس الآن . أنا فقط على هذه الورقة ، صاحب بتوترات داخلية كفيلة بتشغيل تربينات السد العالى ، متفجرات وصناديق مغلقة مكتوب فوقها : مواد قابلة للاشتعال وللإشعاع الذرى ولإفناء الكون أو بنائه . أنا فقط هنا على أن أحيل هذا الأنا الخطر إلى نقطة حبر مستأنسة ، هادئة ، وديعة وداعة ذلك الشعب الذى كان — أو هكذا قيل — فأنا أعلم تماما مقدار العبوات الناسفة الراقدة فى أعماق كل منا ومنكم ، وعلى الحبر أن يكون بردا وسلاما على وعليكم .

ويكفينى هذا .

نقطة حبر ..

انسيابة قلم ..

كلمة مكتوبة ..

الآن أكتبها . أنا ..

حتى لو شئت ، فلتجف الأقلام ، لتطو الصحف ، وليعد الكون — كونى — إلى صمته المطبق الأول الأزلى .

* * *

كانت الرحلة شاقة يارفاق الطريق ، وعرة ، رحلة حول نفسى فى ستين يوما لا أجد لها البداية ولا أجد لها المنتهى . من أين أبدأ أو تبدأ وفى أى النقاط أضع النهاية ؟ .

وهذه المرة كانت النهاية بيدى .

وويل للكائن الضعيف الذى هو أنت وأنا حين توضع نهايته ، أو بدايته فى يده ، شكرا لله أن خلقنا لنكون خط الحياة فقط ، أما البداية والمنتهى فإشفاقا علينا ، احتفظ بها . صحيح لو خير أى منا أين يبدأ ، ومتى يولد لمات هما من هول الاحتمالات ، هل يولد الآن أم فى عصر الرومان ، أم فى سنة ٢٠٠٠ ، ولو خير أى منا متى يموت ، لمات غما قبل أن يرسو على خيار .

وهكذا ، وبتكنولوجيا العصر ، وبسبب الصبح والظهر والعصر والمغرب والليل وشياطين الليل أصبت بأزمة القلب . وبعد شهر أعطانى الأطباء الكبار فى مصر شهادة أنى شفيت . وكتبت بيدى هنا أن هذا قد حدث وشكرت الناس . ولكن ذاك الوسواس من غير الخناس ، ذلك الجهاز المرهف الذى لا نعلم أبدا عنه شيئا ، ذلك الذى نغطى جهلنا به فنقول الحدس ، راح يؤكد لى أن شيئا ما داخلى غير مضبوط ، بالذات فى ذلك القلب الذى قلنا جميعا عنه إنه شفى وعوفى ، كسن الدبوس بدأ ، كالإبرة الطويلة راح ينكش ، كالمسمار أصبحت خرابيشه تجرح كيانى كله .

الهاتف ، ذلك المجهول الآخر راح يلح : يلزمك تصوير دقيق لقلبك وشرايينك .

يغضب طبيبى المعالج ويقول : يابنى مالك ؟ قلبك سليم . تصعد ستة أدوار ولا تلهث ، صحتك بمب ، ماذا تريد أكثر ؟ .

— أريد الحقيقة ..

ـــ والحقيقة أمامك واضحة كالشمس . أنت وحالتك أحق من الحقيقة . ولكن الدبابيس والمسامير تقرص ، وبشدة أكثر ، وتصر وكان لا بد أن أسافر . .

واسمحوا لى أيها السادة ـــ أليس هكذا يقولون ـــ أن أقف هنا وقفة مع دولتنا ، ومع حكومتنا .

الحق أنى كنت طوال حياتى أحس ، ليس فقط بالغربة فى بلدى وبين أهلى وعشيرتى ، ولكنى أحس بالغربة التامة تجاه دولتى وحكومتى . ربما منذ اليوم الذى بدأ صدامى الأول معها وعلى ورقة صغيرة ممضاة باسم وزير الداخلية فى ذلك الحين تم اعتقالى وفى المعتقل عرفت وجها آخر للدولة ، ذلك الوجه القبيح تماما . الأقبح من وجوه كل من رأيتهم من سجانين ومسجونين فى معتقل القلعة وأبو زعبل والسجن الحربى وسجن مصر ، الأقبح حتى من وقع ضربات النبابيت على قدمى العاريتين ـــ وكنت لسذاجتى أظن النبوت أقل إيلاما من الخيزرانة الرفيعة إذا لسع القدم ولكن اتضح أن الخيزرانة إذا كانت سكينا رفيعا فالنبوت ساطور مسنون على حجر جرانيت .

ولكن ذلك زمن مضى تماما وعفا الله عما سلف ، واتفقت واختلفت وأيدت وعارضت فكريا وفنيا وبشخصى الضعيف أكثر المرات . ذلك ملف ـــ على حد القائل ـــ لا وقت لفتحه ، فلسنا بسبيل السياسة ولسنا بسبيل إظهار اليد المكسورة أو الذراع المقطوعة نشحذ بها أو عليها الشفقة أو المجد فقد كان لا بد من الصدام ، وكنت أعتقد أن الحق معى ، وكانت تعتقد أن الحق معها ، سلاحها الأقوى هذا صحيح ولكن من يختار

الصدام يختار فى نفس الوقت ما يتبعه من جروح ولكمات وكدمات وإلا فليذهب ويبحث لنفسه عن لعبة أسلم .

لسنا بسبيل السياسة . نحن بسبيل ذلك الموقف « الوجدانى » من الدولة والحكومة . وهنا بالتحديد أتحدث عن موقفى أنا . وجدانيا كما قلت أحس بالغربة . وأنا أحس أنى لم أمت . أنى مطارد أو مطرود أو بالأصح غير مرغوب فيه . كنت أجد فى معسكر القراء والناس عزائى وشفائى . حتى وأنا شبه معزول عن الناس ولكن الاتصال الروحى موجود . بل ربما زاده البعد وجدا وحياة ودفئا .

والحقيقة أنى حين طلبت أن أسافر للعلاج على نفقة الدولة تصورت لأمر ما أننى أطلب ما لا حق لى فيه . إلى أقنعنى جراح قلبنا الكبير حمدى السيد والعبقرى الجديد جلال الزيادى أن من حقى أن أسافر فهناك قانون يعطى الحق لأى مواطن لا علاج له هنا أن يعالج بالخارج وعلى نفقة الدولة ، ومع ذلك كان خجلى واضحا وأنا أطلب من الصديقين الكبيرين يوسف السباعى كوزير للثقافة وإحسان عبد القدوس كرئيس لمجلس إدارة الأهرام فى ذلك الوقت .

والحق إنى فوجئت . .

فلم أكن أتصور أن الموافقة ستتم بهذه السرعة ، ليس هذا فقط بل لم أكن أتصور أن الدولة ممثلة فى السيد ممدوح سالم بل رأس الدولة ورب العائلة الأكبر الرئيس أنور السادات سيبارك هذا الطلب بنفسه . ذلك أنى علمت أن السيد الرئيس لا تزال فى نفسه بقية من آثار أيام ما قبل ٦ أكتوبر العظيم ، آثار حين يذكرها فى خطبه أحس بملامحه قد علتها غلالة من مرارة وكأنه ما كان ينتظر منا ـــ نحن الكتاب ـــ أن نضيع بالحال على هذا

النحو الذى كتبنا له فيه ماسمى بعد هذا بالعريضة . والحق أنى للآن لم أزل لا أدرى ماذا بالضبط ضايق الرئيس السادات فى هذا الذى فعلناه . إننا أيامها لم نكن نقرأ الغيب و لم نكن نعرف ما يدور بخلده لندرك أنه قد انتوى المعركة ويعد لها . وكلماتنا لم تكن سوى رسالة يكتبها مخلصون تماما لبلدهم ولرئيسهم يطلعونه فيها على مكنون الشعور العام تجاه حالة اللاسلم واللاحرب التى كنا نخوضها . وماذا ينتظر الصديق من أصدق الأصدقاء أكثر من أن يواجهه بالحقيقة وإلا كان منافقا ومخاتلا ؟ كنت أتصور أن السيد الرئيس يغضب لو نحن عرفنا ما يجيش فى صدور الناس وسكتنا عن إبلاغه به ، إنها حينئذ كانت تعتبر أمام ضمائرنا وأمامه مؤامرة صمت منا عن إيصال الحقيقة والشعور . وأنا لا أعرف كيف تحول عمل صادق كهذا إلى مؤامرة كتابة فى نظر السيد الرئيس إلا إذا كان بعضهم قد تطوع وقلب الآية . وليست هذه أول مرة تحدث وربما لن تكون الأخيرة فما أكثر الذين تطوعوا ــ أو بالأصح تطوع ــ ليكون حاجزا بين الكتاب والمثقفين رئيسنا الراحل جمال عبد الناصر ، وربما لو كانت قنوات الاتصال ظلت مفتوحة لعرف عبد الناصر كثيرا من الحقائق من هؤلاء الذين (قلوبهم على ألسنتهم) ولما ارتكبت كثير من الأخطاء نتيجة مسايرة الأهم الذى كان يكونه المحيطون به حوله ويعزلونه عزلا عن التيارات والنبضات والآهات بل وأحيانا الحقائق والأحداث .

كانت نيتنا سليمة إذن ونحن نوقع هذه الرسالة التى رأينا أن نعهد بكتابتها إلى أكثرنا تعقلا وحكمة وهو أستاذنا توفيق الحكيم .

كنت كلما لمحت هذه الغلالة من المرارة تكسو وجه الرئيس أحس أن

شيئا ما قد قام بيننا وبينه ، وأن هكذا شاءت الظروف والحظوظ ، ولم يعد باليد حيلة .

والحق أن مرارة أكثر كانت تشيع فى حلقى كلما حدث هذا ، فالفن والفكر والثقافة كائنات مرهفة تقتل روحها ربما بلمسة أصبع أو بإشاحة وجه ، وهذا العهد الجديد : ثورة التصحيح والانفتاح وترسيخ الديمقراطية مطالب كانت من أعز أمانينا وقد جاء هذا الرجل الكبير يحققها ويدعو لها . والفن والفكر والثقافة لابد أن تكون موجات صوته ودعوته ونبضات رسالته التى تجعلها تستقر فى أعماق النفوس والقلوب وتصبح داخل شعبنا واقعا حيا يعتزون به ويدافعون عنه ضد أى غاصب أو دكتاتور .

ولكن الغلالة ظلت موجودة .

ورغم الغلالة فها هو الرجل الكبير ، بذلك الجزء الأكبر والأعظم من نفسه ، المصرى الشهم الجدع . يقرر وفورا أن أمنح كافة التسهيلات لعلاجى .

* * *

واتضح أن الهاجس كان على حق ، وأنه عبثا لم يتحول إلى إبر ومسامير وغيوم وظلام . ففى الغرفة شبه المظلمة وعلى جهاز تليفزيون يضخم الصورة رأيت السلك الرفيع يدخل من شريان يدى ويأخذ طريقه بدراية مذهلة ليصعد إلى الشريان الإبطى ثم الأورطى ثم ينثنى وكأنما يقوده كائن بشرى بدركسيون مركب فى نهايته مع أن شيئا لا يقوده .أو يتلاعب به سوى أصابع أمهر طبيب قلب فى العالم بعمل

(قسطرة) للقلب. اسمه ميسون سونز، ولو رأيته لحسبته شخصية من شخصيات الكاوبويز ، حتى لغته تحفل بكثير جدا من التعبيرات غير الطبية وحتى غير اللائقة ، ولكنه عبقرى ذلك لأنه أول من فكر فى عمل أشعة لشرايين القلب عن طريق ذلك السلك المجوف الرفيع المصنوع من مادة قابلة للثنى بناء على تحكم خارجى ، وبهذا السلك العجيب حدث الانقلاب التام فى طب القلب . وباتت كل المعلومات التى درسناها عن طب القلب فى صدر شبابنا وأفنينا فيها أعيننا وذاكرتنا تبدو كمعلومات الأطباء عن أسباب المرض قبل أن يكتشف (باستير) عالم الميكروبات ويثبت أنها هى وليست الجن أو العفاريت هى التى تسبب المرض.

درسنا — ولازال طلبة الطب عندنا يدرسون — أن (الذبحة الصدرية) أو (الأزمة القلبية) أو (الجلطة التاجية) . مصيبة كبرى إن حلت بإنسان فلا قيامة له بعدها . وامتد هذا العجز العلمى من الأطباء وأساتذته إلى الناس فأصبحت الكلمة ، يا عينى عنده القلب . أو : ده مسكين (عنده) القلب . ومعناها بأكثر التفسيرات تفاؤلا أنه سينتهى بالكاد فى عام أو عامين (كتاب الطب الذى عندى يحددها — ياللعبقرية — بثلاثة أعوام) وأنه سيعيش خلال هذه المدة على ريجيم دقيق وحياة بالقطارة ، شبه عاجز ، محكوم عليه بالإعدام ، ينتظر — وياللهول بالريجيم — يوم التنفيذ .

وذلك كله بالطبع لم يكن جهلا من الأطباء أو قصور نظر ، فى الحق كان هو نتيجة للمتوفر أمامهم من سبل التشخيص والعلاج ، فالقلب

ذلك العضو الرهيب الغامض المثير لم يكن أحد قد أوغر داخله حيا ، ولم يكن أحد يعرف الكثير جدا من أسراره ، إذا انسد الشريان عليه العوض ، إذا فسد الصمام فالنهاية الموت بالهبوط . الطب بعقاقيره وسماعته وحتى برسام قلبه كان عاجزا عن أن يدرك ، وإذا أدرك عاجز عن أن يعالج إلا ببضع عقاقير لا تفعل أكثر من أنها تؤجل النهاية .

وكان على تكساسى مغامر شديد الاعتداد بنفسه كثير السباب أن يقتحم على طريقة المافيا وكر القلب الدفين ، و (يخترع) جهازا لتصوير القلب من الخارج والداخل وبالشريان والوريد وأدق الدقيق من الأوعية . وهذا هو ميسون سونز الذى قارب الستين والذى كان قد احتفل من أيام (بالقسطرة) رقم ١٦ ألفا التى قام بإجرائها بنفسه (لكى ندرك ضخامة الرقم لا بد أن نعرف أن عدد القسطرات التى أجريت على يدى كل أطبائنا ربما يتجاوز المائة بقليل) . هذا هو ميسون سونز يدخل — بدراية معجزة ، وفى ثوان — السلك فى الأورطى ثم يوجهه ليدخل من البطين الأيسر ويثنيه ليواجه مدخل الأوعية التاجية ويحقن مادة مشعة ترسم بعد ثانية شجرة الشريان الأيمن كاملة ثم يعيد توجيهه — ياللبراعة — ويحقن فتحة الشريان الأيسر فترتسم شجرته أمام عينى كاملة ، ثم يقيس الضغط داخل الأذين ثم يخترق الصمام ويصبح طرف السلك فى البطين العظيم ويحقن وينقبض البطين وينبسط ويصبح السر القلبى فيلما سينمائيا علنيا كاملا أراه أمامى ويسجله شريط تليفزيونى وسينمائى ويحادثنى ، وينسى دائما أنى طبيب ، ويشرح لى ما أراه ، والحق مع أنى طبيب أعرف القلب وتشريحه إلا أنى كنت فى حاجة ماسة

لهذا الشرح فقد كنت مبهورا بقلبى المتلفز أمامى ، بكل دقيقة فيه ، بكل مليمتر من شرايينه ، بكل شىء .

* * *

فى كليفلاند ــ حيث يوجد أكبر مستشفى لجراحة القلب فى العالم ــ جالية مصرية ، بل أكاد أقول شعبا مصريا بأكمله . شعبا قوامه سبعون عائلة ، معظمها من إخواننا المسيحيين والأقلية مسلمين ، ومعظم هذا الشعب من الأطباء ، وللصدف الغريبة معظمهم يعملون أطباء تخدير ، بل توجد بالذات أجمل طبيبة مصرية رأيتها فى حياتى متزوجة وتعمل طبيبة أمراض نفسية فى نفس المستشفى . شعب مصرى صغير استأجر لنفسه كنيسة ويستعد لإقامة جامع ، بل إن الكرازة المرقسية هنا أرسلت لهم قسيسا شابا كنت قد قابلته مرة أثناء محاضرة لى فى مدرسة الجيزويت وكان ثوريا جدا فى آرائه وعجبت حين ذكر لى صديقى العزيز الدكتور فتحى بهيج مستشارنا الثقافى فى واشنطن أن الذى سيقابلنى فى كليفلاند ليأخذنى إلى المستشفى هو الأب ميخائيل ، وكم أسعدتنى المفاجأة أن أرى ثائر الإكليريك وقد نمت له لحية سوداء كبيرة وبقلنسوته وردائه الأسود الذى نتعرف منه دائما على قسسنا الأقباط المميزين وجدته أمامى يستقبلنى هو ووفد من الجالية فى مطار كليفلاند الكبير .

بل إن الأب ميخائيل زيادة فى الترحيب بى ــ دعانى للذهاب إلى الكنيسة المصرية يوم الأحد ــ اليوم التالى لوصولى ــ لأحضر الصلاة ولكى يدعو لى الرب أن يأخذ بيدى . وكانت تلك أول مرة أحضر فيها

صلاة مسيحية ، وارتبكت ماذا أفعل ؟ وقلت لنفسى أصلى أنا الآخر صلاتى ، فرحت أتلو الفاتحة والتحيات وسورة : قل هو الله وأحد المحببة إلى قلبى . وقضيت فى كليفلاند شهراأو أقل قليلا ، وتصوروا ، لم أتغذ أو أتعش أنا وزوجتى على حسابى مرة أبدا.حدث ذلك التنافس الطعامى الخلاق بين الصعايدة والبحاروة وبين المسيحيين والمسلمين وبين الأطباء وغير الأطباء . ذلك التنافس الشريف حقا الذى زود وزنى خمسة كيلوجرامات بأكملها .

دخل على الدكتور فوزى أسطفانوس ، الذى يشغل فى مستشفى كليفلاند الهائل مركزا دقيقا جدا ، ربما أدق من ذلك الذى يشغله الدكتور الباز فى أبحاث الفضاء ، إذ هو رئيس قسم التخدير بجراحة القلب . وإذا عرفنا أن الثورة فى جراحة القلب حدثت نتيجة لاكتشافات متلاحقة جديدة فى عمليات التخدير لأمكننا أن ندرك أن دور طبيب التخدير فى عملية القلب لا يقل ــ بل ربما هو أدق ــ من دور الجراح ، فالخطأ فى التخدير يميت فورا . ولكن الدكتور أسطفانوس لا يكتفى بهذا فهو دينامو الجالية المصرية المسيحية فى كليفلاند ، جمعيات ، لقاءات ندوات ، غير أبحاث تنشر ومتابعة غريبة لأحدث ما وصل إليه البحث فى التخدير بالنسبة لعمليات القلب بالذات . طبيب آخر كان يعمل نائبا علينا فى قسم الدكتور محمد إبراهيم فى قصر العينى اسمه الدكتور الطرزى أصبح رئيس قسم أبحاث أمراض القلب فى هذا المركز الطبى المهول . هذا غير سبعة أو ثمانية أطباء مصريين آخرين يعملون فى وظائف مختلفة بنفس المركز . شعب كامل من أمهر وأخلص أطبائنا ومهندسينا ومحاسبينا

وحتى قضاتنا ومحامينا وجدتهم فى أمريكا وإنجلترا وأطراف الأرض . كم نزفنا من ذكائنا ولا زلنا ننزف .

دخل فوزى ، متجهم الوجه ، معقود السحنة .

كنت لم أفرغ بعد من هواجسى بعد انتهاء عملية القسطرة . والحق أنى كنت خائفا جدا منها ، فنتائجها التى سمعت بها فى مصر كانت مروعة ، الموت ، الشلل ، جلطة الشريان ، غير ما خفى أو لم يكن فى الحسبان . مذهول لا أزال بالسهولة المعجزة التى صنع بها سونز القسطرة ، سبع دقائق فقط استغرقتها ، لم أشعر بشىء مطلقا سوى بعض الغثيان .

أأكون قد قضيت أحقابا أخاف من شبح لا وجود له .

أم أن الأشباح موجودة فعلا ، فقط قضت عليها خبرة ستة عشر ألف مرة قام فيها سونز بالعملية حتى أنه عملها لنفسه ذات مرة .

قال فوزى بصوت خفيض :

ــ إنيورزم . لفت فنتريكيوالا إنيورزم .

* * *

القرار

فى نهاية النهاية الرجل مجرد قرار . وحين أتحدث عن الرجل لا أقصد الذكر ولكنى أقصد الإنسان العام ، أعلى مراحل تطور الحياة ، الخالق ، المدير ، الواعى . خليفة الله .

ذلك أننا . إذا حاول كل منا أن يراجع حياته ، وقيمة هذه الحياة فسيجد أنها تكاد تتلخص فى عدة قرارات اتخذها ، أو لم يتخذها ، وبنى بها مجرى خالدا لوجوده أو أحال ذلك الوجود إلى مستنقع سطحى راكد .

وكان علىَّ أن أتخذ قرارا .

وأن تتخذ قرارا فى مشكلة خارجة عنك . مشكلة تخص عائلتك أو حتى أقرب الناس إليك مسألة ، أما أن تتخذ قرارا فى حالتك أنت ، فتلك مسألة أخرى مختلفة تماما . فإذا كان هذا القرار لا يخصك فقط ولكنه سيحدد حياتك أو موتك ، بلا أى حل وسط ، فالمصيبة كما يقولون تكون أعظم .

ولقد ذهبت إلى أمريكا ولم يكن يخطر ببالى مطلقا ، أنى سأواجه هناك ذلك القرار . كنت أتصور على أقصى تقدير أن المشكلة لن تتعدى بعض تقصيرات نتيجة للأزمة القلبية التى حدثت لى وأنا فى مستشفى المعادى وأن علاجها سيكون سهلا وبسيطا جدا لا يتعدى بعض الأدوية

الحديثة . ولكن التجربة المروعة التى حدثت فى مستشفى المعـادى
وكانت السبب فى هذه الأزمة القلبية مسألة لا بد أن ترد هنا فهى تجربة
قل أن تعرض لها بشر . فلقد ظللت أشكو بألم فى رقبتى ما لبث أن امتد
إلى أكتافى حتى عجزت عن الحركة تماما وأصبحت الآلام لا تطاق .
وشخص الأطباء حالتى بأنها (انزلاق غضروفى) فى فقرات الرقبة
وصاروا يعالجوننى بالحقن المسكنة . ورغم أن الجرعات التى كنت
آخذها من هذه الحقن المسكنة ظلت تتزايد يوما بعد يوم رغم هذا فالألم
مروع وغير بشرى والكميات تتضاعف حتى ظن بعض أصدقائنـا
الصيادلة الذين كنت أشترى منهم هذه المسكنات أن المسألة انقلبت إلى
إدمان ، و لم تكن لعلاج مرض . حتى جاء اليوم الذى لم تعد أى كميات
مسكنة تجدى وكان على أن أنقل وأنا فى شبه غيبوبة من الألم والمسكن إلى
مستشفى المعادى حيث وضعت فى عنبر (النفوس المعذبة) أو مـا
يسمونه فى المعادى (إنعاش الرابع) . وهناك عملوا لى أشعة على الرقبة
بعدما عالجونى من الغيبوبة وكانت نتيجة الأشعة يكاد ينخلع لها القلب .
وجاءنى ذلك الصديق الطبيب بعينيه الصريحتين الجريئتين وجلس بجوار فراشى
وقال : اسمع .. إن هذه الأشعة التى عملناها لك لا يمكن أن تكون إلا
لسرطان فى فقرات العنق . وهناك أمل ضئيل جدا أن يكون التهابا درنيا
ولا شىء غير هذا ..
استمعت إلى الكلمات وكأنه يتحدث لى عن شخص آخر . وصمت
صمتا غريبا وكان كل ما بداخلى من انفعالات قد مات فجأة . اكتشفت
أمرا حادا ملحا : ألا يخبر الطبيب زوجتى بهذا الذى اكتشفوه فقد

لا تحتمل الصدمة .
ولكنى كنت متأخرا ، ذلك أن الطبيب كان قد غادر العـنبر ،
والمؤسف أنه قابل زوجتى فى الطرقة ومعها قريبة لنا وأخذها إلى مكتبه
وأخبرها بنتيجة الأشعة وكانت كارثة انتهت بعمليات إغماء وإفاقـة
ومشهد مروع وجاءت هى بعد ساعات وعلى وجهها ابتسامة وقابلتها أنا
بابتسامة أوسع وأخذنا نضحك على أشياء تافهة ، غير أنى أدركت —
وفيما بعد علمت أنها هى الآخرى أدركت — أن كلانا كان يعرف رغم
براعة التمثيل ، إن حكما قدريا مهولا قد صدر ، فمعنى سرطان فى
العمود الفقرى أن حياتى لن تتعدى الشهور القليلة جدا ، بـل ربما
الأسابيع أو حتى الأيام ، وأن هذه العائلة الجميلة التى نكونها قد أصيب
عمودها الفقرى هو الآخر بضربة ستقصم تماما ظهر العائلة ، ولـن
تستمتع نسمة (عامان فى ذلك الوقت) بأن تقول مرة أخرى ، يا بابا .
فى اليوم التالى جاءنى الطبيب الصديق . إنه طبيب جراح فى الجيش
مقاتل بطبعه ، شجاع بطبعه ، صريح لا يهاب شيئا ، حتى ذلك الحكم
الذى تصدره على المريض بحياته أو بإعدامه . جاءنى وقال : اسمع غدا
سأجرى لك اختبارا أخيرا لآخذ عينة من عظام الفقرة بواسطة إبرة سندخلها
فى رقبتك من الأمام بدل أن نقوم بإجراء عملية جراحية نفتح فيها الرقبة
وننحى القصبة الهوائية والبلعوم والأوعية الدموية الكبرى لنصل إلى
العظم . وسنصل بهذه الإبرة إلى المنطقة المظلمة فى الأشعة لنعرف إن
كانت خلايا سرطانية أو مجرد التهاب ، فاستعد يا بطل ..
بطل !! ..

ألم يكن باستطاعتك أيها الصديق الطبيب أن تؤجل محادثة الأمس إلى أن تقوم بتجربة الإبرة وتتأكد ثم تصدر هذا الحكم الذى عصف بحياتى عصفا ؟ ..

وطفرت الدموع من عينى ..

ليس حزنا على نفسى ، إنما إحساس أنى أخيرا هزمت وإن نهاية ذلك الذى آلى على نفسه ألا يترك الحياة إلا وقد غيرها جاءت أسرع مما يتصور أو كان يقدر .

فى اليوم التالى غاب الطبيب قليلا عن موعده ، فتناولت إفطارى فقد كنت أحس بجوع لا حد له ، وكأن حب الحياة قد تحول داخلى إلى جشع للارتواء من كل ما فيها .

فى الحادية عشرة ظهر الطبيب . ومعه لفافة فيها الإبرة المشهورة وأخذنى إلى غرفة الأشعة ، من أحدث ما رأيت من غرف الأشعات فى العالم ، مزودة بجهاز تليفزيون بحيث ترى على شاشته كل ما يدور داخل الجسم وتظهره أشعة إكس .

غير أن عقبة كئودا ظهرت فجأة فقد رفض طبيب التخدير أن يعطينى البنج ما دمت قد تناولت إفطارى ، وكان على وعلى الطبيب إما أن نؤجل العملية كلها إلى الغد ، وإما أن يقوم بغرس الإبرة فى عنقى بلا تخدير ، وأنا صاح وواع ، ومشاهد لكل ما يحدث .

ولم أتردد . فلنقم بالعملية دون تخدير .. بل بالعكس .. سرنى أنى سأكون صاحيا وواعيا فأخوف ما كنت أخافه أن يخفى عنى الطبيب والآخرون النتيجة وأنا أريد أن أرى النتيجة بعينى وألمسها بنفسى وأعرف

وأتحقق إن كنت سأموت أو سأحيا دون مداراة أو إخفاء .

وهكذا استلقيت على المنضدة ، وبدأ الطبيب بمخدر موضعى ، يدخل الإبرة الغليظة التى تنتهى بكلابتين لينتزع بها جزءا من العظم حين يصله ، وأنا أرقب دخول الإبرة مروع أن تخترق شريان العنق مرة ، خائف أن تخترق زورى مرة ولكن خوفى الأعظم كان أن تقترب من المنطقة المظلمة فى الأشعة ، ذلك أن أجزاء الثوانى التى ستأخذها لتدخل أو لا تدخل فى تلك المنطقة كانت ستحدد مصيرى بشكل قاطع وإلى الأبد .

أجزاء من الثوانى ، رهيبة ، عام بأكمله مر ، حياتى تلف كالكرة الملتهبة تحمل كل ذكرياتى ، طفولتى وصباى ، أحلامى وأشجانى وطموحاتى ، أولادى وأحفادى من يأتى من بعدى ، آبائى وأجدادى .

وببطء مخيف مذهل تقترب الإبرة من المنطقة المظلمة ، والنتيجة لن تحتمل الشك ، فهى إذا دخلت فى المنطقة المظلمة التى تشكل جزءا من جسم الفقرة العظيمة فمعنى هذا أنها — تلك المنطقة — لم تعد عظما ، وإنما تحولت إلى ذلك النسيج الطرى السرطانى الرهيب ، التهم السرطان عظمها وتركها رخوة تمهيدا للموت الكامل الرخو الذى حالا ما سيحدث . وإن لم يستطع الطبيب إدخالها وقاومت المنطقة المظلمة فمعنى هذا أن النسيج لا يزال عظما سليما ، وأن الظلام له سبب آخر غير السرطان .

أجزاء من الثوانى انتفض لها جسدى وقفزت له كل خلية من خلاياه وارتكزت على أطراف أصابعها ترتقب النتيجة ، فهى لو تحدد عمرى

ككل ولكنها ستحدد عمر كل خلية فى وكل جزء وكل عضو ، بل ستحدد مصير أناس آخرين كثيرين غيرى .

* * *

وكان أروع نقر سمعته فى حياتى قاطبة هو صوت الكلابتين وهما تدقان فوق المنطقة المظلمة من الفقرة ، نقر أسمعه بأذنى ويصلنى مباشرة من عظام الفقرة إلى الأذن الداخلية ويصلنى حتى من أذنى الخارجية .

الحمد لك أيها الإله العظيم ..

مالكى ومالك الكون ..

ولم تطفر من عينى دموع ، فجأة أحسست بتعب وكأنى ظللت أجرى عمرا بأكمله ، كانت التجربة أكبر بكثير من احتمال البشر ، وبمثل ما دأبت على مصارعة الحياة وتحديها ظننت أنى أحتملها ، ثقتى بهذا الجسد لا تقهر .

ولكن أيها السادة ، للجسد أحيانا حدود . وأبدا لم يخلق الجسد لنحمل فوقه الجبل .

وثبت أن المسألة كلها لم تكن سوى التهاب بسيط فى الفقرات شفيت منه تماما بعد ثلاثة أسابيع .

ولكنى قبل أن أشفى منه ، كان القلب الذى حمل على عاتقه هذا كله قد أصيب بأزمة . ونقلت من عنبر النفوس المعذبة فى الرابع إلى عنبر العناية القلبية المركزة فى الثالث .

* * *

وها أنذا فى أمريكا ، سليم تماما ، معاف ، وها هو التشخيص الدقيق

يثبت أن هناك انبعاجا فى جزء من القلب نتيجة للأزمة المروعة . والأطباء ينقسمون على أنفسهم تماما ، الأغلبية تقول : إن هذا الانبعاج ما دام لا يسبب أعراضا فلا خوف منه إطلاقا وتستطيع أن تعيش به إلى السبعين والثمانين ، والأقلية تقول بل من المستحسن استئصاله من الآن فربما سبب أعراضا فى المستقبل .

فماذا أفعل أنا ؟ ..

وحين أقول أنا فى الواقع لا أتحدث عن نفسى وإنما أتحدث عن نوعى من الناس ، ذلك النوع الذى لا يقبل إلا الكمال المطلق ، الذى لا يستطيع أن يساوم ، الذى يمكن ولا يقدر أن يعيش خائفا من شىء ، متوقعا أن يهاجمه عرض ما أو مرض ما ، خائف من الهواء إذا هب الهواء ، ومن أى ألم يعتريه إذا اعتراه ألم .

كانت أياما كئيبة تماما ، فالمسألة فى حاجة لقرار ، وعمليات القلب ليس فيها هزار ، فأى فشل معناه الموت ، إنها ليست عملية فى ساق أو مصران أعور. إنها فى صميم مكنون الحياة ، تلك الحياة المركزة على هيئة كتلة عضلية حمراء تخلق وهى تنبض وتظل تنبض حتى نهاية النهاية ، العملية فيها ، وتستدعى أن يتحول الدم عنها ، ويوقف القلب تماما ، كى تتلقفه يد الجراح .

وبعد ساعات يعيدونه إلى النبض ، ويعيدون إليه دورة الدم ، فماذا لو لم ينبض ، ماذا لو قال : لا ؟ .. وفى أحيان يقولها ، ولا تفلح أى جهود فى إعادته ينبض ؟ ..

قلت فلأذهب لأعلى مستوى علمى فى أمريكا ، مستشفى البحرية

الأمريكية فى (بتسدا) بجوار واشنطن . والحق أن السفير أشرف غربال قد بذل كل جهده ، ولكن إجابة وزارة الخارجية الأمريكية كانت واضحة وصريحة : إن هذا المستشفى لا يعالج إلا الوزراء ومن هم من مستوى أعلى فى الدول الصديقة ومن يعتبر علاجهم هناك لمصلحة الولايات المتحدة .

ويبدو أن علاجى هناك لم يكن كذلك .

وشكرا لله أن حكومتنا كانت قد اعتمدت مبلغا مناسبا تماما كى أستطيع أن أرى أكبر جراحى القلب هناك ، وهكذا عـرضت على الدكتور دبيكى جراح القلب الشهير الذى أكد لى أن المسألة ليست بحاجة الآن لعملية ، اذهب إلى مصر ، وعش أربع خمس سنوات وإذا تعبت تعال هنا ونعمل لك العملية .

وكان سهلا أن أعود هكذا إذا أردت أو كلما أردت .

كان إحساس ما يؤكد لى أن المسألة فى حاجة لقرار شجاع ، وما أسهل أن تأخذ القرار الشجاع إذا كان الأمر يتعلق بغيرك أو بعملك أو حتى بأى أمر من أمور حياتك وما أصعب وما أبشع أن يكون القرار خاصا بجسدك ، بل بأهم ما فى هذا الجسد ، نبض الحياة فيه أو سريان الـدم .

غريب فى القارة الواسعة : أمريكا . غريب رغم الأصدقاء الكثيرين حولى ، والمصريين هناك ، وعلى رأسهم رجل من أخلص وأنبل من قابلت فى حياتى : الدكتور عبد الهادى مخلوف قنصلنا العام فى أمريكا ، من طبيب لطبيب ، ومن مستشفى لمستشفى ومن اختبار لاختبار .

والقرار لا يزال رابضا هناك فى أعماق ، ينظر لى بعينين لامعتين ماكرتين تتلمظان ، إما لالتهامى والاجهاز على ، وإما لكى ألتهمه أنا وأمضغه وأصنع من مادته حياة ، حياة حرة طليقة بغير قيد ، بغير تحديد ، بغير عجز ، بغير ذلك الإحساس الممض : أنى ضعيف .

* * *

ولكن ، يبدو أنه كان للمشكلة وجه آخر لم ألحظه . ذلك أن الطب فى أمريكا مثله مثل أى شيء آخر هناك ، له طبيعة مختلفة إلى حد كبير عن الطب هنا ، اختلاف الإنسان الأمريكى عن إنساننا هنا . المجتمع الأمريكى قام على انتزاع الوجود بالقوة والقوة لا تزال هى القانون السائد ، قوة المال أو قوة النفوذ أو قوة المسدس أو حتى القوة العضلية المحضة ، ولذلك فالصراع من أجل البقاء هناك صراع رهيب لا يمكن أن يقارن بالحياة الوادعة المنبسطة الممتدة هنا . هنا تحس أنك حى .. لا يمكن أن تموت إذا مت من الجوع ، لابد لك قبيلة ، أو قرية ما أو مجتمع ما ممدود الأيدى دائما لانتشالك ، محال أن تغرق . هناك إذا غرقت لن تمتد لك يد أبدا بالمساعدة ، إذا هويت هويت وحدك ، وإذا عشت عشت وحدك ، وإذا اغتنيت أو افتقرت أو مرضت فأنت وحدك الذى عليك أن تقبض أو تدفع ، ولهذا فالإنسان فى هذا المجتمع عليه أن يشحذ جميع أسلحة بقائه ليظل حيا ، ولهذا ليس غريبا أن يكون الأطباء على قمة أصحاب الدخول الكبيرة فى أمريكا ، ذلك أن الإنسان هناك مضطر أن يحافـظ على صحته ـــ رأسماله الحى ـــ لكى يحيا ولكى يؤمن هذه الحياة

وليست هذه هى المشكلة وحدها ، المشكلة الكبرى أيضا أن المجتمع

الأمريكى قد وصل إلى أعلى درجات التصنيع ، بحيث أن الطب نفسه أصبح صناعة ، حتى عمل العمليات أصبح صناعة ، فالجراح هنا لا يدخل ليشق الجلد بنفسه ، ويصنع الجرح بنفسه ، ويصل إلى مكان عمل العملية بنفسه . أبدا لا توجد غرفة عمليات واحدة يتعهد فيها الجراح بعمل العملية من الألف إلى الياء ، غرفة العمليات عبارة عن سبع أو ثمانى غرف ، يقوم فيها كل نائب بعمل خطوة من خطوات العملية ، ويقوم المساعد بالعمل الأكثر دقة ، أما الجراح المتخصص فهو الذى يدخل هذه الحجرة ليضع اللمسة الأخيرة الخاصة به سواء أكانت فى القلب أم الرئة أم الكلية ، ويغادر الحجرة ليضع اللمسة الأخيرة الخاصة به فى مريض آخر . صناعة المستشفيات مهولة الحجم ، تلحق بها فنادق خاصة لإقامة أقارب المرضى والعمل يجرى كما لو كنت فى مصنع سيارات ضخم،فقط هنا يصلح الإنسان ، ولكن على نفس الوتيرة ، وتيرة الـ Mass production .

كيف لإنسان جاء من الوادى الوادع ومن الطب حيث الطب لا يزال مهنة فردية وادعة يقبل أن يضع نفسه فى (خط) إنتاج وإصلاح الإنسان .

ولكن المحير أيضا أن أمريكا هى الرائدة فى جراحة القلب . سبقت أوربا فيه بمراحل ويكاد يكون من المستحيل أن يموت الإنسان هنا نتيجة خطأ إلا إذا كان عمره هو نفسه قد انتهى .

ذلك قرار آخر كان من المحير تماما أن تأخذه ، أو لا تأخذه . أليست إنجلترا أقرب إلينا وإلى طبيعتنا من هذه المصانع البشرية الهائلة التى يعالج فيها الإنسان ؟ ..

* * *

وقفة مع النفس هذه المرة

أجل فى نهاية الأمر ، الرجل ليس شوارب كثة أو صوتا عاليا غليظا ، والمرأة ليست مجرد أنثى غندورة تعبث بها الحياة كما شاءت . لا . لا . لا الرجل ولا المرأة خلق من أجل أن يكون جثة طافية فوق سطح الحياة يتولى التيار العام أو الموج أو الرياح أو الصدفة اتخاذ القرار لها بالوقوف أو النكوص أو الانحراف ، الإنسان إرادة . الإنسان إنسان فقط حين يريد ، أى فى تلك اللحظات التى تتكون له الإرادة فيها . ليس مهما ماذا أراد أو يريد ، ماذا أحب أو لم يحب ، وإنما المهم أولا وقبل أى شىء آخر أنه إنسان لأنه دونا عن كافة الجماد والمخلوقات كائن ذو إرادة . أى له القدرة أن يريد الشىء أو الهدف حتى إذا اختلف ذلك الشىء أو الهدف عما جرى به العرف أو توافقت حوله الآراء ، يريد ويحقق ما يريد .

وإذا كان الإنسان إرادة ، فالإرادة أولا قرار .

والقرار هذه المرة ليس عاديا أبدا : أن تكون أولا تكون . ليس فى مسرحية ، من شعر شكسبير. . أو موقفا فى رواية أكتبها . ولكنه واقع صلب بارد لا مبال ، مثله مثل كافة الحقائق فى الحياة .

قرار على أن أتخذه ، أنا المملوءة خزانتى بأنصاف القرارات وأرباعها ، وكادت حياتى تؤول فى النهاية إلى (صندرة) قرارات موقفة التنفيذ ، مجمدة ، كهنة ، مهملة . أنا ، وممن ممن تشعب حياته ، وكافة

بلح) لقرارات وقرارات ، على المستوى العام وعلى أخص المستويات ، كلها مكسرة أو مكهنة أو مهملة ، أو صدئت تماما حتى فقدت فاعليتها وأصبح لا ثمن لها حتى فى سوق خردة القرارات .

أجل ، لحظة ، أو موقف ، تكشفت لى فيه أشياء كثيرة جدا . عن نفسى ، وعن شعبى ، وعن حياتنا ، وعن المأساة الحقيقية فى حياتنا : إننا شعب بلا قرار ، نكاد نكون بلا قدرة أصيلة على اتخاذ القرار . نترك الأمواج والأهواء والحيوات تعبث بنا كيف تشاء . تشيلنا الحياة وتحطنا . يتحدد مصيرنا . يتطربق أمام أعيننا المستقبل أو يحفل بالورود والزهور. يتغير الواقع . واقعنا أمام أعيننا ، تغيرا جذريا أحيانا . ونحن ننظر فى شبه بله إلى الأشياء وهى تقع ، وهى تحدث ، وهى تتفاقم ، وكأن مردة أوجنا أو عفاريت أو أشياء مجهولة هى التى تحرك الواقع وتحركنا . ولسنا فى هذه المهزلة كلها المسماة بالحياة سوى متفرجين . ننتظر آه . نصبر آه . نأمل آه . نعذب آه . نشكو آه ، نلطم آه . نصرخ آه . نفرح آه . ولكن أبدا أبدا لا نصنع نحن الفرح ، ولا نصنع نحن الحزن ولا نصنع نحن الحدث ، وبالتالى لا نصنع أبدا ذلك الشىء المهم ، أهم شىء فى حياتنا . لا نصنع حياتنا نفسها وإنما هى دائما تصنع (بضم التاء) لنا . تأتينا من أهلنا جائز ، من طبقتنا جائز ، من الظروف جائز ، ولكنها تأتينا جاهزة ، فنقبلها وكأنها أمر القدر . عمرنا أبدا لا نرفضها أو حتى نفكر فى غيرها . كل ما نطمع فيه أن نحسنها بعض الشىء أو نتعذب ونشكو بعض الشىء .. طلعت ضيقة شوية .. لأ .. واسعة حبتين .. لأ ..

الخصر مرهرط شوية .. وهكذا أصبحنا أعظم أخصائيين عن كافة الشعوب فى تقبل الحياة كما هى ، و (تأييفها) — على رأى التعبير العسكرى — والتواؤم معها .

ذلك أننا — مثلنا مثل ماء النيل فى بعض أجزاء النهر — نتوخى دائما أسهل الخطوط وأسلسها لنشق المجرى أو نحيا .. ذلك لأن معنى غير التقبل ، معنى الرفض أحيانا ، معنى أن نقول : لا للظروف أو لتلك الحياة الجاهزة ، معناه رهيب وخطير ومروع ، معناه أننا سنرفض الجاهز لنقرر نحن واقعا من صنعنا . وتلك هى الكارثة . فمعناها أننا نكون مسئولين مسئولية كاملة عن إقامة حياة أخرى كما يحلو لنا . حياة قد تنفع وقد نفشل وسنلقى فيها كل صعوبات خلق الأشياء والتفكير لها والتدبير ، وأرذل الأشياء جميعا ، اتخاذ قرارات عميقة حاسمة ننفذها ونتعب تماما فى أخذها وتنفيذها .. أليس الأريح والأفضل أن نقبلها ، وياشيخ ، بلاش وجع دماغ .. إنت لسه ح تعمل وتسوى ، خدها كده وريح نفسك . وعلى إيه دوشة الدماغ دى .

وهذه بالضبط هى المشكلة (دوشة الدماغ) . إذ نحن نسمى التفكير ذلك الذى يتفرد به الإنسان والذى اختصه به الله دونا عن سائر الكائنات والأحياء — نسميه (دوشة دماغ) وكأن الدماغ خلق لشىء آخر غير هذه (الدوشة) أو هذا (التفكير) . ألا نقول لبعضنا البعض إذا رأينا إنسانا منحرف المزاج قليلا .. أصل عنده شوية (فكر) .. التفكير إذن دوشة ومرض ووجع رأس . والحل .. اللاتفكير . الحل أن تكون سلطان زمانك . ذلك السلطان الصعلوك الذى يلملم فتافيت

الأسياد ويزدردها ويدلق فى فمه قلة ماء ويتكرع ويقول : أنا سلطان زمانى .

سلطان زمانه هذا الذى فى حياته ما تبوأ عرشا ، وإنما فوق رأس هذا السلطان زمانه أقيمت العروش والأعراس وركب الرومان واليونان والفرس والعرب والإنجليز وكان ممكنا أن يركب الروس والأمريكان وكلشنكان فما أكثر ماركب الطغاة سلطان زمانه ذلك المركوب دائما معنى ومجازا « الملجم دائما » معنى ومجازا ، الذى يعتبر أن البردعة الموضوعة على ظهره هى العرش ، لا يهم أنه العرش بالمقلوب ، ولا يهم أنه ليس عرشا وإنما ربما (عريش) عربة كارو . ماذا يهم ؟ ومالى أنا ومال (وجع الرأس) ، و (الدوشة) حيث تركبنى الهموم والأفكار .. مالى أنا وما لهذا كله ؟

هكذا راحت مشكلتى الشخصية كلما اجترتها أو جذبتها أحس بها كخيط الحاوى ، تخرج بأشياء وأشياء ، لأجد أنها ليست مشكلة الساعة أو العصر وإنما هى طويلة طويلة طولها ألف ألفان خمسة ستة سبعة عشرة آلاف ربما من الأعوام . أنا فرد هذا صحيح ولكن داخلى شعب بأكمله . داخلى تاريخ قديم قديم يمتد من الأزل إلى الآن . داخلى مفهومات وترسبات وقضايا مسلم تماما بها ، داخلى عصور جيولوجية صخور من الرواسب فوقها صخور داخلى إنسان مشكلته أنه أقدم إنسان ظهر على سطح الأرض عجوز ، عجوز جدا ، بلغ من الشيخوخة حد أن لم يعد مهما أبدا أى شىء يحدث فى الحياة أو للحياة .

تلك هى بالضبط المشكلة التى من أجلها بدأت ثورات الإنسان

المصرى فى عصرنا الحديث ، ولا تزال مشكلة أن نعيش كما يريدون أم كما نريد نحن ، ولأن الشعب هو أولا وأخيرا فرد ، ولأن الفرد هو أولا وأخيرا قرار ، فثوراتنا كلها وإن كانت ثورات جماعية شعبية لها مليون ظرف تاريخى ومليون وجه ونتيجة وتفسير إلا أنها فى أهم جوانبها راجعة إلى تململ ذلك الأنا المستسلم للقدر وللحياة فى قلب المصرى ، تململه من أجل أن يعود يحيا ومن أجل أن يعود يريد ومن أجل أن تصبح إرادته فى النهاية واقعا ، واقع لأول مرة من صنعه هو ومن كده ومن عرقه وبإرادته الحرة المطلقة ، وفى النهاية بقراره .

* * *

علمنا آباؤنا وأجدادنا ، علمونا فى المدارس والكتاتيب والجامعات ، حفظنا جدول الضرب وجدول مندليف وعلمونا جدولة الديون . كم علمونا وكم تعلمنا ، ولكن أحدا لم يأخذ باله أبدا ومطلقا من أهم الأشياء جميعها . أن يعلمونا أو نتعلم كيف نصبح رجالا .. أو بمعنى أدق كيف يصبح لكل منا شخصية وكيف يكون للإنسان منا رأى ، ثم فى النهاية وبناء على تلك الشخصية وهذا الرأى يأخذ قرارا .

أجل السؤال هو : كيف يتخذ الإنسان المصرى منا قراره ؟

بادئ ذى بدء وكما قلنا فإن معظمنا لا يكلف نفسه عناء اتخاذ أى قرار . فحياته كلها ليست قرارات من صنعه وإرادته وإنما هى سلسلة من الأفعال وردود الأفعال ، أو هى بالأصح ردود أفعال لما يقوم به أو يأتى من الغير .

والفرق كبير جدا بين القرار ورد الفعل .

فالقرار هو الأصل ، هو فى الحقيقة الفعل ، هو تحقيق الوجود بتحقيق الإرادة . عملية إيجابية يتخذها الأنا الأعلى فى الإنسان ليحقق بها رغبته أو إرادة أو خطة من صنعه هو وخلقه وابتكاره ، بينما رد الفعل عملية سلبية تماما ، فى الغالب هدفها مجرد الدفاع الغريزى التلقائى عن النفس ، أو الموقف القرار هو القدرة بينما رد الفعل هو العجز عن القدرة ، عجز عن المبادرة ، عجز عن إيقاف الآخر أو الآخرين موقف المدافعين بحيث ترغمهم هم ، ولست أنت ، على القيام بردود الأفعال .

* * *

وبصراحة نتكلم . من منا نحن المصريين يستطيع أن يزعم لنفسه أنه صنع أو يصنع حياته كما يريدها هو وليس كما أريدت له أو شاءتها الظروف والملابسات ؟

كم فى المائة ، كم فى الألف ، بل كم فى المليون من يستطيع وبصراحة مطلقة بينه وبين نفسه أن يزعم هذا ؟ ..

أنا لا أريد بسؤالى أن أقلب المواجع أو أتحسر أو ألوم ، بل حتى لا أريد بهذا الحديث كله عن نفسى وعن عمليتى وعن قرارى ، لا أريد أن (أكتب) انطباعات ، أو ذكريات ، أو أسجل واقعا من النادر أن يمر به الإنسان العادى فما بالك وأنا أول كاتب فى العالم (يجرب) المرور بعملية فى القلب كان هدفى الأكبر ولا يزال أن أحيل هذه التجربة الشخصية المحددة إلى القضية العامة التى تهم كل الناس ، قضيتنا نحن كشعب احترنا فى أنفسنا وحيرنا العالم كله معنا . بالضبط من نحن وكيف نفكر وكيف نعيش وكيف نقرر ؟ ما هو داؤنا الأكبر وأين

المكمن العظيم لقوتنا ؟ تلك هى المشكلة التى كانت ولا تزال وستظل تلح على : أن أكشف لأنفسنا سرنا أو بعضا من هذا السر . أن أجعل ذلك الشاب أو الشيخ ، وتلك الفتاة فى البنطلون المحزق ، أو فى زى الأخوات المسلمات ، أن أحاول مع هذا العالم الدينى الجليل الذى يفتى للناس فى أمر دينهم ودنياهم دون أن تختلج له ذرة تردد ، مع هذا المثقف الجالس على القهوة أو على المكتب الذى (وضعوه) خلفه ينقد ويلذع ، ويثور ، ويندد . مع منبر اليمين والوسط واليسار . مع المصفقين للإنتاج الهاتفين بحياة الغرب ، مع الثائرين يهتفون للشرق ، مع المرأة المصرية الحائرة بين أن تغامر مثل جارتها أو نتأدب ، وسائق التاكسى الذى ينبت فى رأسه فجأة أن يحيط العداد بالفوطة ويضرب عن العمل ، مع أهلنا وأحبابنا فلاحينا الذين يزرعون ويزرعون ولازالوا يزرعون وسيظلون يزرعون إلى ما شاء الله ..

* * *

مع هؤلاء جميعا ، أحاول ، صادقا ومخلصا وبكل ذرة من كيانى ووجودى ، بمشكلتى الخاصة ، بقضيتى العامة ، بالكتابة نفسها ، بكل ما يمكن للقلم أن يحفره ، بكل طاقتى وقدرتى وقدرات كل الناس على أقصى مستوى للتفكير أن نصل . أحاول ولو مرة فى حياتى ، أن أقف ، ونقف جميعا ، وقفة ، لا مع الصديق هذه المرة ، ولا مع العدو ، لا مع روسيا ولا مع أمريكا ، لا مع هذا أو ذاك ، وإنما وقفة ، ياعالم ، مرة ، مع أنفسنا ، وقفة مع النفس مرة لأجل خاطر نبينا محمد رسولنا العظيم ، لأجل خالقنا الأعظم ، نقف مرة ونتدبر ، ما هى المشكلة ؟ ولماذا يحدث

ما حدث إذا حدث ؟ وهل المسألة حظ أم فتاكة أم قلة حيلة ، أم أن للمسألة وجها آخر ، لم نره أبدا ؟ لا أحد أراه لنا ، وربما نحن لا نريد أن نراه ، وجها آخر هو وجهنا نحن .

لننظر فى المرآة :

لن نخاف أو نتوجس ، فنحن بعد لم نعد أطفالا ، الحرب حاربنا ، التاريخ صنعناه ، آمون خلقناه وعبدناه ، وكم من آمون خلقناه وعبدناه ثم أمتناه وبكينا عليه ، كل شىء فعلناه ، وكل شىء نفعله ومستعدين نفعله .

انفتاح مستعدين ، اشتراكية مستعدين ، نظام مستعدين . فوضى مستعدين ، تمام ، كله تمام يا افندم . وكم ضيعتنا كلمه تمام يا افندم ، يسار در : ندور ، يمين در : ندور ، وسط در : ندور ،فوق در: ندور، تحت در: ندور.شقلبة تشقلبنا ، جدعنة تجدعنا ، مرمطة تمرمطنا ، ثورة ثرنا ، تصحيح صححنا ، شد أحزمة شدينا ، غنا غنينا ، رقص رقصنا ، تضحية بلاذرة تردد ضحينا ، نكسة انتكسنا ، سموها هزيمة انهزمنا ، جاء ٦ أكتوبر ينقذنا فأنقذنا .

كل شىء فعلناه وكل شىء مستعدين أن نفعله .

إلا شيئا واحدا أخاف خوف الموت أننا لن نقدر على فعله . ذلك أن نواجه أنفسنا بقى ..

نغسل أصباغ البهلوانات والمهرجين .. نخلع ثياب الأبطال أو الشحاذين .. نرمى العكاكيز .. نتخلص من العاهات المصنوعة والحقيقية .. من أغطية زجاجات الكاكولة ونياشين البطولة الحقيقية اللامعة المزركشة .. نزين اللحى المصنوعة .. نتوقف لحظة عن الزعيق

الأجوف الذى نحاول أن نخوف به الآخرين فلا يخاف منه سوانا . نصمت ، يتوقف الصخب المروع المالىء حياتنا ، فى ثبات الرجال نقف (أقول نقف) وفرق كبير بينها وبين أن نتوقف . فالحادث فعلا أننا متوقعون والمطلوب أن نكف عن التوقف ، ونقف فى ثياب الرجال وشجاعتهم نقف .. ونصنع ألف باء الفعل الجديد بأى بنى بشر : نواجه أنفسنا ..

* * *

لا أقول إذن نقف جميعا ، بل أقول : ليقف كل منا ، عاريا تماما من كل شىء إلا من نفسه ، من صدق نفسه ، أمام مرآة ، وهى ليست مرآة غريبة عليه لأنها مرآة نفسه هو ، وعلى مدى وقدر صدقه مع نفسه يكون لمعانها أو ضبابها وضميره وحده هو الحكم .

ولكن هذا الطلب ، وبهذه الصيغة ، أن يقف كل منا أمام مرآة نفسه الحقيقية وقفة مع نفسه ، هذا الطلب ، وبهذه الصورة فيه أيضا ، ذلك التعميم الذى دائما نهواه ونحبه لأنه التعميم الذى به نهرب من الواقع ومن أنفسنا كما تعودنا أن نهرب . ولقد ظللنا نهرب إلى أن انتهى الأمر بنا حيث لا مهرب .

لكى يصبح الأمر تخصيصا إذن محددا وواضحا لا لبس فيه . أقول : فلأقف أنا ، قبل أن تقف أنت . فلأقف أمامك . وأمام نفسى وأمام الملأ . فلأقف فى تلك الغرفة الخاصة ، أمام تلك المرآة الخاصة ، عاريا تماما فى ذلك الحمام الروحى ، لأعرف من أنا . بالضبط : ماذا أفعل الآن ؟ ومن أنا ؟ .

وإذا لم أكن أنا ، فمن أنا ؟ إذا لم أكن ذلك المهرج ولا هذا البطل ، إذا لم أكن ذلك القرار صاحب الكلمات الضخمة ولا ذلك الفعال الذى غير وجه الدنيا ، فمن أنا ؟ وماذا أفعل الآن ؟ وماذا أنوى أن أفعل ؟ ..

* * *

قد يبدو للبعض أنها مسألة سهلة جدا . ما أسهل أن يتعرى الإنسان أو الإنسانة (خاصة هذه الأيام) وما أسهل أن يقف أمام المرآة وما أسهل أن يجيب وكأنما إجابته مسجلة على كاسيت لا ينقصه إلا إدارتها ..

أما الصعب تماما ، أما الخطير تماما فهو أن يحدث هذا كله بصدق لأنه يحدث — وربما لأول مرة — بينك وبين نفسك ، دون تدخل مطلقا من أحد ، وباختيارك أنت وبإرادتك .

إما أن أعيش الحياة كاملة ومطلقة وبكل ما أريده من حرية .

أمام الحائط الأخرس المرآة واجهت نفسى ..

وكان على أن أتخذ قرارا .

وإما أن أعيشها عاجزا ومرعوبا ومكتفيا بفتات أسيادها .

ولكى أتخذ القرار كان على أن أعرف من أنا ، ومن أنتم ، وبالضبط من نحن .

ولكى أعرف كان على أن أكون شجاعا تماما .

والشجاعة ليست صفة .

وليست قصرا على أحد .

وكلنا نستطيع — لو أردنا — أن نكون ، أو على الأقل نواجه ما نريد ، حين نريد ، بشجاعة .

وأقصى درجات الشجاعة فى رأيى ليست أن تقف مع الصديق أو مع العدو أو تواجههما .. الشجاعة الأكبر أن تقول : أنا جبان .. أو أنا خائف أو أنا لا أستطيع أو أنا قادر .

هو فى رأيى الإكسير السحرى للشجاعة .

بل هو الإكسير السحرى للحياة ..

فلقد اكتشفت أن الحياة كلها هى فى ملخصها لحظة قرار شجاع .. ومن يهرب منها ومن يؤجلها ومن يؤثر السلامة أى إشاحة النظر عنها هو الذى يموت . أو هو الميت وإن ظل يحتسب فى عداد الأحياء .. حيًا .. واسمحوا لى أن أطلعكم على داخلى الذى لا يختلف كثيرا عن داخلكم لأريكم كيف أخذت قرارا ، أعتبر الآن ، وبعد أن مضى كل شىء والحمد لله بسلام ، أنه كان أشجع قرار اتخذته فى حياتى .

فقد كان قرارا أن أعيش .

ليس تلقائيا هذه المرة وإنما أولد على يد نفسى ، وبإرادة الله خالقى وبحياة بعد خلقه الأكبر من صنعى أنا ..

ولكن تلك قصة أخرى ..

ألف باء تاء ثاء

آخر عهدى بقرائنا الأعزاء أنهم كانوا دائما يفهمونها وهى (طايرة) بحيث لا تصبح المقالة أو القصة حصة ، على الكاتب فيها أن يشرح لقارئه موضوع الدرس وملخصه وفى النهاية يختمه بالحكمة المستفادة من الموضوع . وهكذا أجد نفسى مضطرا لأن أعود فأقول — وبمنتهى البساطة — أنه لم يكن بذهنى أبدا أن أقص رواية عجيبة عن (مرضى) أو عن (عمليتى) الجراحية النادرة مع أن هذا فى العادة مادة محببة جدا إلى النفس لكل مريض . خاصة إذا مرت الأزمة . تصبح قصة مرضه وأقوال أطبائه ومفاجآت مستشفياته مادة خصبة حية يحلو له أن يتربع نفسيا بعد العشاء مع الأصدقاء أو أثناء الشاى ويحكى السيرة وكأنها واقعة من وقائع الزير سالم . بل لم أقصد حتى أن أستعرض حالة فردية (ولو كانت حالتى هذه المرة) لأقتنص منها ذلك الجزء الذى يمس الحالة الجماعية لنا ويصبح للموضوع حينئذ فائدة عامة .

لا أيها السادة ، لا مرض ولا يحزنون ، ولا تستعيذوا بالله من السيرة وتقلبوا الصفحة إلى موضوع آخر أكثر أملا وإنعاشا للنفس . إنى فى حقيقة وقرارة نفسى كنت أريد وعلى وجه التحديد أن أتحدث عن ذلك الجانب المشرق فى النفس . الجانب الأحيا وليس الجانب الأمرض ، الجانب الأكفأ وليس الجانب الأعجز . كنت أريد — ولا أزال أريد —

الحديث فى صميم لحظتنا الحاضرة ، فى صميم المشكلة ، فى صميم ما تعانيه أنت الآن فى هذه اللحظة وما أعانيه أنا . ليس لأننا كلنا — والعياذ بالله — مرضى . . وإنما لأننا كلنا وبطريقة أو بأخرى نمر بأزمة . الأزمة هى الكلمة ، اجعلها اقتصادية تكن ، محبة تكن ، فكرية أو زواجية أو جنسية حتى تكن . وما المرض بكل هيلمانه وخطورته ، بل ما الموت بل الحياة نفسها سوى أزمة . لم نخترها نحن والعادة أن الإنسان ليس غاوى أزمات أو هو الذى يختارها ، إنما الحادث أننا ، إلى رقابنا فيها .

ولقد لامنى كثيرون أنى لم (أشرع قلمى) وأخوض فى النقاش الهائل الدائر حول عبد الناصر وثورة عبد الناصر و ٢٣ يوليو والسد العالى والاشتراكية أو اللااشتراكية — التعذيب فى السجون — المعتقلات . لامونى وكأن المسألة قد انقلبت من معركة إلى معزى أو مناسبة اجتماعية عليك أن تؤدى (الواجب) فيها وتجبر بخاطر أهل المتوفى أو تنهال باللائمة على المرحوم وتعتبره السبب فى كل ما جرى . وكنت إذا قيل هذا أو فوتحت فيه أكاد أنفجر ضاحكا ، ذلك أننى كنت أتصور الوضع وكأن قد قامت فعلا حريقة فى مسرح البالون أو دار الأوبرا وأن رجال المطافىء قد تركوا الاستعدادات العاجلة المطلوبة فورا لإنهاء الحريق وراحوا فيما بينهم وبين أنفسهم وعلى صفحات الجرائد وبالساعات والأيام والسنين . . راحوا يتباحثون حول ما يمكن أن يكون السبب فى الحريق ، وهل هو بفعل فاعل ، أم أن الاستعمار العالمى كان منغاظا تماما من مسرح البالون فقلب نظام الحكم فى دار الأوبرا وأحالها إلى موقف عربات كارو . نقاش ونقاش وصفحات وأطنان من الحبر الأسود والأحمر والأزرق

تدلق فوق جرائد وكتب ومجلات يتخاطفها رجال المطافىء ويجلسون
على المقاهى يطالعونها بحماس شديد لمعرفة الأسس الفكرية والعقائدية
والنفسية التى تسببت فى الحريق والحريق والع ومتأجج والحمد لله أمامهم
يلتهم الأوبرا والبالون والمصانع ويلتهم النفوس البشرية ويلتهم التليفونات
ويلتهم المواد والمجارى وكل ما يمكن أن يلتهم على سطح أرضنا الطيبة .

كنت أكاد أنفجر ضاحكا من الغيظ ومن غرابة الموقف ، نناقش
الموقف وكأننا والحمد لله وصلنا إلى بر السلامة وجلسنا مسترخين فوق
رمال الشاطئ نتشمس ونتسامر بالحديث عن البحر المهول العميق
والمركب التى غرقت بنا أو كادت تغرق والمغامرة العجيبة الغريبة التى لا
تضارعها مغامرات أجعص سندباد . وكأن السندباد قد عاد من الرحلة
وكأنه نازع الأهوال والأمواج وأكلة لحوم البشر وعاد معافى سليما لا
يشكو من مرض . والعجيب أنه ليس أول موقف مضحك من مواقف
التاريخ المصرى أو الطريقة التى يعالج بها الإنسان المصرى حاضره
وتاريخه ، فلقد ظللنا بعد ثورة عرابى نناقش أخطاء ثورة عرابى وخيانة
خنفس بك ، بينما نفس الذين أفشلوا ثورة عرابى وعشرات الخنافس
الذين خانوا الشعب فى خضم هذا النقاش الهائج الهائل ، يسرقون ما تبقى
من ثورة الشعب المصرى بعد عرابى ويهدون الجدران والأساسات التى
تقف بعد انهيار الأدوار العليا كى يجعلوها سداح مداح كذلك الأمر حين
قيل إن ثورة ١٩ قد انتكست .. فقد ظل النقاش الساخن الفائر دائرا
حول سعد وعدلى وأيهما كان على حق بينما كان الإنجليز والسراى فى نفس
الوقت المشغولة فيه العقول والقلوب بالتحزب لعدلى أو لسعد .. كانوا

يغتالون البقية الباقية من ثورة ١٩ ويبلعون دستور ٢٣ الذى جاءت به
الثورة ، حتى ليصل الأمر فى أوائل الثلاثينات بمحمد محمود وإسماعيل
صدقى أن يحكما مصر ، مصر التى ثارت ثورة رجت الإمبراطورية
البريطانية فى عنفوان قوتها ، يحكمون ذلك الشعب الأسد الذى ثار
بالحديد والنار ويحيلون العداء الذى كان من الواجب أن يستحكم بين
المصريين والمحتلين إلى عداء بين الوفد وبقية أحزاب الأقلية .

ولنصل إلى الآن ، وإلى ألذ المواقف إضحاكا . تصوروا نحن بالكاد قد
انتهينا من بناء السد العالى ، بل ولم تعمل فيه إلا أربعة توربينات فقط أى
ثلث قوته العادية وأنفقنا عليه من الجهد والعرق والمال ما لابد ينوء بحمله
شعب صغير محدود الموارد مثلنا . نحن بالضبط مثل التاجر أو الموظف
الصغير الذى قضى عمره يحوش ويدبر ليبنى عمارة من ثلاثة طوابق
مثلا ، وها هو قد بناها وأصبحت أكبر رأسمال يمتلكه وأسكن منها الطابق
الأول وبدل أن يعتبر أنه أصبح أمام أمر واقع فعلا ألا وهو ذلك البناء وأن
لا سبيل مطلقا إلى استرجاع ما أنفق عليه وما بذله من جهد إلا إذا هدمه
وباعه خردة ، بدل أن يدرك هذه الحقائق الواضحة التى لا تقبل الشك
أو الجدل ، بدلا من هذا يجلس على الرصيف المقابل لا ليناقش أنسب
وأكسب الطرق للاستفادة بهذا البيت الرأسمالى ، بدلا من أن يفكر فى
إقامة كازينو علوى أو إنشاء صناعة تعليب أسماك على ضفاف البحيرة أو
استعمال الثمانية توربينات الكهربائية التى بعد لم تستعمل ، بدلا من هذا
يجلس وحوله عائلته الكريمة ، تاركا البيت ينعى الوقت والجهد والمال
الذى بذل فيه ليناقش هل كان يصح أو لا يصح إقامة البيت . طيب

لنفرض أن إقامته كانت خطأ فى خطأ .. ماذا نفعل ؟ .. نهدمه ؟ .. نطرحه فى المزاد العالمى لتشتريه دولة أخرى تقيمه فوق نهر آخر ؟ بل لنفرض أننا قاضينا المقاول الذى بناه أمام محكمة خاصة قاسية تماما وحكمت عليه بأقصى الأحكام ألا وهو الموت مثلا ، ألم ندرك بعد أن المقاول مات فعلا وأن هذه التركة لنا وأن المحاسبة لابد أن تكون أولا محاسبة لأنفسنا لأننا لا نستغل التركة — حتى بفرض وجود عيوب فيها ومنها — كما يجب — لا . نحن لا نفعل هذا أبدا وإلا تخلينا عن صفتنا القومية البارزة ، سنظل نناقش أكان يجب بناء السد أو كان لا يجب حتى ونحن ، بلا نقاش ، وقبل أن نستفيد الفائدة الكاملة من كهرباء السد نشرع فعلا فى إقامة سد آخر فى منخفض القطارة لتوريد وتوليد كهرباء لنا ، وكأننا استنفدنا القدرة على توليدها من السد العالى دون إنفاق مليم واحد . بل أكثر من هذا وبلا نقاش أيضا أو حتى محاولة للاستنارة نقيم محطات لتوليد الكهرباء بالطاقة النووية تتكلف ملايين الجنيهات ودائما سنستورد وقودها النووى من بلاد أجنبية وستكلفنا إدارتها وسيكلفنا الكيلوات الواحد منها أضعاف أضعاف ما يمكن أن يكلفه توليد الكيلوات الواحد من الطاقة المائية المتوفرة عندنا والحمد لله بكثرة ، ومن الطاقة الشمسية التى تغمر الأفق . نفكر فى إزالة الملوحة عن مياه البحر الأبيض وبالطاقة النووية المكلفة وكأننا استنفدنا تماما المياه العذبة الطبيعية التى من الله بها علينا من نيلنا الكبير الذى تذهب مياهه هدرا وبمنتهى الإسراف إلى البحر المتوسط إياه لكى تستحيل بتقصيرنا إلى مياه ملحة نقيم لها المحطات لإزالة ملوحتها . ونفعل هذا كله بلا نقاش بينما النقاش فى

هذه المرحلة هو المحتم والواجب إذ ربما يتفق الأمر عن عمل مواسير أو ترع بالأسمنت المسلح تفور فى قلب الصحراء إلى سيوه لو أردنا ، وبتكاليف لاتكاد تعادل واحدا على ألف من مشروع القطارة الذى قيل — والله أعلم — أننا سنستخدم فى إنشائه القنابل الذرية .

النقاش على حسب تقاليدنا القومية المعتادة سيكون بإذن الله بعد إقامة هذه المشروعات وبعد أن نكون صرفنا عليها نحن الفقراء الجلد والسقط وبدلا من أن نناقش الآن وبمنتهى الهدوء أولئك المهندسين والمخططين الذين يتصدون لمشروعات القطارة وإزالة ملوحة البحر ونتجنب خسارة محققة جسيمة أو يتكشف لنا الأمر عن مكسب حقيقى ، بدلا من هذا ننتظر حتى يخططوا بسرعة وعلى عجل للمشروع ويصبح أمرا واقعا ومالا وجهدا وعرقا تحتويه الرمال وتبتلعه أمواج البحر وهنا نجأر بالصراخ ونطالب برءوس هؤلاء المخططين والمهندسين بعد أن يكون معظمهم قد تاواه القبر أو انتهى أجله أو أصبح فى حالة لا تسمح بأى عقاب .

أليس الأفضل أن نناقش الشىء (قبل) أن يصبح خطأ أو صوابا من أن نعاقب مرتكب الخطأ (بعد) أن يكون العمل قد تم ؟

* * *

ما علاقة كل هذا بالمرض والعملية ..

العلاقة أن المرض والعملية والظروف القاسية التى نكره الحديث عنها الآن وعن قولنا إننا نمر بها ليست فى شكلها المجرد سوى (أزمة) .. والإنسان إذا مر بأزمة مفروض أن لا يتوقف ليندب حظه العاثر

ويبكى وينوح ويتساءل .. لماذا هو دونا عن بقية الدنيا قد أصيب بتلك الأزمة ؟ إنه قد يتوقف لبرهة هذا صحيح ليعرف من أين أو كيف جاءته ، ولكنه لا يعرف هذا ليحاكم جسده الذى تخاذل أو يصب جام غضبه على الميكروب أو الجلطة وإنما ليستمد من معرفته هذا نورا يهديه السبيل للمقاومة الفورية الواجبة . مرة أخرى أقول يعرف ليقاوم . وخلايا الجسد نفسها ببساطتها وتلقائيتها تعلمه تماما هذه الحقيقة . تتولى معاملها ومراكز المقاومة تحليل سم الميكروب وتحديد فصيلته ثم تتولى مصانعها المدفونة فى أكبادنا ونخاع عظامنا تتولى على الفور صناعة الأسلحة المضادة ، تصنع الأسلحة وهى قد دخلت المعركة من أول لحظة ، تحارب وهى تصنع ، تحارب وهى تفكر وتحدد ، تنظم مقاومة شاملة غير محدودة فى أول الأمر ثم حين تتولى معاملها المحللة تبين العدو أكثر فأكثر تنتج له وهى أيضا تحارب وتقاوم أسلحة أكثر دقة وأكثر تخصصا وأكثر قدرة على التهاب أسباب العلة ومقاومتها .

ولكن المسائل تتعقد كثيرا ، حين ندرك رحلة مقاومة الجسد وحرب الخلايا الطبيعية الفورية ونصعد فوقا إلى المرحلة الأعلى حيث لابد على الإنسان ككل وكإرادة أن يدخل المعركة . فهذا هو دخول الأسلحة الثقيلة ، إذ أن أثقل سلاح يمتلكه الإنسان ليصد به العدو أو يرحب بالصديق هو إرادة ، وأثقل قذيفة تطلقها الإرادة هى قذيفة القرار .. وهنا تأتى علتنا القومية .. فأسخف شىء لدينا هو إنتاج هذا النوع من الأسلحة المحلية مع أنها السلاح الوحيد الفعال.

لا أدرى لماذا ؟ .. أبسبب أننا تعودنا دائما استيرادها ، أبسبب أننا

رغم حديثنا الكثير عن أن الإرادة لابد أن تكون إرادتنا وأن القرار لابد أن يكون مصريا أولا وأخيرا نغفل عن حقيقة خطيرة هى أننا بمكن بهذه الوسيلة أن نجعل اتخاذ القرار حقيقة فى أيدى غيرنا بل ربما فى أيدى أعدائنا ؟ فحين يعرف أعداؤنا — حتى بفرض وجود عيوب فيها ومنها قراراتنا هى فى الواقع ردود أفعال لأفعالهم هم — ردود مصرية حقيقية .. نابعة منا .. هذا صحيح .. ولكن سببها وعلتها أنها موجهة ضد (قرار) آخر اتخذه العدو أو اتخذه الصديق . وأن هذا العدو باستطاعته التحكم فى قرارنا .. أى التحكم فى ردود أفعالنا بالتحكم فى قراره هو . وبهذا تكون النتيجة فى النهاية أن العدو هو الذى يقرر لنا .. ومثل هذا واضح تماما فى حرب ٦٧ فقد بدأت المسألة بصرخة استغاثة مشبوهة من الحكم السورى فى ذلك الوقت أن إسرائيل تحشد قواها لاجتياح سوريا ، ولأن رد الفعل كان مدروسا فقد كان معروفا للإسرائيليين أن رد الفعل الطبيعى لمصر أنها ستقول : لو حدث عدوان على سوريا فسوف تتصدى مصر للدفاع عنها . وهنا تصرخ صحف مشبوهة أخرى فى بيروت وتقول : كيف يا عبد الناصر يا من تزعم أنك زعيم القومية العربية تستطيع الدفاع عن سوريا وأنت نفسك تستعمل القوات الدولية لتحميك من الإسرائيليين ؟ فيكون رد الفعل الطبيعى — بعزة النفس المعروفة — أن يقول جمال عبد الناصر : لست فى حاجة لهذه القوات للدفاع عنى ، فلتنسحب هذه القوات . وبسرعة وبلا أى نقاش وكأن الأمر مؤامرة دولية يصدر لقوات الأمم المتحدة الأمر الفورى بالانسحاب من سيناء وبالذات من شرم الشيخ .. ورد الفعل معروف

مقدما ــ كلعبة الشطرنج ومدروس ــ فمعنى خلو شرم الشيخ من القوات الدولية أن تتقدم القوات المصرية للحلول مكانها . خطوة مدروسة تماما ، وحين يحدث هذا تنفجر ميكروفونات الدعاية الإسرائيلية والغربية فى كل مكان : الحقوا .. عبد الناصر سيخنق إسرائيل . لقد أطبق على زمارة رقبتها من شرم الشيخ .. إسرائيل تختنق . ثلاثة ملايين إسرائيلى مهددون بالإبادة .. إلخ .. أليس فى هذا أروع إعداد مسرحى على مستوى الرأى العام كله للوقوف بجانب دفاع إسرائيل عن نفسها ؟ أى الحرب ، أى ما حدث فعلا وهو قيام إسرائيل جهارا نهارا بحرب غادرة حطمت فيها الجيش المصرى تحت الشعار الذى يبدو عادلا تماما ومنطقيا تماما ومحل عطف العالم كله ألا وهو : الدفاع عن شعب نقبض نحن على زمارة رقبته . كل هذه القرارات كانت مصرية فعلا ، ولكن لأنها ردود أفعال لقرارات من صنعهم هم ومن صميم إرادتهم كانت فى الحقيقة قرارات عدوة ونحن لا ندرى .. قرارات ليست مصرية ولا عربية ، فى الحقيقة تكاد تكون قرارات إسرائيلية مضمونا ووظيفة وعلة . وليس من أجل المقارنة ــ وإنما نحن لازلنا فى منطقة القرار .. كان أحد الجوانب العظمى فى حرب ٦ أكتوبر أنها وإن كانت فى عمومها رد فعل للاحتلال الإسرائيلى لسيناء وإنهاء الحالة اللاسلم واللاحرب إلا أن القرار هنا كان فعلا قرارا ولم يكن رد فعل .. ولهذا أربك ليس فقط إسرائيل ، أربك إسرائيل ومن هم أكبر منها : أمريكا وروسيا وأوربا وكل العالم بحيث أصبحت قراراتهم هم مجرد ردود فعل .

والحكمة فى هذا أن الذى ينتصر هو الذى يصنع القرار المنتصر .

لا ينتظر أن يرد له القرار جاهزا . لا ينتظر الآخرين ليقرروا ، يضع هو القرار ، وإذا كنا اليوم فى أزمة فالخروج منها ليس بانفتاح سحرى دائما نتصوره كخزائن سليمان ستفتح لنا ، وليست فقط بمعونة عربية . وليس فقط بالقروض . إنما هذه أدوية مصنوعة خارجية تساعد الجسم على مقاومة المرض . ولكن حتى المضادات الحيوية فى أقصى أدوارها لا تشفى فى حد ذاتها ، لا تشفى إلا جسدايقاوم بنفسه أولا . وبأدواته وأسلحتها التى أنتجتها معامله ونخاعه مهما بلغت من ضآلتها . وأولا وأخيرا بقراره . قرار ذلك الجسد أن يقاوم الأزمة .

وهذه تدخل حالتى وحالتك فى الموضوع ، فهو صحيح لا يمكن إلا أن يكون قرارا جماعيا من صنع أمة ودولة وحكومة ورئيس وشعب ، ولكن حتى هذا كله لا يصلح ما لم يتخذ القرار أولا على المستوى الفرد ، على مستواك وعلى مستواى . وليس فى أمور كبرى كالانفتاح أو مشروع القطارة أو مجتمع الكفاية والعدل الذى نريد صنعه ، وإنما هو يبدأ ، إذا بدأ ، على أول وأسرع وأبسط مستوى فى هذه اللحظة بالذات . لحظة انتهائك من قراءة الجريدة . ماذا سوف تفعل ؟ . ثق أنك مهما تكون قد قررت أن تفعل فالفعل لابد أن يكون له فى النهاية هدف ، والهدف لابد أن يكون مرتبطا بخطة ، خطة يوم جمعتك هذا ، وخطة هذا اليوم لابد أردت أم لم ترد أن تكون مرتبطة بخطة الأسبوع القادم كله والشهر القادم ، ولابد فى النهاية أن تكون مرتبطة أو متشابكة بخطة أخيك أو جارك أو رئيسك أو مرءوسك أو زبونك .. وكل الخطط لابد ــ شئت أم أبيت ــ أن تكون مرتبطة بقرار ، ليس رد فعل فلم تفعل إلى الآن

اقتحام الحياة

أحسست أنى أمت إلى الرجل بصلة ما .. أتكون نداء الدم .. هذا الهادئ المريح تماما المذهب عنك حتى قبل أن يفحصك كل ما يقلقك فى هذا العالم ، مصرى ، وإن بدت مصريته فى إطار أوسع بكثير حتى من خريطة منطقتنا .. إذن هذا هو مجدى يعقوب الذى سمعت عن نبوغه وأنا فى مصر ، وأنا فى أمريكا ، وأنا هنا فى لندن ..

كنت قد شبعت طبا وأطباء واستقر رأيى تماما أن آخذ الأمر ببساطة ، فما دام ليس هناك خطر آجل أو عاجل على قلبى أو صحتى ومادامت شرايين القلب كلها فى حالة حسدنى عليها طبيب الأشعة العظيم ميسون سونز نفسه ، ومادمت كما أنا ، عائش ، حى ، صاحب الحياة والضحكات كعادتى ، فما الداعى إذن لإسلام رقبتى لعملية خطيرة كعملية القلب ، لا مسوغ لها الآن بالمرة .. وربما لن يكون لها ـــ كما أكد لى جميع من قابلت من أطباء عالمين ـــ داع فى المستقبل .. كان موعد عودتى إلى القاهرة قد تحدد وحجزت ولم يبق إلا شىء أخير أفعله ، ذلك أنى كنت وأنا فى أمريكا قد أخذت موعدا مع الدكتور مجدى يعقوب عن طريق سفيرنا الطبى فى لندن صديقنا القديم الدكتور عبد الغفار خلاف ، إن هو إلا رأى آخر أو أخير أضيفه إلى حصيلتى من الآراء والتقارير ، وسلام عليكم سلام ورحمة الله .

سوى ردود أفعال إنما قرار أى فعل تبدأ أنت أو أنا وتحدد به بشكل قاطع ماذا تريد وعلى الدنيا كلها بعد هذا أن تخضع أولا تخضع لما تريد .

وفى المرة القادمة سأحدثك عن مواطن مصرى مثلى ومثلك أخذ قرارا صحيحا لم يكن قرارا عاديا ، ولكنه قرار كأى قرار ، قرر أن يصبح أعظم جراح قلب فى عالمنا المعاصر .

فكيف فعل ، وهل وصل ، وكيف وصل ، وهل المسألة بهذه الاستحالة ، أم أن الاستحالة الحقيقية التى اكتشفتها هى أولا وأساسا : أن تأخذ القرار ؟ ..

* * *

ولكن ـــ تقدرون فتضحك الأقدار ـــ هذا صحيح ..

فحصنى مجدى يعقوب . فخور أنا به .. ذلك المصرى النابغة الذى عرف ما يريد وعمل له ، فأثناء دراسته ـــ وهو فى ثالثة طب قدم لامتحان المرحلة الأولى فى شهادة الزمالة فى كلية الجراحين الملكية ، ونجح فيها ، وتلك ، فى الوسط الطبى والجامعى حادثة لا تقع كل يوم .. لم يقل لى كلمة واحدة أو اشتكى من أحد مع أنى أعرف أنهم أفهموه منذ اليوم الأول لمزاولته الجراحة فى إحدى كلياتنا الكبرى أن لا أمل له فى مستقبل جراحى فى مصر ، ورفضوا تعيينه مدرسا . وجاء إلى لندن كما يجىء عشرات ومئات ـــ والآن أصبحوا آلاف ـــ الأطباء المصريين للدراسة أو العمل . هجرة إرادية أو إرغامية المهم أنه كان دونا عن هذه المئات من الأطباء يصر فى نفسه أمرا .. أن يصبح جراح القلب الأول فى هذا البلد الذى ليس بلده ، بل أن يصبح جراح القلب الأول فى عالم ليس من السهل حتى على النابغة فيه أن يحصل على وظيفة ، أى وظيفة محترمة تدر دخلا طيبا . وبدأ العمل فى لندن ، فى عروقه تجرى جرثومة الكدح الدءوب الأعظم الذى ينحدر إلينا من سلالات بعرقها ونضالها أقامت للعالم القديم والجديد وإلى الآن أكبر وأضخم رمز للحياة والموت معا .. الأهرامات والمعابد والتماثيل التى لاتعبر عن القوة والفن فقط ولكنها وبفصاحة تخرس الألسن و تعبر عن روح شعب إن استهبل أو استعبط أو تمسكن يوما فإنه يملك داخله طاقة لا نهاية لها ورغبة فى إثبات الوجود لا حدود لوصفها .. بهذا الدأب مضت أصابعه غير الرفيعة ـــ كما تعودنا دائما أن نعرف بها الجراح ـــ تعمل ، الأربع والعشرين ساعة ، تعمل

الأسبوع بأكمله ، والعام بأكمله ، بلا كلل . بجهد ، جهد معجز جبار استطاع أن ينتزع من دهاة الطب والعلم فى العالم ـــ الإنجليز ـــ اعترافهم بنبوغه حتى إنهم منحوه الجنسية الإنجليزية .. وأطلقوا عليه مستر ياكوب ، وأصبح مستر ياكوب بإنجازاته فى جراحة القلب بعدد حالاته التى يعرضها فى المؤتمرات بالبناء الهائل المخيف الذى راح يبنيه صخرة فوقها صخرة وإصرار فوق إصرار ، يتحدى ، ويقبل الحالات الميئوس منها ، وبالساعات يجاهد فيها وبجوارها حتى ينقذها . تتحول الحالات التى يجمع فيها على اللا أمل من خلال أصابعه إلى أمل وحياة جديدة يستنقذ بها إنسانا آخر من موت محقق . أصبح بهذا كله مفخرة للإنجليز ، وصرنا نحن ، نحن الذين رفضنا تعيينه مدرس جراحة بسيط نستقدمه كما نستقدم كبار الخبراء العالميين وتستضيفه جامعاتنا ، نفس جامعاتنا التى أنكرته ناشئا ، تستقبله عظيما و كبيرا وخبرة عالمية لا تقدر .

فحصنى وشاهد الفيلم السينمائى ، وقال لى فى النهاية مثلما قال كبار الأطباء الذين سبقوه : ليس هناك حاجة لعملية و كما قالوا لك ، فعلا تستطيع الحياة كما تشاء وربما لا يحدث لك بالمرة أى تعقيدات إلى نهاية العمر .

دون تحصيل حاصل آخر وأخير .

وارتديت ملابسى وغادرت المستشفى الأنيق الذى بناه الإنجليز خصيصا لعلاج الأثرياء . وبالذات الأجانب وبالذات العرب حتى إن لافتاته مكتوبة بالإنجليزية والعربية

ورحت فى ليل لندن المبلل دائما إما بمطر سبق أو ذرات مطر قادم .
اللامع بالنور والضجات الصغيرة المبعثرة ، رحت أتمشى وقد قررت أن أعود لفندق سائرا على القدمين .. أفكر . فى ماذا ؟ . تلك هى المشكلة ..

شيء ما كان يؤكد لى — رغم كل التقارير والآراء التى لا ذرة شك فى صحتها وجديتها أن فى الموضوع ناحية غامضة لا تزال ، ولكنها ، هناك ، رابضة وباستمرار تدق .

* * *

فوجئت — بل ماذا أقول — أأقول إنى أبدا لم أفاجأ ، بمكالمة تليفونية فى اليوم التالى من الدكتور مجدى يعقوب. لم تكن هناك تقارير أو معلومات مؤجلة وأقول إنه طلبنى ليقول لى رأيه فيها ، ما الموضوع إذن ؟ إنه يريد أن يرانى فى الغد — الأحد — العطلة المقدسة عند الغرب قاطبة .

— اسمع .. سأكون صريحا معك ... لو كنت نوعا آخر من البشر لاكتفيت مما قلته لك بالأمس ، ولكنى أكاد أعرفك وأجزم أنك لن تقبل الأمر أبدا ، لن تقبل أن يظل داخلك خلل ما ، مهما بلغت تفاهته أو أهميته ، سيظل القلق من هذا الشىء ألما يتأجج داخلك حتى يقضى هو ، وليس المرض ، عليك .

أية حكمة أعطاها الله لهذا الإنسان حتى ينطق هكذا ما كان داخلى ينوء به وأحسه بعنف وعمق ولكن معناه وألفاظه لم تكن تطفو أبدا إلى سطح عقلى لتتخذ شيئا مبلورا قابلا للفهم هكذا .

وهنا ، لابد ، وفوق آراء مجدى يعقوب فى شخصى وشخصيتى أن

أقول كلمة عن نفسى ، وأنا أكره تماما أن أتحدث عن نفسى ولكن لأن أحدا لم يفهم ما حدث إذا لم أتكلم فلابد أن أقول إنى شخصية ليس من السهل فهمها .. ولكن هناك جانب منها أعلمه علم اليقين ذلك أنى أبدا أبدا لا أقبل المساومة أو النص نص ، وبالذات حين يتعلق الأمر بصحتى أو بإنتاجى ، إما الكل وإما لا شىء .

إما أن أكون أو لا أكون بالمرة .. حتى أن أمراضى كانت كلها سببها رغبتى الشديدة أن أظل سويا ، وقد وضع مجدى يعقوب أصبعه بمهارة فائقة على (قلب) مشكلتى تماما ، وفهمنى تماما.ويارب ، ألهذا السبب طفت العالم لأنى فى نهاية المرحلة وعودتى مقررة فى الغد ويكون على أن أتخذ من جديد قرار العملية ؟! ..

لكم كان يوم أحد قاس حقا . أنا الذى أعرف فى الطب وأصبحت ضليعا فى القلب بحكم ما حدث ، قرأت كل ما كتب ، حتى ما لم ينشر قرأته . أعرف تفاصيل التفاصيل ، أدرك موطن الخطر فى كل خطوة من خطوات العملية ، يتولى ذلك الحالم الفنان الغزير الخيال تضخيم الحقائق حتى ليبدو الفأر مخيفا فى حجم الفيل ، أنا .. ألهذا ، أنا المحب إلى حد الوله للحياة ، المقدر أضعافا مضاعفة لقيمتها . القادر فى نفس الوقت على أن يقامر بها كلها من أجل ألا يخسر جزءا ولو يسيرا منها ، بل ليس منها ، ربما من أجل ألا يخسر أحد آخر بعض حياته ، أو على أمل أن أضيف لها وللدنيا شيئا ولو طفيفا يجعلها أكثر عدلا وأكثر احتمالا .. أنا الوحيد فى كل هذه المعمعة فكل المعارك ممكن أن تأخذ رأى الآخرين فيها وتغير رأيك من أجل رأى آخر أحسن .. ولكنى هنا وحيد تماما .. إذا عشت

فأنا الذى سأعيش ، وإذا مت فأنا وحدى ولا شيء آخر غيرى سيموت . صحيح قد يحدث حزن كبر أو صغر ، أسف ، خسارة ألف خسارة ، عزاء ، أشياء أخرى كثيرة قد تحدث ولكنى أنا أكون قد انتهيت .. أنا ولا أحد غيرى .

مادامت المعركة معركة راكب واحد وسائق واحد وقرار واحد كله أنا فلأكن وحدى تماما إذن ، ولأرسل زوجتى — وقد اطمأنت تماما فى رأيها على حالتى — ولأتخلف أنا بحجة قضاء يومين لمعرفة آخر التطورات المسرحية والأدبية فى لندن ، وأذهب معها إلى المطار ، وأقبلها قبلة الوداع إلى القاهرة ، ولكنها أبدا لم تلحظ أنى ، فى جزء من الثانية كانت قبلة من أجل الوداع إلى الأبد .

* * *

مصيبتنا فى مصر أننا نحب الحياة ، ونحب لها أن تطول ، ونحن أول من ابتكر للعالم وعداه بفكرة الخلود والحياة الأخرى.تشبثنا بها بنينا المقابر وغورنا بها فى قلب الجبل وزودناها حتى بالطعام والشراب حتى نكون جاهزين للحياة الأخرى المؤكدة التى لابد سنعود — وكما كنا تماما — إليها . كان المصريون القدماء مؤمنين إلى حد اليقين المطلق أننا عائدون وأن الموت لا يمكن أن يكون نهايتنا ولو كانوا قد وضعوا احتمالا ولو واحدا فى المليون أن الموت هو النهاية تماما،ربما غيروا وجه تاريخهم وبالتالى وجه تاريخ العالم . نحن هكذا ومن قديم الأزل تسبح فى دمائنا عقيدة أن الموت — لأنه مروع ، ومخيف وغير محتمل فكرة تصديقه بالمرة — لا يجب أبدا أن يكون النهاية . ربما الجنس البشرى كله هكذا ولكنها فينا

مضاعفة آلاف المرات ..

ولكن هذه العقيدة نفسها بقدر ما أراحتنا سيكولوجيا بقدر — فى رأيى ما قتلتنا عمليا ، طول العمر والرغبة فى تطويله إلى آخر المدى ، التمسك بالحياة ، أى حياة ولو حياة العبيد حتى خير ألف مرة من فكرة النهاية النهائية بالموت . موضوع أترك للأنثروبولوجيين خوضة وتفنيده ، فلم أكن فى ذلك اليوم (أتفرج) على مصر وشعب مصر وعادات المصريين وتركيباتهم النفسية . كنت مصريا يواجه فكرة أن يموت أو لا يموت . مرعوبا رعب الأول من الموت . خائفا من فقدان الحياة خوفا لا مثيل له لأنه خوف أوحد ليس مثله أى خوف آخر . عائدا من المطار فى الأتوبيس ذى الدورين الأحمر ، جالسا فى الدور الأعلى أدخن وأحس براحة عميقة تجعلنى شديد الضعف من نفسى . ذلك أنى كنت قد اتخذت القرار . أن أعمل العملية وأخلص . ولكن المهم ليس العملية . المهم فى كلمة (أخلص) هذه . فهو لم يكن قرارا بإجرار عملية جراحية هدفها الشفاء النهائى إلى آخره ، كان القرار فى حقيقته وكما كنت أراه ، قرارا بالموت .

تصوروا .. رجل بكامل قواه العقلية وبمطلق إرادته يأخذ قرار أن يموت هو ليس قرار مرووش ضاقت الحياة فى عينيه فقرر أن ينتحر . لا ، لم يكن قرار انتحار ، ولكن كان قرارأنه لكى أن أعيش كما أريد ، وإذا كان على أن أفعل لأحصل على هذا أن أمر فى نفق الموت ، فسأمر . قد أخرج من النفق سليما ولكن ليس هذا هو المهم ، المهم أنك قررت أن تدخل النفق ، قرار أساسه الأول أنك لن تخرج [illegible] ، مثل قرارك وقد

حاصرك الأعداء فوق سطح العمارة أن تقفز من العمارة عبر الشارع لعمارة أخرى ، وهو أمر يبدو للمشاهد من الخارج أنه شبه مستحيل ، وأن تلك القفزة شيء لا يمكن أن يقدم عليه عاقل .. فما بالك ولم يكن هناك أى أعداء يحاصروننى ولم أكن مضطرا أبدا للقفزة ؟ لو عرف الواقف فى الشارع هذا لخبط كفا بكف وأقسم أنه إنما يشاهد شخصا خارجا لتوه من سراية المجانين .

ولكن . هذا هو بالضبط ، ما يميتنا أحياء أيها الأعزاء المصريون ، هذا العقل الشديد الذى نأخذ به الأشياء وننظر به إلى الأشياء هو الذى يخيفنا من الأشياء فيجعلنا لا نفعل شيئا بالمرة ، لأن كل فعل ، أى فعل ، يحمل فى طياته بالضرورة نسبة من المغامرة ، والتعقل الشديد ضد أى مغامرة ، ولهذا ولكوننا متعقلين أشداء لا نقدم على أى فعل ـــ أو بالأصح هذه هى القاعدة ـــ لا نقدم على الفعل إلا مضطرين ومكروبين ومهمومين وبانسحاق شديد ، ولا بد أن يكون هربا من احتمال آخر أكثر مغامرة وأكثر بالتالى خطورة .

إن الخوف الشديد من الموت يستتبعه بالضرورة خوف شديد من الحياة ، وحرص شديد على ألا نموت ، هذا الحرص الشديد يستتبعه بالضرورة تجنب أى نسبة من المغامرة ، أو بمعنى أكثر وضوحا أى نسبة من الفعل ، ولهذا نحن نفضل الفرجة على من (يفعلون) وكأننا نستعيض بهذه الفرجة عن الفعل نفسه . والنتيجة أننا نحرم أنفسنا من أعظم اللذائذ جميعا لذة الفعل لأنها لذة الحياة الحقيقية ونوهم أنفسنا أن لذة الفرجة أسلم وأضمن . نحن بهذا نفعل تماما كما لو كانت الحياة حكومة

وكما لو كنا نحن الأحياء موظفين لديها ونخاف أن نفصل منها ، والنتيجة أن نركع تماما لها ونكف تماما كأى موظفين مثاليين عن أى حركة مخافة أن نخرج على قوانين التوظف ونرقد . نحن موظفون لدى الحياة وبالتالى لدى الأحياء فى الدنيا قاطبة ولكننا ـــ وصدقونى ـــ لسنا أحياء بالمرة ، وليست هذه حياة . فالحى لم يخلق ليتفرج على الحياة .. لقد خلقه الله وسواه ليحياها ، أتعرفون ، معنى أن يحياها ؟ أبسط المعنى أن لا يخاف منها . وهذا معناه ـــ واسمعوا من فضلكم ـــ ألا نخاف الموت ، لأننا من فرط خوفنا من الموت نحيا فى موت أو نموت حياة .. لا أعنى بهذا أن نستهتر بأعمارنا ونروح نبعزقها هنا وهناك ولكن ما أعنيه بالضبط هو أننا ـــ لكى نكون بنى آدميين بحق وحقيق ـــ يجب أن نحيا ، وأن نحيا معناه أن نفعل ، وأن نفعل معناه أن نريد ، وأن نريد معناه أن نختار ، وأن نختار معناه أن نقرر ، لا بد وحتما سيكون فى القرار ـــ أى قرار ـــ قدر من المخاطرة ، ولكن تجنب القرارات خوفا من المخاطرة سيؤدى بنا حتما إلى تجنب الحياة كلها . تجنب روح الحياة وقلبها ونبضها والإحساس الحقيقى بها . نحن جميعا ، وبالذات الآن نعانى من اكتئاب موجع يأخذه كل منا مأخذا شخصيا محضا ويعتقد أن سببه الفلوس والأولاد والمواصلات .. الخ .. ولكن اكتئابنا الجماعى سببه الحقيقى أننا توقفنا أن نحيا لأننا توقفنا أن نفعل لأننا توقفنا أن نقرر ، والغريب أن هذا الاكتئاب والتوقف يؤدى بنا فى النهاية إلى عمليات (انتحارية) أو انبثاقات بركانية ، غضبة عصبية لا علاقة لها بالغضب الحى الجميل أو الرضاء الحقيقى أو الإحساس بالاكتفاء نتيجة تحقيق الذات عن طريق تحقيق الإرادة .. أ[illegible] ما تريد وعلى

مهل شديد قرر ، ولكن لا بد فى النهاية أن تقرر ، وحتما لا بد أن يستحيل قرارك إلى فعل وحينذاك فقط تذوق لذة الحياة .

حتى لو كان ذلك القرار قرارا بالموت أو يحمل فى طياته خطر الموت الأكبر ، فالموت هنا سيعنى دون أن تدرى الحياة بأرحب وأعمق وأحب صورها ، لأنه سيكون قرارا عظيما ، أخذه إنسان حى عظيم وتحمل مخاطرته العظيمة ، وما أحلى طعم الحياة بعده .

* * *

جمعت ملابس قليلة جدا فى حقيبتى بينما تركت معظم أشيائى باسم زوجتى — فى حالة حدوث شىء — بأمانات البالاس كورت ، وودعت (رضا) ذلك الشاب المصرى النبيل الذى يعمل مديرا للفندق ، وقلت لشوارع لندن وتاكسياتها التى تشبه عربات موتى سوداء مقطومقتوقلت للدنيا :

— وأيه يعنى ؟ باى باى . موتا فلنمت .. الموت قادم قادم .. أردت أم لم أرد . فإذا كنت قد أخذته أنا وبإرادتى وكنفق رهيب محتم أن أنفذ منه إلى الحياة الحقة إن نفذت . فبإرادتى أنا آخذ القرار فإذا مت فعلى الأقل سيكون لى شرف أنى أنا الذى واجهت الموت ولم أظل خائفا منه حتى يطعننى غيلة . الحياة للشجاع وللشجاعة والجبن هو الموت وإن تنكر فى كافة الأشكال . لقد أخذت الدنيا بيدك واغتصبت وجودك من براثن المستحيلات والدنيا هكذا ، كالحب ، كالحرب ، حتى كالنكتة لا تؤخذ إلا اقتحاما .

ولأول مرة أحس فى حياتى أنى أصبحت حرا ، وأنى أستحق الحرية

فعلا ، وأننى أصبحت نبيلا وأنى أستحق هذا النبل ، وأنى — لأول مرة فى حياتى — أحس أنى إنسان فعلا وأنى فخور بأنى إنسان .. فخور بأنى أمت إلى الخالق الأعلى . فخور أنى أبو أولادى وزوج زوجتى . فخور أنى مصرى وشرقاوى وابن بلدى . فخور أنى أنا ، ذلك الشعور الذى لم يراودنى فى حياتى مطلقا .

وإلى مستشفى هارلى كلينيك يا مستر .

— ستذهب وتعود يا سيدى ..

— لا يا سيدى — ذهاب فقط ..

* * *

والمفاجأة المذهلة أن أصابع مجدى يعقوب الذهبية كانت ساحرة كما يقول الإنجليز فعلا وأنى بعد يومين بالضبط كنت أصعد سلالم المستشفى وأهبط بأوامر من ممرضتى الحسناء أتحسس الشاش المعقم وأسأل زوجتى : أحقيقة أجروا العملية ؟ .. وتؤكد ودموع الفرح تلمع فى عينيها وتروى لى ساعات انتظارها وفرحتها بوجه مجدى يعقوب وهو خارج من غرفة العمليات وبنعومة بالغة وبلا فرحة أو انفعال شديد يقول لها : الحمد لله . كله تمام ..

* * *

الله .. أعبدك ..

مجدى يعقوب .. أشكرك ..

يوسف إدريس .. أحبك ..

* * *

باريس ٧٦

السادسة والنصف وباريس وبوليفار سان ميشيل . ماذا أيقظتنى فى الخامسة بعد نوم ساعتين فقط .. أهى الحمى الباريسية التى تجتاحنى كلما هبطت هذه المدينة .. كان حظى معها سيئا دائما .. أول مرة كانت ثورة الجزائر وعلاقتنا المتوترة بفرنسا . ما إن رأوا فى المطار ـ مطار لا بورجيه ـ جواز سفرى المصرى حتى ووجهت بالوجه الصارم لباريس ـ بوليسها الفرنسى ـ وبأتوبيس يحملنى قسرا من المطار الجنوبى إلى المطار الشمالى لأوضع فى الطائرة المتجهة لبيروت . المرة الثانية لم يصرحوا لى إلا بأربع وعشرين ساعة قضيتها كلها بلا لحظة نوم . هذه المرة أحببت أن أراها بلا مكياج .. لترى أى مدينة على حقيقتها العارية استيقظ فى الخامسة وطف بشوارعها .. لم أكن أتصور أن شوارع باريس تحمل كل هذه الكمية من الزبالة والقذارة وبقايا الليل . هذه ثالث عاصمة عالمية أزورها فى رحلتى تلك وكلها بلا استثناء قد بدأت القذارة تزحف إلى شوارعها تكادفى بعض أجزائها أن تقترب اقترابا مخيفا من قذارة شوارع القاهرة . كأن عالم مطلع القرن النظيف المثالى قد اختفى .. الصراع الرهيب الدائر بين الإنسان والنظام فى كل مكان جعل اليأس يدب فى القلوب على هيئة إهمال سواء فى النظافة الشخصية أو النظافة العامة . الإنسان المهموم قذارة . عمال النظافة

يكنسون باريس . عمال معظمهم من عرب الشمال الإفريقى .. كثيرون هم هنا كثيرون . ينظفون باريس ويحاولون تجميلها ومع هذا فهم مكروهون من الفرنسيين . كلمة عربى هنا لها وقع آخر غير وقعها فى لندن أو نيويورك . فالعرب هنا هم البروليتاريا اليدوية التى يعهد إليها بأشق الأعمال . حين توفى جمال عبد الناصر صنع له العمال العرب جنازة فى نفس الوقت الذى خرجت فيه جنازته من القاهرة روعت الحكومة الفرنسية فى ذلك إذ شلت الحياة تماما فى باريس حتى إنها أنشأت بعد هذا قسما خاصا فى وزارة الداخلية للعمال العرب .

مشيت فى بوليفار سان ميشيل ، قلب الحى اللاتينى ، حى الجامعات والطلبة والبوهيميين والكوشار ومقصد السياح . ربما كراهية الفرنسيين للأغراب سببها كثرة السياح . (واسألنا نحن !) وأكثر الأحياء ازدحاما بالسياح هو الحى اللاتينى .. فرجة باريس. ربما لهذا فضلت أن أرى باريس بلا سياح ، فى الصباح الباكر .. أرى الباريسيين يخرجون إلى العمل . لا ألمح ابتسامة على وجه أحد .. جادون وجادات ، مسرعون ومسرعات ، والساعة تقترب من السابعة .. غريب هذا المدينة التى تصدر إلى العالم كله أدوات المكياج والتجميل نادرا ما تضع نساؤها المساحيق . بلا مساحيق أرى باريس تستيقظ لتوها من النوم ، لم تغسل وجهها بعد ، ولكن الوجوه نظيفة ، والقوامات رشيقة . حتى الكبار ومتوسطو العمر ليس فيهم سمين أو مجعلص أو تخينة أو تخين .

فجأة وجدتنى وجها لوجه أمام باريس أخرى ، مختلفة تماما عن تلك التى لخصها رفاعة رافع الطهطاوى أو انفعل بفنها وبفكرها توفيق الحكيم

وبرقصها على البارود أحمد الصاوى محمد . باريس بلا هالة من جمال ونور . باريس التى تكدح وتعيش . باريس التى تخلصت من كل علامات البورجوازية فى المأكل والمشرب والملبس . أكاد لا أعرف الفقير من الغنى ، والعاملة من صاحبة المتجر . كلهن تقريبا بالبنطلونات البلوجنز ، وكأنما كلما كان البنطلون قديما كان أشيك — تخلصوا من عقدة الأثواب والوجاهة مثلما فعل الصينيون فى الشرق البعيد ، ليس بناء على توجيهات حزب وإنما فيما أعتقد بناء على اندثار التقاليد البورجوازية القديمة من تنابز بالأزياء وتصنع فى تسريحات الشعر ومكياج الوجوه . كأنما أصبح الهدف أن الأجمل هو الأكثر أصالة . والأصالة أن تكون شكلك أنت لا شكلك المصنوع . وأن ترتدى ما يريحك أو ما يدفئك أو ما يبرد جسدك لا ماتتيه به على الآخرين . والطعام أصبح هو المغذى فقط وليس الشهى ، لم تعد الموائد العامرة هى المقياس ، ولا اللذة فى الطعام هى الهدف . الهدف لا بد متعة أرق من الزى وأرق من حشو المعدة . الهدف لا بد إمتاع العقل والقلب .

كانت الشوارع لا تزال شبه خلوية ولهذا كانت تبدو لى مزدحمة بالإعلانات والملصقات . لم أر عاصمة فى العالم فيها كل هذا الكم من الملصقات ، والغريب أنها كلها إما عن مسرحيات أو معارض فنية أو حفلات موسيقية . حتى رمسيسنا الكبير تحتل الإعلانات عنه — فى المقاهى والمطاعم — مكانا بارزا . المتعة هنا هى الاستمتاع بالجمال الأرق . وليس أجمل ولا أرق من الفن فى كافة أشكاله وصوره . هذه هى مدينة فنانة أو مدينة فنانين . خيل لى وأنا موزع البصر على الأفيشات ،

أن نصف سكان هذه المدينة على الأقل فنانون وفنانات . هذه مدينة التعبير عن النفس . المتعة الحقة أن يعبر الإنسان عن غايته . حبا أو فنا أو شذوذا إذا أراد . لا بد أن هذا هو السبب فى الصوت العالى الذى يتكلم به الباريسيون والباريسيات . هذه مدينة لا همس فيها .. رأيك تقوله واضحا وصريحا ودون خجل وبصوت عال . فرأيك هو أنت . وما دمت لا تخجل من نفسك لأنك أنت .. وسعيد بأنك أنت فلتفخر بذاتك وبرأيك وبذوقك وبشخصيتك وبتفردك . الناس هنا لا يتقولون على بعضهم البعض لأنهم يقولون لبعضهم البعض وفى مواجهة بعضهم البعض . أتكون هى الثورة الفرنسية ؟ قال فيها الشعب الفرنسى ومنذ مائتى عام رأيه الجماعى فى الملكية والاستبداد والتفرقة . وكانت النتيجة أنه بعد أن تحرر جماعيا ، بدأ يتحرر فرديا ، ووصل التحرر الفردى إلى حد الاعتداد الكامل بالذات والرأى ووجهة النظر ، حتى عاملة التليفون فى الفندق ، لا تقول لك : نعم يا سيدى . إنها تقول ، وبلا همس : إنى أسمع . عجيب هذا بينما الإنجليزية مليئة بكلمة (يا سيدى) فأنت لا تسمع فى الفرنسية إلا كلمة يا سيد . وكل الناس سيد . مضيبة . إنى أسمع . لم أستطع هضمها فى أول الأمر ، ولكنى حين لم أجد علامة واحدة من علامات النفاق فى هذا المجتمع بدأت أدرك . يا لها من كلمة نقولها منافقين : سيدى .. مع أننا جميعا ندرك ونعلم أنه لا أحد سيد أحد . ولأن الفرنسيين كانوا السابقين فقد حذفوها من اللغة . ولا أعرف فى الفرنسية ما يقابل فى الإنجليزية كلمات : سيدى .. وماى لورد ، وماى ليدى .. إلخ . كل هذه الكلمات الكبيرة المنافقة

التى تقال تأدبا . ولماذا لا يكون التأدب هو المصارحة والإحساس بالمساواة الكاملة . هنا حقيقة تلمح شعارات الثورة الفرنسية وقد أصبحت واقعا ملموسا ومقدسا . هنا تفهم لماذا أصبح الشارع الفرنسى الآن يكاد يكون كله يسارا محضا .. فكلمة اليسار نفسها اخترعتها فرنسا ومنها عمت العالم . وفى بوليفار سان ميشيل نفسه والساعة قد بدأت تشرف على الثامنة أرى المعركة بعينى قائمة على قدم وساق بين قلاع اليمين الأخيرة وزحف اليسار . ولكنها فى رأيى تكاد تكون معركة ممتعة . فها هى صورة ماركس بلحيته الشهيرة ولكنه بوجه ضاحك كالجد السعيد بل إن يده مرسومة فى الصورة على شكل إشارة (الهيتش هايك) تدعو الشباب إلى مهرجان سياسى موسيقى راقص يقيمه الحزب الشيوعى . وأحسن مجلة أطفال تصدر فى فرنسا تصدر عن الحزب الشيوعى . وهى مجلة ممتعة حقا فليس فيها أى دعاية رخيصة ومادتها رائعة إلى الحد الذى يرغم أطفال (اليمين) أهلهم على شرائها لهم . معركة راقية متحضرة حقا حتى إن اليمين لا يقول عن نفسه أبدا إنه يمين ، ولا يقاوم الشيوعية بتلفيقة تهم الإلحاد والعمالة للاتحاد السوفييتى و كل هذه الوسائل الفجة التى تستعمل فى عالمنا الغريب الثالث . إنما هى معركة أساسها الحرية . فاليمين يحاول أن يجتذب الناس عن طريق إفهامهم أنه الحريص أكثر على الحرية ، بينما اليسار وصل فى حرصه على الحرية إلى حد تنازل الحزب الشيوعى الفرنسى عن واحد من أهم أركان الحركة الشيوعية وهى فكرة ديكتاتورية البروليتاريا . إن كلمة الدكتاتورية هذه تعادل الموت هنا أو الطاعون ، فالحرية للباريسى والباريسية أهم من أى مبدأ

أو دين ، بل هى تكاد تصبح هنا دينا ، دين العصر ، إنهم هنا يحاولون حتى الانعتاق من عبودية العمل . يومان إجازة فى الأسبوع وعلى الريف فورا فالمدينة حتى لو كانت باريس عبودية أيضا ، والريف هو الحرية . هو الهواء والخضرة والانطلاق .

والحرية هنا ليست معادلا للفوضى ، فأنت حر بقدر ما الآخرون أحرار .. والأطفال جمال . وأجمل ما فيهم أن كثيرين يذهبون منهم إلى المدرسة فى سن الخامسة أو السادسة بمفردهم ، و لم أر عساكر أو بالأصح عسكريات المرور فى باريس إلا بين السابعة والثامنة والنصف ، فقط عند التقاطعات لعبور التلاميذ الصغار . بعدها تركب العسكرية موتوسيكلها الصغير الأنيق وتذهب لتعود فى المساء حين يعود الأطفال . كدت أروع وأنا أشاهدهم صغارا جدا ، سائرين بمفردهم ، ولكنهم مسئولون . من فرط ما أرضعوا مسئولية المحافظة على أنفسهم .. لم أشاهد أحدهم يجن ويندفع إلى الشارع ، فقط عند الإشارة ، وفقط حين تقف العربات بيد العسكرية المرفوعة .

* * *

فى الضحى تمتلئ الشوارع بربات البيوت والعواجيز .. وأستغرب لهذا العدد من العواجيز الأصحاء تماما فى هذه المدينة ، لكأنهم وحدهم ملايين . كل ربة بيت وكل عجوز ، يتسوق خبزه وطعامه وفى يد كل منهم رغيف فرنسى فى طول نبوت الغفير ، أقف عند الجزار .. أقرأ أسعار اللحوم .. يذهلنى أن سعر الكيلو مائة وخمسون قرشا . أرخص من القاهرة فى حين أن متوسط الأجور يكاد يعادل عشرة أمثال الأجور

فى القاهرة . ولا أحد يشترى كيلو إن اللحم هنا يباع بالحتة والقطعة ، ويكفى لكل شخص فى اليوم الواحد قطعة .. بخلا ؟! سمه ما شئت ، لماذا لا تسميه تدبيرا ؟. لماذا لا تقول إنه شبع ؟ فليس مثل الجوعان حبا فى الطعام ونهما لالتهامه . غريبة هي هذه المدينة .. مدينة الفرد الأعظم .. أنا قادم من نيويورك حيث العمارات هائلة الضخامة ، والمؤسسات الحوتية الرهيبة ، والسوبر ماركت فى حجم الحى الكامل ، هذه مدينة البوتيكات والدكاكين الصغيرة .. الصغيرة .. جزار بقال دكانة ملابس مطعم قهوة وهكذا .. عشرات ومئات وآلاف مثلما يحفل بهم شارع فيكتور هوجو يحفل بهم شارع بلزاك . جميل جدا هذا . لا يوجد اسم ملك أو حاكم على شارع .. حتى بونابرت بجلالة قدره مطلق اسمه على شارع غير مهم أبدا بينما اسم فولتير يأخذ شارع نهر السين كله . مدينة ملوكها الشعراء والكتاب والفنانون . أخيب الملوك سطوة ولكن أعظمهم خلودا .

هل يوجد عندنا شارع باسم لطفى المنفلوطى أو ميخائيل رومان ؟

* * *

باريس الواحدة صباحا .. لم أنم .. قضيت اليوم كله سائرا على أقدامى . وها هو الليل يوغل فى تقدمه ولا أشعر بذرة تعب واحدة . الأصدقاء المصريون معى نضرب فى ليل باريس . بقدر ما أحببت باريس النهار ها أنذا أقف فى شبه انزعاج أمام باريس الليل .. الازدحام رهيب وكأنه مولد الحسين فى قلب باريس .. الصعاليك أشد صعلكة من مجاذيب الحسين .. غانيات باريس علنا هكذا وبالبنطلون القصير

الساخن وكثيرات ومنتشرات ولهن مناطق نفوذ ويكدن يكن بلا زبائن .. يخيل لى أن وزارة السياحة الفرنسية تدفع لهن أجرا فمشهدهن سياحى أكثر منه مشهد (عمل) . المضحك أنهن واضحات جدا وصريحات جدا وبلا نفاق . مهنة يقمن بها فى وضح الليل . بل أعجب إضراب هو ما قمن به منذ شهور واحتللن الكنائس لتخلصهن الحكومة من سطوة الفتوات وظهرت بعضهن على شاشة التليفزيون يشرحن قضيتهن العادلة . إنه فعلا مجتمع يكره التخفى والنفاق . مجتمع الشجاعة حتى فى بيع الجسد . إن أى عاصمة فى العالم فيها أكثر من هذا العدد بكثير من نساء المهنة ولكن الفرق أن باريس لا تتخفى ولا تتنكر ، الفرق أن باريس تلميذاتها لا يوردن للشقق ولكنهن يحببن علنا ويجلسن على المقاهى ويدخن علنا .. الفرق أن نساء المهنة فى باريس معروفات وعددهن معروف .. أما الأدهى فهو أن يكون كل شيء محظورا فى العلن ويباح فى السر وبجبن شديد .

الفرق أن لا أحد هنا يقيم من نفسه وصيا على الآخرين ويخاف منه الآخرون . والنتيجة ظلام النفاق وما أبشع ما يدور فى ظلام النفاق .

* * *

باريس الخامسة صباحا .. بعد لم أنم .. فمنذ الثانية وعقلى يفكر فى القاهرة .

* * *

أمريكا ٧٦

قالت لى السيدة الطيبة قنصل الولايات المتحدة بالسفارة الأمريكية :

ــ انى آسفة جدا ، ولكننا لن نستطيع أن نعطيك فيزا الدخول إلى بلادنا إلا بعد استئذان واشنطن .

وسألتها بحيرة :

ــ هل تستأذنون واشنطن فى كل فيزا تعطونها ؟

فقالت :

ــ لا .. ولكنك لسوء الحظ فى القائمة السوداء ، ولا بد أن نستأذن واشنطن لاستثنائك هذه المرة فقط من القائمة . بل إنى آسفة أيضا إذ أقول لك إنك فى كل مرة ستطلب فيها فيزا للولايات المتحدة سيكون علينا أن نستأذن واشنطن .

قلت :

ــ سيدتى .. ولكننى كنت فى أمريكا منذ أربعة أشهر وأعطيتمونى فيزا فى الحال ودون استئذان واشنطن فماذا حدث ؟

نظرت لى من فوق حافة منظارها الطبى وقالت :

ــ لقد منحت الفيزا خطأ فى المرة السابقة . أخطأ الموظف المسئول فقد كان المفروض أن لا يمنحك الفيزا إلا بعد استئذان واشنطن .

قلت : ولكننى غير ذاهب من تلقاء نفسى .. أنا مدعو لمؤتمر عن

الأدب العربى تقيمه جامعة برنستون ونادى القلم الدولى فى نيويورك والدعوة مرفقة بطلب الفيزا ..

قالت : هذا صحيح ، ولكن الإجراءات هى الإجراءات ، وأنت تعرف طبعا ما هى الإجراءات ..

عن لى أن أحاورها فقلت : هل ممكن أن أعرف لماذا أنا فى قائمتكم السوداء ؟

نظرت لى نظرة شبه ماكرة شبه متخابثة هذه المرة وفتحت ملفا ضخما أمامها وقالت ..

قالت كلاما كثيرا جدا : فى سنة كذا حضرت مؤتمر كذا ، وكتبت كذا وقلت كذا وكذا .. سجل دقيق حافل وكأن لم يكن هناك عمل للقسم القنصلى الأمريكى إلا رصد تحركاتى وسكناتى وكتاباتى الشخصية . ثم راحت تنصحنى أن أحاول رفع اسمى من القائمة السوداء . وكيف يرفع يا سيدتى العزيزة ؟ . بأن تثبت حسن نواياك وموقفك لمدة خمس سنوات متصلة ، ليس فقط تجاه الولايات المتحدة ولكن تجاه أى حكومة أو نظام حكم فى العالم (!!) وكدت أضحك وأنا أسمع السيدة الطيبة وهى تذكر لى شروط (الولد الطيب) فى عرف الإجراءات القنصلية الأمريكية . كدت أضحك لأن هذه هى مأساة الولايات المتحدة ، شديدة الديمقراطية بالنسبة لرعاياها شديدة التوجس والديكتاتورية بالنسبة للآخرين . إجراءات تعتبر أن كل ثورى فى العالم هو بالضرورة عدو للأمن الأمريكى ، كل متحرر ، كل مناهض ، كل من يجرؤ أن يكتب أو يقول أو يفعل هو بالضرورة عدو للولايات

المتحدة . وهل من المستغرب بعد هذا أن يعتبر كل هؤلاء الولايات المتحدة ضدهم . إن المرحوم دالاس قد مات ولكن الدلاسية لا تزال موجودة . أو على الأقل هكذا بدت لى وأنا أحاور السيدة القنصلية وأختم حديثى معها بقولى : إذا كانت هذه هى إجراءات الدخول للجنة نفسها فأنا أفضل الجحيم الذى أحتفظ فيه بحقى أن أقول ما أريد قوله وأحضر ما أريد حضوره وأهاجم أو أشيد بما أريد مهاجمته أو الإشادة به .

وصرفت نظرا عن الندوة وعن السفر .

ولكن السفارة دقت لى تليفونا فى اليوم التالى بأن الفيزا جاهزة .

***

وهكذا سافرت مرة أخرى إلى نيويورك ، وحسن أنى قرصت هذه المرة قبل أن أذهب ، فقد كان انطباعى عن زيارتى الأولى ، تلك التى زرت فيها المعاهد والمستشفيات والجامعات ، انطباعا مبالغا فى تفاؤله . ذلك أنى وجدت أمامى أمريكا أخرى غير التى رأيتها عام ٦٦ حين زرتها بدعوة من جامعة شيكاغو لأول مرة .

فى ذلك الوقت أقولها بصراحة ، لم أر أمريكا الواقع ، ولكنى رأيت ما كنت أتخيله أنا عن أمريكا . كانت أزمتنا كوطن فى ذلك الوقت بلغت القمة مع الولايات المتحدة . لقد بدأت الثورة المصرية بعين من الرضا من أمريكا .. الرضا عن خروج الإنجليز من مصر وخروج الفرنسيين من الشمال العربى الأفريقى ، خروج الاستعمار القديم . وكان طبيعيا أن تبدأ الأمور تتأزم حين بدأت معظم دول العالم الثالث التى استقلت وعلى رأسها مصر ترفض أن تحل الولايات المتحدة محل الاستعمار القديم لملء

ما يسمى فى ذلك الوقت بالفراغ ومشروع أيزنهاور لملء الفراغ ، وكان الصدام محتما ، ولكنه فى الحقيقة كان صداما فوقيا ، بين مصر الثورة الدولة والدولة الأمريكية . ولكنه انعكس على الشعبين وبمثلما كان الأمريكان يرون فى كل مصرى عبد الناصر آخر عدوا لهم فقد كنا نحن أيضا نرى فى كل أمريكى مندوبا للمخابرات المركزية الأمريكية حتى يثبت العكس وأحيانا دون أن يثبت العكس . وهكذا وفى حالة توجس تام ذهبت لأمريكا عام ٦٦ ، رأيت قارة غنية تماما جديدة تماما كل شىء فيها ميسر وبسيط ولكننى كنت أحس فى كل فرد أراه الدولة التى تعادينا والنظام الاقتصادى الرهيب الذى يدعم الدولة ويهدد بالسيطرة على العالم كله . ولم أكن مجحفا فى وجهة نظرى تلك . فالتاريخ الحديث لأمريكا ينقسم قسمين فى رأيى :

قسم يبدأ من الحرب العالمية الثانية وينتهى بحرب فيتنام ، وقسم آخر جديد تماما يبدأ منذ انتهت حرب فيتنام بهزيمة ساحقة لطريقة القوة القاهرة التى حاول بها النظام الأمريكى أن يفرض طريقته على دول العالم الثالث ، ومن ثم يفرضها على المعسكر الاشتراكى نفسه وبهذا تتم له السيطرة العالمية الكاملة . كانت فيتنام درسا كبيرا حول مجرى السياسة الأمريكية تماما ، ثم كانت حرب ٧٣ المجيدة درسا آخر فبمثل ما أوجدت حرب فيتنام جنوب شرق آسيا وحقه الكامل فى استقلاله وحريته ، أوجدت حرب ٧٣ العرب وحقهم الكامل فى الاستقلال والسيادة . أنا لا أتحدث هنا عن الالتفاف حول نتائج الحرب ومحاولة تمييعها فالحرب فى حد ذاتها كانت عملا من أمجد أعمال تاريخنا الحديث كل[illegible]



وكان مفروضا أن بها ، وبغيرها لو احتاج الأمر ، أن تستمر ، ولكن تصوروا هذه الحرب المجيدة بيننا وبين أعدائنا الحقيقيين تنتهى إلى حرب قذرة قذرة فى لبنان داخل صفوفنا نحن ، وكأنها الطعنات يوجهها الإنسان ضد عدوه ودفاعا عن نفسه .. تنتهى بأن يوجهها الإنسان لنفسه هو ولصدره ولينتحر .

* * *

فى المرة السابقة وهذه المرة أتيح لى أن أشاهد أمريكا أخرى ، أمريكا الشعب والشارع ، أمريكا الثقافة والصحافة والفكر . وياله من تغير ! ..

مشيت فى شوارع نيويورك أنا وصديقى الشاعر العراقى اليسارى الكبير عبد الوهاب البيانى نتحدث فى هذا . سنين طويلة قضيناها نتحدث عن أمريكا وكأنها كتلة صماء لا تستطيع أن تفرق فيها بين الشعب والدولة ولا بين النظام ورجل الشارع ، كله أمريكانى وكله استعمارى وكله عدو .. وفى الوقت الذى يوجد فيه بالولايات المتحدة أكثر من أربعين أو خمسين مركزا لدراسة منطقتنا العربية والشرق الأوسط عامة ، لا يوجد لدينا ولا لدى أى بلد عربى مركز واحد لدراسة أى من الدول العظمى ، ونحن نجهل ما يعتمل فى صدر الشعب الأمريكى بمثل ما نجهل ما يعتمل فى صدر الشعب السوفييتى فى حين أننا منذ سنوات طويلة وإلى سنوات طويلة قادمة سنظل فى كل خطوة نخطوها نواجه أيهما أو كليهما معا . نواجه ونحن نجهل ، نواجه ونحن على الأقل لاندرك أن تغيرات خطيرة تجرى فى كل من المعسكرين ، وأننا لا بد أن نلحق بها

فيتنام جاءت فكشفت للمواطن الأمريكى أن أمريكا ليست دائما على حق ، أقصد أمريكا النظام والسياسة والمؤسسات الكبرى .. إنها ممكن أن تخطئ ، وتخطئ ببشاعة ، وتتورط ، وتورط معها الشعب بأكمله . وجاءت فضيحة ووتر جيت لتثبت للشعب أن ليس المؤسسات والنظام والدولة هى وحدها التى تخطئ ولكن القادة والرؤساء هم الآخرون يخطئون ويقومون بأعمال غير أخلاقية أحيانا . لقد تركت أمريكا ورجل الشارع هناك يكاد يشير إلى كل مسئول وكل سناتور وكل مرشح أو رئيس بأصابع اتهام بلغ بها الشك حد الرجفة ..

أذكر هذا السناتور الأمريكى الذى رأيته بعينى فى التليفزيون يعترف أنه كان على علاقة جنسية بسكرتيرته وأنه آسف إذ يقول هذا وأنه يرجو أن تغفر له زوجته وأن يغفر له أبناؤه . وجدتنى يعصرنى التساؤل : أهذا موقف يدفع إليه الناس باسم الأخلاق والطهارة ، إن انتحاره الحقيقى وضرب نفسه بالرصاص كان أسهل.باسم الأخلاق العامة يقف الشيوخ والمسئولون عراة هكذا وقد أجبر كل منهم على إبداء عورته . ولكنها حمى التطهر التى تجتاح المجتمع الأمريكى كالصبى الذى اكتشف فجأة والديه يعبثان ففقد الثقة فى كل والد وكل والدة وكل كبير وكل مسئول . حين يؤنب الأب الأمريكى ابنه على طول شعره ، ويقول له الابن : ولكن كل المتهمين فى فضيحة ووتر جيت كان شعرهم قصيرا ..

* * *

إن من الممتع حقا أن يحيا الإنسان لبعض الوقت فى مجتمع كالمجتمع الأمريكى لا تخفى صحافته أو تليفزيونه شيئا مطلقا . حتى مساعدات

المخابرات الأمريكية لبعض الحكومات ولبعض الأشخاص يقولونها علنا وبالأسماء .

كيندى يثبت أنه مسئول عن قتل لومومبا وكان يريد اغتيال كاسترو . روبرت أخوه يحفر فى حياته الشخصية حتى يعثروا له على مارلين مونرو أو لأخيه على سكرتيرة توصد أمامه باب الرئاسة . وعملية الكشف قائمة على قدم وساق . المهاجرون الأمريكيون الأول كانوا إما من ضحايا التعصب الدينى أو كانوا من المتعصبين البروتستانتيين الذين يبغون التطهر الكامل فى عالم جديد .. كروموسوم التطهر يعود ليظهر بعد مائتى عام من الاستغلال والوجود . شارع يريد أن ينفى حكامه وحكومته من أى شبهة فساد ولكنه الفساد الخلقى أولا ، فقد تجاوز الشارع الأمريكى مرحلة الماكارثية واعتبار السياسى تهمة . فالآن نجد فى قلب الجامعات الأمريكية والمؤسسات من يشهرون أنهم شيوعيون أو ماويون أو حتى من أنصار جيفارا وكاسترو . والحرية السياسية فى القمة ولكن المضحك أن هذه الحرية السياسية لا تمتد لتشمل العالم فهى وقف على استعمال المواطن الأمريكى . وكذلك هذا التطهر الخلقى قاصر على السياسيين الأمريكان وحدهم ، أما أن تتعامل الدوائر الأمريكية مع سياسى مرتش أو داعر لبلد أجنبى فهذا فى عرف الشارع أو السلطات مسألة مشروعة تماما وخلقية . مسألة تكاد تقترب بنا اقترابا غريبا من الشريعة اليهودية .. ففى عرف اليهود الزانى هو من يزنى مع يهودية ، أما إذا زنى مع غيرها فلا يعتبر زانيا . وهكذا يقترب أكثر من تشخيص للحالة الأمريكية فواضح أن المسألة لم تعد مجرد بصمات يهودية وإسرائيلية

على الفكر الأمريكى المعاصر . المسألة أن العناصر المفكرة اليهودية نجحت خلال سنوات من الدأب والصبر والمواظبة على مزج التعاليم اليهودية بالديانة المسيحية وإلى تكوين نوع من المركب يسمونه الـ Judo Christianity يصنع العمق الروحى لأقوى وأغنى دولة وجدت فى العصر الحديث .. دولة يسميها البعض الدولة الرومانسية الحديثة .. دولة القوة من أجل القوة . ولقد اكتشف اليهود هذا ، فطوال تاريخهم وهم يحاولون السيطرة على العالم ، وحين كانت ألمانيا مرشحة لحكم العالم تدفقت إليها قوافل المهاجرين اليهود ليحكموا الدولة التى ستحكم العالم ، وكانت النتيجة تذمر الألمان على هيئة نازية أشبعتهم تنكيلا وذبحا ، ونفس الشىء كاد يحدث فى إنجلترا حين كانت بريطانيا العظمى مرشحة لتسود العالم ، وهذه المرة نجحت التجربة ، وأصبح اليهود قوة عاتية فى الولايات المتحدة ، حكامها الروحيون والماديون ، وتفجر الاتهامات الخلقية التى توجه إلى السياسة الأمريكية فيما أعتقد انحراف موحى به من اليهود والمسيطرين على أجهزة الفكر والإعلام فى أمريكا بهدف صرف الناس عن الاتجاه السياسى مع أنه الأهم إذا كانت المسألة تتناول رئيسا أو سياسيا ، إنهم يجرون للسياسيين محاكات تفتيش خلقية فى حين أن حساب السياسى هو حساب سياسى أولا وأخيرا . فماذا يهمنى إذا كان هذا الحاكم فاضلا من وجهة نظر أخلاقه الشخصية ولكن سياسته يرسلنى إلى الجحيم ، ولكنها اليهودية والبروتستنتينية التى تريد أن تصنع المكون الروحى الداخلى لأمة من أعظم وأقوى الأمم التى ظهرت على سطح الأرض . والمضحك أيضا أن أمريكا بينما تحاسب سياسييها خلقيا



تحاسب السياسيين خارجها سياسيا أولا وعقائديا ولا يهمها أبدا المسألة الخلقية فى كثير أو قليل .

ولكن الشرح حدث . منذ سنة ٦٦ وأنا أرى المقدمات ، ولكن طمستها هزيمة ٦٧ . أثناء حرب ٧٣ دق وللأبد إسفين فى هذا التزاوج غير المنطقى بين البروتستانتينية واليهودية إذ كان تزاوجا لمصلحة اليهود على طول الخط . إسرائيل كانت تكسب وأمريكا تخسر ، وليس صدفة أن العرب هم الآخرون كانوا يخسرون . ربما حرب ٧٣ جمعت الخاسرين معا ، وبدأت (زمزقة) ما تحدث فى هذا الزواج اليهودى الأمريكى .

وكنت وأنا أدب فى شوارع نيويورك مع عبد الوهاب البياتى نلمح آثارا واضحة للزمزقة المخيفة . نيويورك وإمبراطوريتها المهولة أشرفت بل هى تفلس فعلا . نيويورك معقل الرأسمالى اليهودى ذلك الذى حكمها ومنها حكم أمريكا ردحا طويلا ومن هوليود إلى ما نهاتن كان يمتد نفوذه ها هو الآن ينحسر . وها هو الرئيس الأمريكى جيرالد فورد لا يريد أن يعطى لنيويورك البلدية والمؤسسات المائة ، وديونها تصل إلى المليارات ، وأسفلت الشوارع حافل بأبشع المطبات ، وعمال النظافة مضربون ، وكل بضعة أمتار إضراب ، ولم أر فى حياتى هذا العدد من لافتات (للإيجار) ، (المبنى كله للبيع أو للإيجار) . نيويورك كلها وكأنها تقدم نفسها للبيع أو الإيجار ، فهل من شار أو مستأجر ؟ .. ينظر الرئيس الأمريكى من واشنطن متدفئا برأسمال أمريكى قح — اغتنى كثيرا بالبترول وبأزمة البترول وحتى بالمقاطعة البترولية حتى يستأسد وينظر شذرا إلى نيويورك ويتركها تلعق أسفلتها الأسود وتجأر بشكاواها .

وفى نفس الوقت — وكان الاقتصاد هو محرك التاريخ فعلا — بدأ الشعب الأمريكى ينظر إلى إسرائيل نظرة أكثر موضوعية ، وإذا به يكتشف أن هناك فلسطين وفلسطينيين ، وأنه مستعد أن يحل مشكلة شعب متشرد ولكن ليس على أساس تشريد شعب آخر .. ومع هذا فقد فوجئت وأنا أرى الحيز الذى أصبحت فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية تحتله من وسائل الإعلام هنا . شاهدت برنامجا استغرق نصف ساعة بأكملها — وهذا فى عرف التليفزيون الأمريكى شىء كثير جدا — عن المستشفى أو أحد المستشفيات التى أقامتها فتح لخدمة جرحى حرب لبنان من مسلمين ومسيحيين ويهود ، وكان الذى يتحدث طول الوقت هو مدير المستشفى شقيق ياسر عرفات . ولا تخلو نشرة أخبار من خبر ، ومعظم الأخبار محايد أو منصف ، إن شيئا ما يتغير فى تفكير الناس هنا ، ويتغير إلى الأحسن . شىء مامثل التغير الذى بدأ يحدث للمجتمع ككل ، حتى بدأ بعض الناس يعترفون أنهم فقراء فعلا وأن هناك أغنياء فى حين أنها مسألة لم تكن واردة أبدا عام ٦٦ ، حدث أن زرت جامعة إنديانا وجلسنا نتناول العشاء فى منزل الدكتور ليجاسك أستاذ الأدب العربى فى الجامعة وقص علينا قصة المنزل الفاخر الذى يسكنه وقال إن المدينة قد أنشأته أصلا هو ومئات غيره ليسكن فيه الفقراء أو أصحاب الدخل المحدود ، ولكن حين تم البناء رفض الفقراء أن يسكنوا فى تلك البيوت باعتبار أن من العار أن يعترف الإنسان أنه فقير ، فالفقر فى أمريكا لم يكن كما تواضع الناس هنا مسألة نظام اقتصادى ولكن معناه أن الفقير إنسان دنس أولا وإلا لما كتب الله عليه الفقر يختفى هنا الآن تماما

وهدر الاعتراف بالفقر ، وتدفقت المطالب الاقتصادية والاجتماعية وبدأ المجتمع الأمريكى يدمدم بتحولات اشتراكية جعلت الخوف يدب إلى قلب طبيب مصرى صديق وغنى هنا يقول لى : أنا خائف أن تصبح أمريكا شيوعية فى القريب العاجل . ترى لو أصبحت كذلك فأين يذهب إنسان مثلى ؟ . إنى لا أهزل .. أنا أفكر جادا .. أتعرف أنى لا أضع علامة طبيب على سيارتى ، فلو وضعتها لوجدتها مسروقة حتما فمن المعروف أن الأطباء هنا أغنياء ويكسبون كثيرا والناس أصبحوا ينظرون شذرا إلى الأغنياء هنا .

والشارع الأمريكى ينظر أيضا شذرا إلى المؤسسات الهائلة الضخامة فهى ليست مؤسسات أو شركات .. إنها دول ، ودول كبرى ميزانية أقلها شأنا تعادل أضعاف أضعاف ميزانية دولة بأكملها من دول منطقتنا .. أرباح بعضها يقدر بمئات المليارات من الدولارات أى أرقام وعلى يمينها ثمانية أو ربما تسعة أصفار .

وهل يمكن الإحاطة بقارة فى موضوع ؟ .

أمريكا لغز العصر الحديث

أن تفهم شعب مسألة سهلة .. أما أن تفهم قارة فتلك مشكلة ، وأن ترى أمريكا من الخارج شىء ، وأن تراها من الداخل فشىء مختلف تماما .. وإذا ذهبت هناك فمن الصعب تماما أن تصدر أحكاما عامة مطلقة تخرج منها بنتائج حاسمة . من الصعب جدا مثلا أن تقول إن الأمريكان شعب طيب ، ودود جدا . تلقائى يشبهنا تماما فى هذه النقطة نحن المصريين . ولكنه مختلف قطعا عن أى شعب أوروبى . فصحيح أنه طبقات من المهاجرين الأنجلو ساكسون والأيرلنديين والإيطاليين واليونانيين والبولنديين واليهود والروس والزنوج وأخيرا العرب ، ولكن يبدو أن كل عائلة هاجرت ، أو كل جالية ، كانت تخلع زيها القومى فى ميناء نيويورك وترتدى زى العالم الجديد . ذلك أن أمريكا فعلا كانت بالنسبة لهؤلاء الناس عالما جديدا حقا . كانت أوروبا الإقطاعية وبدايتها الرأسمالية مثل خلية النحل التى تشبعت دينيا وعقائديا وحضاريا وفلسفيا وبدأت (تطرد) ممالك النحل الجديدة .. ولكن السمة البارزة للمهاجرين الأمريكيين الأول بل ربما إلى الآن أنهم إما كانوا من المضطهدين دينيا أو اجتماعيا فى بلادهم وإما كانوا من المغامرين والأفاقين .

وهؤلاء كانوا كذلك بالطبع متمردون ومضطهدون أيضا ولذلك

تعانق التياران على أن يخلقا مجتمعا غريبا جديدا لا اضطهاد فيه ، ولا حق لأحد على الآخر ، والقانون الوحيد السارى هو البقاء للأصلح أى البقاء للأقوى . فليكن شعار العالم الجديد أن يصل الإنسان فيه إلى أعلى مراتب القوة . وطبعا لا يمكن أن تصل بهذا إلا على حساب آخرين .

ولكن ذلك الوضع كان فى البداية ، كان القادم الجديد جشعا جائعا إلى مكان تحت الشمس ، ولهذا فمن حق كل إنسان أن يحمل السلاح ويقتل إذا اقتضى الأمر . فقط عليه أن يثبت أنه كان فى حالة دفاع عن النفس . وهذه وحدها لا بد أن تؤدى لمجتمع عنيف . ومنذ البداية والمجتمع الأمريكى عنيف ، حتى حين تضاءل دور الفرد وقدرته على الوصول إلى ما يصبو إليه من قوة ، وتكونت الشركات والمؤسسات ، أخذ العنف فى المجتمع طابع المنافسة المحمومة ، وما دمت تحيا فى حالة تنافس ، فالزمن مهم جدا ، والقرارات لا بد أن تكون سريعة وحاسمة ، ولا بد أن تظل فى حالة حركة ، بل فى حالة جرى وسباق ، مع الزمن ، ومع الآخرين .

* * *

كنت وأنا أسير فى شوارع واشنطن ونيويورك وديترويت ولوس أنجيلوس وسان فرانسيسكو وكلفيلاند . وأنا أركب الأتوبيس الصاعد شمالا إلى برنستون ولا أجد أثرا (للأرياف) أبدا بعد مغادرتى نيويورك . المصنع تلو المصنع والطريق فوق الطريق ، والمطارات تلو المطارات . وأعرف مثلا أن أكبر شركة طيران فى العالم ليست الخطوط العالمية أو البان أمريكان وإنما هى شركة طيران محلية أمريكية لا تطير لها

طائرة واحدة خارج الولايات المتحدة . كنت وأنا مبهور بغابة ناطحات السحاب التى تلمحها فى قلب كل مدينة أمريكية ، حتى العمارات القديمة المبنية قبل سبعين عاما ، ناطحة سحاب ، اختراع أمريكى للتغلب على المساحة الأفقية وإنشاء مساحة رأسية ، مصاعد ، عمارات من صلب وزجاج ، مسافات رهيبة شاسعة (فارق التوقيت ثلاث ساعات بين نيويورك وسان فرنسيسكو) وأوتوسترادات مبعثر فوقها ما لا يعد ولا يحصى من الكافيتريات والاستراحات والموتيلات واللوكاندات . هذه مؤسسات وأبنية وطرقات أقامتها فعلا أيادى شعب جبار على نفسه أولا .. العمل عنده مقدس ، من لا يعمل يموت ، والوقت عنده قاتل الأهمية . كنت وأنا أرى هذا كله ، وأنا فى قلب الرأسمالية الحقيقى ، فالبلاد الأوروبية لا ترى فيها الرأسمالية على حقيقتها ، أنت تراها وقد هذبت بتدخل الدولة وبحقوق العمال والفلاحين والقوانين المحددة والملزمة لكبح جماح المؤسسات والشركات . تراها فى ثوب من (اشتراكية) الرأسمالية . أما هنا فأنت فى قلب عالم رأسمالى قح ، غير مخفف لا بالماء ولا بالصودا ، تتجرعه وقد يلسع حلقك ، فأنت قادم من مجتمع لا قيمة فيه للزمن ولا للوقت ولا للمسافة ، حتى المنافسة فيه صغيرة وغير قاتلة ، مجتمع ممتد ، عمره سبعة آلاف عام وسيبقى ربما للسبعين ألف سنة المقبلة . مجتمع تتمطى فيه وتتمتع لتصحو من نومك وعلى مهلك جدا تشرب شايك أو قهوتك ، الخطأ فيه يغتفر مهما كان والجرائم قليلة وغلبانة ، والبشر هم الظاهرة البارزة فى بلادك فأنت فى القاهرة لا ترى عمائر ولا مؤسسات ولا مصانع ولا شوارع أو أرصفة

أو طرقات ، ناس ، ناس ، كثيرون جدا حتى ليسدون عين الشمس . فى أمريكا ، رغم ضخامتها لاتجد أناسا أبدا ، الشوارع شبه خالية ، ولا يتحرك سائر على قدميه فيها إلا أفراد مبعثرون .. فأمريكا فيها مائتا مليون هذا صحيح .. ولكنهم مبعثرون على قارة بأكملها . نحن أربعون مليونا أى خمس الشعب الأمريكى ومع هذا فنحن محشورون فى ما لا يزيد على واحد على ألف من مساحة أمريكا . أرض واسعة غنية فيها كل معادن الأرض ، فيها البترول والذهب ، فيها غابات الخشب ، فيها قمح وقطن وفواكه وثلوج فى الصيف فى الشمال ، وبلاجات فى عز الشتاء دافئة . هذه البلاد الغنية الشاسعة ، فى أقل من مائتى عام ينشأ عليها ذلك المجتمع الرأسمالى بعلومه واختراعاته ، بقدرات الإنسان الرهيبة على الخلق والتنفيذ الفورى لكل جديد ، يحمى المنافسة وهى تستخرج من كل مواطن أعمق وأهم قدراته ، بالفردية فى قمتها وهى تعطى ليستحيل العطاء الفردى فى النهاية إلى بناء جماعى مخيف ..

* * *

كنت وأنا فى قلب هذا كله أتساءل :

ـــ أهو النظام الرأسمالى التنافسى هو الذى أنتج هذا كله ، أم هى الأرض السخية الغنية غير المستنهكة أعطت كل ما لديها ، أم هى الخطورة والجدية التى أخذ بها هولاء المغامرون والمتمردون الأول أنفسهم وصبغوا بها مجتمعهم . أم هو هذا كله الذى تفاعل وتكاتف ليصنع أمريكا الحديثة العملاقة .

كنت أتساءل لأن الإجابة عندى كانت مهمة جدا . إنى إنسان

اشتراكى يؤمن أن الاشتراكية أو على وجه الدقة التطبيق الإنسانى الديموقراطى للاشتراكية هو أعدل نظام عَمَل ووجود للإنسان ، وليس أسهل من أن يدمغ أى اشتراكى متعصب الرأسمالية كلها بالاستغلال واللاأخلاقية ويدير ظهره لها تماما ويبدأ من الألف باء يبنى صناعته وتجارته وزراعته . وربما هذا هو ما حدث فى الاتحاد السوفييتى كأول دولة اشتراكية . ولكنى أعتقد أنهم هناك فى الاتحاد السوفيتى بدأوا يتلافون هذا الخطأ ، فالنظام جميعه قد يكون مرفوضا ولكن التجربة الرأسمالية الأمريكية ، خلقت على طول تاريخها آلافا وآلافا من الاختراعات الاجتماعية الصغيرة والكبيرة ، اختراعات لم يصنعها النظام بطبيعة الحال ولكن صنعها أولا وأخيرا الإنسان . والمركزية مرض بغيض من أمراض اشتراكية ، فلو كنت عاملا أو مهندسا فى مصنع واخترعت اختراعا صغر أم كبر لتسهيل العمل أو تغييره فالمصنع لا يستطيع أن يطبق اختراعى فورا ، لا بد أن يمر الاختراع على لجان أعلى وأعلى حتى يوافق المركز فى النهاية عليه ثم يعود نفس المرحلة ليطبق ، بمعنى أن المركز فى الاشتراكية هو الذى (يفكر) للنظام ، وهو المفكر الأوحد ، بينما فى هذه الرأسمالية اللامركزية الكاملة كل إنسان باستطاعته أن يفكر ويبتكر ويجد ألفا ممن يستجيب له وينفذ ، وهكذا باستطاعة المائتى مليون أن يفكروا معا للنظام كله ، وهذه حسنة كبرى من حسنات الرأسمالية ، علمت أنهم أخيرا فى روسيا بدأوا التفكير فى تطبيقها .

فعلا هذه بلاد يفكر من أجلها ملايين ، صحيح أن كلا منهم يفكر ليستفيد هو شخصيا وأولا ولكن النتيجة النهائية أن حصيلة تفكير الأفراد

تصبح ملكا للشعب للحاضر ثم للمستقبل ، بل إن الولايات المتحدة فى إدراكها لأهمية التفكير فى المجتمع بدأت تلغى كثيرا من الحواجز التى كانت توضع على تفكير المواطن الأمريكى.بدأت تؤمن فعلا بأهمية حرية الرأى والعقيدة و لم يعد أحدا يضطهد لأنه ماركسى أو حتى شيوعى . وهذا بالنسبة للولايات المتحدة شىء كثير . فأذكر أنى قرأت أن مدرسا فى مدرسة ثانوية أمريكية فى العشرينات فصل من المدرسة لأنه كان يدرس نظرية داروين فى النشوء والارتقاء لطلبة فصله .

(أليس من المضحك هنا أن نذكر أن مصر كانت فى العشرينات فيها مجلات تصدر لا تبشر فقط بداروين ولكنها تنشر حتى مقالات عن الإلحاد) .

بل بدأت أمريكا تستثمر غنى مؤسساتها الفاحش فى شراء الذكاء من العالم كله . لن تجد أعلى طبقات العلماء والأطباء والمهندسين وحتى الفلاسفة إلا هناك . كنت فى زيارة لجامعة لوس أنجيلوس واصطحبنى المرحوم الدكتور فون جرونابوم المستشرق المعروف وأستاذ التاريخ الإسلامى العالمى فى زيارة لبعض أقسام الجامعة . وذهلت من عدد العلماء الحاصلين على جائزة نوبل — ومعظمهم غير أمريكيين — الذين تحفل بهم أقسام الجامعة . وعرفنى على عالمة طبيعة إنجليزية حاصلة على جائزة نوبل . وكانت فعلا تشبه قديسة العلم كما يحلم الإنسان بقديسة علم . وذكر لى الدكتور جرونابوم ونحن نغادر معملها كيف أغرتها جامعة لوس أنجيلوس على المجىء . قال : كانت عنيدة تماما فقد رفضت كل عروض المجىء وتمسكت بعملها المتواضع فى جامعتها بإنجلترا ، فما

كان من جامعة لوس أنجيلوس إلا أن أنشأت لها فى قسم الطبيعة معملا يحتوى على أحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا والعقل البشرى .. ذلك المعمل الذى لا بد يحلم به أى عالم . ودعوها لتلقى محاضرتها لمدة أسبوع فى قسم الطبيعة وقبلت وحين حضرت وألقت محاضرتها الأولى بدأوا يفرجونها على الأقسام والمعامل . ودخلت المعمل المذكور ، و لم تخرج !!

إن الغنى يؤدى إلى مزيد من الغنى ، والذكاء إلى مزيد من الذكاء ، والعمل إلى مزيد من العمل ، وأمريكا الآن ، أغنى دولة ، تستعمل غناها فى حشد الذكاء البشرى ، ليضيف لغنى الأرض غنى الإنسان . هذا النظام الرأسمالى المرن الذى يتأقلم ويتشكل ويغير نفسه ويقتبس من الاشتراكية ومن الوطنية وحتى من النظام الهتلرى الألمانى يقتبس ، ويهيئ أحسن ظروف عمل ليأخذ من الفرد أقصى ما عنده ، غير مهم أن يكون أمريكيا أو غير أمريكى ، فمصيره أن يصبح أمريكيا ، وما دام إنتاجه سيبقى لأمريكا فما معنى ضيق الأفق ؟

* * *

ولكن السؤال يبقى :

— هل المواطن الأمريكى أو حتى المتجنس سعيد ؟

لا بد أن نستدرك هنا ونقول : يجب أن لانخلط بين سعادتنا نحن وسعادتهم هناك ، ولا بين تعاساتنا هنا وتعاساتهم هناك . فالمسائل مختلفة تماما . إن ما يتعس مواطننا هنا وربما ما يدفعه للهجرة هى المتاعب اليومية الكثيرة الصغيرة التى ترهق النفس والبدن وتطلع الروح . أزمة

مواصلات ، أزمة اتصالات ، أزمة مكاتب ونوع عمل ، أزمة ازدحام واختناقات ، أزمة أخلاق ، أزمة الحصول على مسكن أو مأكل أو مشرب . هذه كلها مشاكل لا جود لها ، ليس فقط فى أمريكا ، ولكن فى كل تلك البلاد الغنية التى تكون شمال العالم ، هذه بلاد الوفرة ، الوفرة فى كل شىء ، المساكن بكثرة ، الأرض بكثرة ، الطعام بكثرة ، المواصلات بكثرة ، الاتصالات بكثرة ، حتى إن إغرب إعلان شاهدته فى حياتى فى التلفزيون الأمريكى كان إعلانا يدعو الناس إلى تركيب تليفونات ، ويغريهم بالتسهيلات بل ويغريهم بإجراء المحادثات التليفونية البعيدة المدى . من هذا المثل الواحد تستطيع أن تدرك مقدار عمق الهوة التى تفصل بيننا فى جنوب العالم وبينهم فى شماله .

ولكن للمواطن الأمريكى مع نظامه مشاكله هو الآخر ومشاكله العظمى .. مشاكله العظمى ومشاكله الصغرى أيضا .

ذلك أن هذا النظام النشيط المحموم المتطور الساعى إلى الغنى الفردى المؤدى فى النهاية إلى الغنى الجماعى قد كان لا بد له فى النهاية أن يتجه إلى الخارج ، ويتوسع ، ويرث كل ما تخلف من بقايا الإمبراطورية البريطانية والفرنسية والهولندية . ويدفعه خوفه على نفسه من الفقر والاشتراكية إلى أعلانها حربا مقدسة ضد المعسكر الشيوعى ، وجعل من نفسه ، كما يقولون — رجل البوليس العالمى لإلقاء القبض على أى دولة فى أى ركن من أركان العالم أو أى نظام تحدثه نفسه أو يخطر له خاطر الشيوعية أو الاشتراكية . وقد كان من المحتم لدور كهذا أن تنغرز ساق رجل البوليس فى فيتنام ذات مرة ، وفى محاولته لاستخراجها تنغرز الساق الأخرى ، ثم

يبدأ الجسد نفسه يغرق .

ولقد ظل الجسد يغرق حتى أفرزت الجامعات الأمريكية (عقل النظام) كيسنجر ، والكيسنجرية وسيلة لإنقاذ النظام الرأسمالى ، ليس فقط فى أمريكا ولكن فى العالم كله ، والكيسنجرية ببساطة حولت (الثور) الأمريكى الذى كان ينطح أى لون أحمر يلمحه إلى إنسان ذكى .. يميز أولا بين الألوان ، فليس كل أحمر هدف وليس كل هدف ممكن نطحه ، ثم أليس من المستحسن بدلا من أن تنطح أن تحتوى وبدلا من أن تهدم الحائط أن تصنع لك فيه فجوة وبدلا من أن تعادى نصف العالم : روسيا والصين معا ، تأخذ الصين فى حضنك ، وتسلم — باليد — على روسيا .. وبدل أن تكون أبيض تماما مع إسرائيل وأسود تماما مع المصريين والفلسطينيين والسوريين والعراقيين ، تجرب الرمادى ، قليل من البياض على كثير من السواد ، وقليل من السواد على كثير من البياض ، هل تمشى المسائل ؟

ذلك سؤال فى الواقع متروك للتاريخ ..

ولكن الذى لا شك فيه أن الكيسنجرية أكثر دهاء وبالتالى ديمقراطية من الدالاسية . ومن الخارج إلى الداخل بدأت الديمقراطية تسعى ، ولا شك أن نيكسون كان آخر رئيس أمريكى يملك سلطة الرئيس ، وإزاحته ، لم تكن فقط تخلصا من رئيس أخطأ ولكن كانت فى الحقيقة تخلصا من أعباء الرئاسة كلها .

أمريكا الآن تحيا فى عهد السناتورز ، وحتى هؤلاء موضوعون تحت رقابة رأى قوى وخطير ، عثر على نفسه وقوته بفضيحة ووترجيت ،

وبدأ يمسك بزمام الأمور ، ويلوى عنق النظام بحيث لا يعود يخدم المليونيرات فقط ولكن يخدم المواطن الفرد العادى بالدرجة الأولى . ثورة ؟! سمها ثورة ، ولكنها ثورة على الطريقة الأمريكية . فهى ثورة أفراد ، يثورون بشكل تمردى فردى ، يهاجمون المارة وليس لديهم مانع من مهاجمة السيدات بالذات ، يسرقون بتهديد المسدسات ، ينشئون العصابات الثورية التى تسطو على البنوك والمؤسسات ، يقتلون (بفتح الياء) ويقتلون (بضم الياء) ، وجزء من المجتمع العنيف يتحول ليواجه الجزء الآخر ، وعنفا بعنف ، وفردية ، وما دام البقاء للأقوى فلماذا العمل وأنا أستطيع أن أكون الأقوى بالمسدس والطلقة .

ولهذا فمشكلة المواطن الأمريكى هى بالدرجة الأولى مشكلة أمن .. تزلزل الأمن فى أغنى قارات العالم . ومنذ أن تغلق عليك باب حجرة الفندق تجد التعليمات واضحة وصريحة ومشددة.لا تحمل نقودا .. لا تمش بمفردك ليلا .. لا تفتح الباب إلا بعد الاتصال بالاستقبال والتأكد أن أحدا بعينه قد جاء لزيارتك .

وهكذا يتحول الإنسان فى مدن أمريكا إلى كائن نهارى يختفى تماما فى الليل لتظهر العفاريت فى الشوارع ، وصوت سيارة البوليس الأمريكى الجديدة صوت مزعج حقا ، فقد استبدلوا السرينة المتصلة بصوت كنعيق البوم عال ومزعج ، كنت لا أكاد فى قلب واشنطن العاصمة تغمض أجفانى لدقائق حتى يوقظنى نعيق آخر ، وكان فى كل خمس دقائق تحدث حادثة .

أهى ثورة اجتماعية تأخذ ذلك الطابع الإجرامى ؟ أم هو إجرام يأخذ

شكل الثورة الاجتماعية ؟ ..

ذلك سؤال هام جدا . والإجابة عليه ليست مهمة فقط للأمريكيين ، إنها مهمة جدا لنا أيضا ، فالولايات المتحدة تلعب وستظل تلعب دورا خطيرا ، ليس فى العالم أجمع فقط ، ولكن بالتحديد فى منطقتنا وبلادنا ، وفهم العوامل الداخلية التى تعتمل فى قلب ذلك الشعب العملاق مسألة من الواجب أن نعرفها ، ونعرفها الآن بالتحديد .. والحيز الآن يضيق .

* * *

ذات الأصابع الطويلة الشاحبة

ملحوظة: حين عدت خجلان إلى زوجتى فى الفندق ، ذكرت لها أن بطل القصة كان رجلا غليظ الصوت ، ولعلها الآن تعرف أن البطل كان فتاة ، امرأة أو آنسة ، لا أعرف ، ولكنى أعتقد أنها كانت فتاة ، وبالتحديد فوق العشرين . ثم أنى ذكرت لها أننى أحسست بفوهة المسدس فى ظهرى ، ولكن الحقيقة أنى (تصورت) أنه لا بد مسدس ، فما أحسسته كان شيئا صلبا حديديا دون شك ، أما أن يكون مسدسا أو غير مسدس . فتلك مسألة أخرى .

والآن بعد أن أرحت ضميرى ، لنبدأ القصة من أولها . وأولها كان فى واشنطن حيث وجدنا التعليمات فى الفنادق ، وحيث تولت سيدات الجالية المصرية فى أمريكا بشكل عام عملية تحذيرنا بشدة أن نسهر أو نمشى فى الشوارع بمفردنا ، أو أن نحمل نقودا أكثر من عشرة أو عشرين دولارا . ويجب إذا مشى الإنسان ألا يسرع حتى لا يلحظ أحد أنه خائف ، وأيضا ألا يبطىء حتى لا ينتهز أحد الفرصة ويهاجم .. عليك أن (تضبط) مشيتك بحيث توحى لأى مار أو أى ممن تحدثه نفسه أنك واثق وقادر وأنك غير مهزوز .

فى الحقيقة كانت أحاديث ، وتحذيرات كهذه ، تطن فى أذنى وكأنها صوت بعوض لا تجده إلا فى مستنقعات الأرز ، يطن حولك فى قلب

مدينة ومدن مزودة بأحدث ما وصلت إليه تكنولوجيا مقاومة الجريمة ، وبلاد غنية ، الأجور فيها وافرة ، والحياة تبدو مسالمة إلى حد كبير ، حياة النهار على الأقل . قلت ربما هو الخوف التقليدى من الغربة ، وربما هو كثرة مشاهدة قصص العنف فى التليفزيون الأمريكى ، وهو أغرب تليفزيون فى العالم ، فعشرات المسلسلات كل يوم حافلة بأنواع من العنف يقشعر لها البدن ، وكأنه لاهم هؤلاء الناس إلا أن يقتلوا بعضهم بعضا ويضربوا بعضهم بعضا ، الآباء دائما أعداء .. الأبناء ، والبنات متمردات ، إلى درجة الجريمة على تعاليم الأسرة .. أفهم أنه مجتمع عنيف آه ، ولكن أن يتحول التليفزيون إلى وسيلة لزيادة النار اشتعالا ، وتعليم الجريمة ، والتحريض عليها رغم النهايات التى تقول دائما إن الجريمة لا تفيد ، مسألة تدعو إلى الدهشة الشديدة ، ولا بد أن سبب انعدام أى إشراف شعبى ، أو حكومى ، على محطات التليفزيون الكثيرة ، بل لا يوجد حتى أى ميثاق أو اتفاق على حد أدنى من مراعاة أى قيمة ، المسألة كما ذكرت متروكة للتنافس (الحر) وفى محاولة الجذب الانتباه وتجميع أكبر عدد من المشاهدين لتعرض عليهم الإعلانات ، فلا بد أن تعرض الأعنف ، وكلما كان عنفك نادرا ومثيرا كلما (نجحت !) .

المهم لم أكن حريصا على تتبع هذه القصص المرعوبة والمرعبة ، حتى وأنا أسمع نعيق عربات البوليس والإسعاف ليل نهارا ، حتى وأنا أقرأ هجوما تعرض له السفير السويسرى ، فى حى السفارات بواشنطن ، وهو أكثر الأحياء أمنا . رجل عمره ستون عاما ، هاجموه ، وطعنوه ، وأخذوا نقوده . حتى حين علمت أن نائب وزير مصرى دخلوا عليه فى

حجرته بفندق هيلتون وأخذوا كل ما معه من نقود بعد نصف ساعة فقط من وصوله إلى الفندق .

معظم القاتلين ينسبون الحوادث للزنوج ، ولكنى ألمح هنا تغيرا كبيرا فى المجتمع ، الزنوج أصبحوا موجودين ، وبكثرة شديدة ، فى كافة مرافق الحياة ، حتى إن الإعلانات عن البضائع لا بد أن تحتوى على أكبر عدد من الوجوه الزنجية ، لإغراء المشترى الزنجى وقد أصبح قوة اقتصادية ، ومذيعو التليفزيون ، لا بد على الأقل من مذيع أو أكثر زنجيا ، وعمدة واشنطن نفسها زنجى ، الثورة الزنجية العنيفة والثورة الزنجية غير العنيفة بقيادة مارتن لوثر كنج أدت إلى نتائج حاسمة فعلا . فأنا لا أصدق الإحصاءات الرسمية التى تقول إن الزنوج تعدادهم ٢٠ مليونا فقط ، إن الزنوج يشكلون على الأقل ربع هذا المجتمع الكبير ، بل إنهم فى المدن يبدو عددهم أكثر من البيض كثيرا .

لم تعد إذن القضية العنصرية حادة إلى الدرجة التى تدفع إلى كل هذا العدد من الجرائم . وأنا لا أتحدث هنا عن الجرائم المنظمة التى تقوم بها عصابات كالمافيا وغيرها ، تلك التى ترتب لسرقة بنك أو قطار أو محل مجوهرات . هذه هى الجريمة التقليدية فى الغرب الرأسمالى كله . إنى إنما أتحدث عن الجرائم شبه التلقائية ، الفردية ، أو العصابات الكثيرة الصغيرة التى انتشرت بطريقة محمومة على مساحة أمريكا كلها والمكونة غالبا من فردين أو ثلاثة على الأكثر . أو ربما فرد واحد قد يهاجم أو حتى يقتل ضحيته لمجرد لذة القتل إن كان للقتل لذة . كمّ ضخم من المسدسات والخناجر والسكاكين والأيدى التى يمكن أن تمسك بها كثيرة . أيد

مسئولة وأيد غير مسئولة لكأنما كانت الموضة فى الستينات هى موضة البيتلز والهيبيز وثبت أنها وسيلة غير مجدية لقهر المجتمع الرأسمالى الكبير الراسخ ، فلجأوا فى السبعينات إلى الجريمة ، وإجرام بإجرام فليكن الطوفان وليغرق الجميع ..

* * *

ولكن هذا كان آخر ما يدور فى ذهنى وقد وصلت إلى مدينة هيوستن الجميلة بولاية تكساس فى الجنوب فى انتظار موعد مع الدكتور دييكى أشهر جراح قلب فى العالم الآن . الفندق الذى نزلت أنا وزوجتى فيه شاهق وجميل ورخيص أيضا ، ففوق أن أسعار الفنادق فى أمريكا أرخص من مثيلاتها فى أوربا فإن الفندق ملحق بالمستشفى الذى يعمل فيه الدكتور دييكى لينزل فيه أقرباء المرضى .

وصلنا بعد الظهر وكان اليوم يوم الكريسماس الماضى ، كل شىء فى المدينة مغلق ، ولن يغلق يومها فقط ولكن سيظل كل شىء مغلقا للأيام الثلاثة القادمة . وبحثت فى سجائرى فوجدت أنها كادت تنفد .. سألت فى الفندق فقالوا لى إن المكان الوحيد الذى تستطيع أن تحصل على سجائر فيه هو فندق هيلتون . وهو يقع على بعد لا يزيد على نصف كيلومتر من الفندق الذى كنا ننزل فيه . وفعلا ، حين خرجت من الباب الرئيسى وجدت علامة هيلتون أمامى يفصلنى عنها متنزه يغطى المساحة كلها بين فندقنا وفندق هيلتون . سعدت أنى سأتمشى عبر المتنزه . كانت السماء صحوا والجو جميلا . ورائحة الكريسماس تعبق وتضفى الكثير من السلام على المدينة وعلى المتنزه . وصلت هيلتون بعد أقل من ربع ساعة

من السير عبر المتنزه حين غادرته عائدا وجدت الجو قد انقلب فجأة ، وبدأ مطر خفيف أول الأمر ، ثم غزير جدا يتساقط . كانت السابعة مساء ولكن الظلام لم يكن سببه غروب الشمس . كان بسبب اختفائها خلف طبقات كثيفة من السحاب ظهرت فجأة فى الأفق و كأنما دفعتها يد (ميكائيل ملاك المطر) على عجل ، فقدت الأمل فى ثيابى وأسرعت عبر ممرات المنتزه التى بدأت تمتلىء بالمياه وتصنع من حذائى مركبا غارقا تجاهد ليوصلنى إلى الفندق .

فجأة أيضا ، سمعت الصوت .. يداك إلى أعلى . حسبته رجع الصدى فى ذاكرتى لكثير من حلقات التليفزيون التى أراها ليل نهار .. يداك إلى أعلى . كأنما الذاكرة ترددها . ولكنها حين جاءت صارمة حادة فى المرة التالية ومعها جاء ذلك الإحساس بجسم معدنى مسدد إلى عمود ظهرى الفقرى . انسحب الدم من رأسى فى الحال حتى خفت أن أسقط . أنا إنسان غير عنيف و لم أشترك — حتى وأنا طفل — فى أى خناقة أو قتال ولا أحب العنف . مع اندفاقة الدم مرة أخرى إلى رأسى تدفق بركان مختلط من الأحاسيس والمشاعر والخواطر . ولكن يدى كانتا قد ارتفعتا تماما إلى أعلى . إنه صوت فتاة هذا واضح . كيف ومن أين جاءت والمنتزه واسع و لم يكن به أثر لمخلوق ؟ .. تعليمات البوليس أن تسلم كل ما معك دون بادرة مقاومة أو نقاش . وحتى إذا لم تكن هذه تعليمات البوليس فكيف تعصى ذلك المسدد إلى ظهرك . أحس أنه ليس مسدسا ، ولكن ما أدرانى أنه ليس كذلك . المغامرة هنا على أى حال احتمال آخر.انتحار .. هل تقتلنى ؟ .. فى نفس اللحظة كانت اليد

الأخرى تمتد لتفحص جيوب سترتى بسرعة وخفقان واضطراب . هنا فقط لمحت اليد .. أصابع طويلة نحيلة شاحبة جدا . هى بيضاء إذن .. ألف خاطر وخاطر .. ماذا لو أيتها الحلوة تلقى هذه اللعبة من يدك وتدعونى لقضاء كريسماس سعيد ، وتأخذى كل ما معى بإرادتى أنا ؟ .. ارفع يدك . يبدو أن اليدين كانتا انخفضتا تعبا فقد أحسست حقا بتعب مفاجئ وشديد و كأنى عدوت مائة ميل .. تسمرت يداى مرتفعتان .. فجأة بدأت أخاف . هذا أرعب صوت ولو أنه أنثوى إلا أن فيه نبرة قتل . الجو يغرى فعلا بالقتل ، المكان خاو تماما ولا أرى على امتداد البصر إنسا أو جنا أو عربة أو أى شىء متحرك أو حى . لكأنما فرغ العالم تماما من بشره . والدنيا — هكذا أدركت و كأنما كنت قد غبت عن الوعى صاحيا — لا تزال تمطر ، وبغزارة . جو تراجيدى مظلم مضبب يغرى بالاكتئاب والاكتئاب يدفع حتما للجريمة . فى لهفة عصبية شديدة كانت كل محتويات جيوبى تستخرج بمهارة فائقة . حتى السجائر تستخرج ، ولا ريب أنها تودع حقيبة يد معلقة فى الكتف ، تلك التى كانت تخفى السلاح أو المسدس . هى ترتجف سارقة وأنا أرتجف مسروقا ، وبيننا ذلك الشىء المسدد إلى ظهرى . وبيننا ما هو أكثر من هذا بكثير . نظام كامل أحالها سارقة مرعوبة وأحالنى مسروقا أشد رعبا . فجأة أيضا ذلك الفلاح المصرى الشرقاوى الكامن فى ، بدأ من سباته الطويل يستيقظ ويتمرد : كيف تسرقنى امرأة ولو حتى بمسدس . ار تعش جسدى بالانفعال المفاجئ ، هكذا لا بد أحسست أنا فى الحال أن الجسم المعدنى يغور أكثر فى ظهرى ، وأن اللعبة هى الخطوة

القادمة بلا أدنى شك . امتلأ رأسى بدم أحمر . فكرت فى حركة سريعة أتخلع بها من مجال التسديد ، وأقلد الكاوبويز وما أكثر ما رأيتهم يفعلون هذا . ولكن هكذا يفعلون فى الأفلام وفى البلاتوه . أنا هنا فى بلاتوه آخر . مرعب لأنه حقيقى . لا مخرج يقول : ستوب لا ممثلة تصافحنى بعد انتهاء المشهد . هنا الموت فعلا ليس فقط ممكنا ولكنه الاحتمال الأغلب . يا رب .. أهذه ميتة .. أأقبل من آخر الدنيا لأموت فى منتزه عام فى هيوستون تكساس ، وبيد نحيلة رشيقة لبيضاء مجهولة ؟ .. فلينخمد الفلاح الشرقاوى فما دام العنف بالعنف فالأذكى أن نستسلم إذا كنت فى الكفة الأضعف . فلينتهى المشهد بسرعة . وفعلا بسرعة انتهى المشهد ولكنى أنا لم أتحرك . فالصوت جاءنى واضحا وصريحا : قف فى مكانك لا تتحرك لمدة ربع ساعة ويداك إلى أعلى . إذا تحركت ستقضى ليلة الكريسماس فى جهنم .. وكأن الخطوات لجنية تنسل فوق سطح الماء الذى غمر الممرات .. لم أشعر بها تذهب مثلما لم أشعر بها تقدم . واقفا ظللت .. ماء المطر يتدفق بغزارة رهيبة يملأ عينى ويلسعهما ويتحول شعرى إلى مزاريب تنسال على سترتى التى تهدلت وقلبت جيوبها . كل ما معى كان قد راح ولكن المهم أنى لا زلت حيا . المهم أنى لا زلت حيا فقد قالوا لى إنهم يقتلون الضحايا لمجرد إغلاق الفم أو حتى لمجرد التسلية .

وقفت مذنبا وما فى الموت بد لواقف . تلميذ صغير أذنب ويذنب على جريمة لم يرتكبها هو . أتلقى مزاريب المطر وتغسل عن عيونى كل آثار ناطحات السحاب والأوتوسترادات والنجاح والغنى والثراء .. إننى فى

قلب الغابة الحديثة .. أشجارها عمارات .. وقرودها سماسرة .. وأفيالها جمهوريون (الفيل شعار الحزب الجمهورى) .. ونمورها سود وبيض ، والأنثى حية ، تسدد نابها إلى الظهر . ما فائدة الغنى إذا كنا سنعود القهقرى ونستحيل من بشر إلى وحوش . أطلق التنافس على أشده .. يستحيل البشر إلى وحوش . البقاء للأصلح إذن البقاء للمسدس والدبابة والفانتوم . اصعد إلى القمر بجسدك ولكن روحك تهبط إلى الجحيم . أى نظام هذا الذى يدفع شابا أو فتاة إلى حمل آلة القتل والسرقة بالإكراه ربما تحت تأثير عقاقير الهلوسة أو المخدرات أو فى النهاية سعيا إلى إنفاق النقود على عقاقير الهلوسة والجنس والمخدرات . صناعة رهيبة عملاقة هذا صحيح ، حريات خذ ما شئت من حريات ، انتخابات مجالس محلية وسناتورات ، ديمقراطية على أشدها ولكن النتيجة غابة ، وإنسان رغم كل مظاهر التحضر ، ينقلب إلى حيوان مفترس يسرق وينهش . بودى لو لم أكن واقفا وحدى هنا ، ولكن معى ، مسددة إلى ظهره المسدسات والخناجر كل أولئك الذين يحلمون بهذه الجنة على الأرض .

وقفت ربما لساعة ربما لساعتين . وقفت وظللت واقفاحتى حركنى الخوف . الخوف من أن يرانى أحد واقفا هكذا فيغريه أنى هدف جديد ويقتلنى ، إذ هكذا ذهب الأمن البشرى عنى وانتهت تماما أسطورة أنى فى قلب مدينة متحضرة . أنت لا يمكن أن ترى نظاما على حقيقته إلا إذا اختلفت معه ، إلا إذا عاداك أو عاديته ، أو على الأقل كشف لك عن أنيابه . وأنيات أى نظام خفية فى العادة للعين الزائرة أو العابرة . تحركت

وذهبت إلى الفندق ، وأنا على بابه فقط بدأت أفكر ، أو بدأت القدرة على التدبير تعود إلى حسى ، إذن لقد ذهب عنى كل ما أحمله من نقود مخصصة لعلاجى ولإنفاق لحوالى الأسبوع الذى سأمكث فيه فى هيوستون . فماذا أفعل والبنوك مغلقة للأيام الثلاثة التالية ، ومطعم الفندق مغلق ، وليس معى أنا وزوجتى حتى باكو بسكويت .

أبلغ البوليس ؟!

وماذا سيفعل البوليس وأنا لم أر الفاعلة ، وحتى لو رأيتها فهى قطعا هاوية لا سجلات لها ولا صور . كل ما سيحدث أنى سأقضى الكريسماس بإذن الله مع ضابط بوليس متبرم بالعمل فى يوم الأجازة المقدس . ولن يصنع لى فى النهاية شيئا .

كارثة .. ولكن الكارثة الأفدح أنى كنت حزينا تماما من أجل الإنسان . ذلك الذى يخترع التجارة والصناعة والزراعة لتنقذه فإذا به يذهب فى النهاية ضحيتها . يخترع الثورة فإذا بها أحيانا تطبق على عنقه . أما من خلاص ؟ أما من نظام يكفى حاجاتى دون أن يسرقنى ، وأحكم به نفسى دون أن يتحكم حزب فى وأكون حرا ولا أدفع ثمن حريتى عقابا ينزل على من (أحرار) آخرين ؟!

حزينا ومبتلا إلى النخاع أرتجف .. دخلت الفندق .. ولكنى فى وسط ذلك الكابوس الخانق تذكرت شيئا ، ودسست يدى بصعوبة فى جيب بنطلونى المبتل ، ولو كنت قد وجدت كنوز سليمان كلها فى جيبى لما سعدت قدر سعادتى ببقية العشرين دولارا التى أخذتها بعد

خصم ثمن السجائر فى الهيلتون . أربعة عشر دولارا بأكملها صحيح لا تكفى لشراء بضع علب محفوظة ولكن المشكلة كيف نشترى هذه العلب ، من يشتريها ، ومن أين وقد أصبحت المدينة على محرمة ؟

ولكنها قصة أخرى ..

* * *

هذا أو الجهجهون

قرأت كثيراً من التعليقات فى الصحف العربية والغربية عن فوز كارتر (الصاروخى) فى انتخابات الرئاسة الأمريكية . والحق — وإن كان كثير من هذه التعليقات قد لون أجزاء من الصورة — إلا أنى ظللت أحس باستمرار أن ثمة أشياء ناقصة كثيرة لتكتمل اللوحة .. ثم أنى أحسست وما دمنا نقول إن ٩٩ ٪ من أوراق اللعبة فى يد أمريكا بالأسى لأن اتصالنا بها على أساس اجتهاد شخصى ولا يوجد لدينا على المستوى المحلى أو العربى مركز وطنى أو قومى واحد لدراسة السياسة الأمريكية وتحديد الأسس التى تقوم عليها علاقتنا بها . وإذا طبقنا هذا بالنسبة لعالم عربى واسع مترامى الأطراف والاتجاهات تلعب أمريكا فيه الدور الرئيسى فى صناعة أحداثه أو التدخل لمنع أحداثه ، يكاد موقفنا نحن العرب من أمريكا يميتنا فى فيض من الضحك .

فثمة دول عربية تعتبر أن أمريكا هى (رأس الرمح فى حركة الاستعمار الجديد المعادى لأمة العرب ، وكأنها بهذا قد أدت واجبها الوطنى خير أداء ، وأطلقت هذا الحكم شهادة للتاريخ يذكرها لها حين يعن لأحد أن يراجع التاريخ والمواقف . وهذا ليس اتجاها غريبا على منطقتنا ولا على إنساننا العربى ، اتجاه إصدار الأحكام . اتجاه أن هذا رجعى وهذا تقدمى وهذا رافض وهذا قابل وهذا بين بين .. وكأننا لا نحيا فى فترة تتحرك بنا

وبها الأحداث فى سرعة رهيبة والسبق فيها هو لمن (يحرك) الأحداث ولا يكتفى بإصدار حكم بيزنطى عليها ، وإنما كأنما نحن فى محكمة قد توقف الزمن بنا وبها وسكتت الأحداث تماما داخلنا ومن حولنا ولم يبق على كل منا إلا الإدلاء بشهادة الإدانة أو بشهادة البراءة . ومن هو قاضى هذه المحكمة أيها السادة ، وأين الادعاء وأين الدفاع ، وحتى لو أصدر هذا القاضى المزعوم (حكما) ما ، من ينفذه ؟ يخيل إلى أن كل مسئول أو قائد يملك هذه العقلية المضحكة ، قبل أن يدلى بأى تصريح أو يحدد موقفه من أى اتجاه يصيح فى سره : حضرات القضاة .. حضرات المستشارين .. أنا برىء يا حضرات وهذا هو الجانى اللعين .. فى حين أنه لو تصور الموقف على حقيقته وأدرك أنه يخاطب أشباح قضاة ومستشارين وعدالة لا وجود لها إلا فى خيال سعادته ، وأن أحدا لا يهمه بالمرة أن يكون سعادته بريئا أو مذنبا إلا بقدر (قوته) هو على فرض براءته أو حتى فرض جريمته ، نحيا فى عالم لا تسيره أحكام محكمة عدل دولية أو مجلس أمن وإنما يسيره منطق القوة القاهرة الغاشمة ، والحق دائما هو منطق الأقوى . والكلام الذى يذوب فى الهواء ولو كان مصنوعا من البراءة المذابة هو دائما منطق العاجز ..لو تصور أنه إنما يتحدث بلغة أشباح وإلى أشباح ، ويستذكر دروسه من دفاتر (القيم) ، إذ مازلنا فى الحياة الدنيا وحساب كهذا لا يتم إلا يوم القيامة ولا يقيم حده إلا إله قادر يفرض العدل والعدالة .. نحن للأسف مازلنا فى الحياة (الدنيا) مكانا ومعنى ، فأى معنى بعد هذا إصدار (أحكام) غير قابلة التنفيذ أو رفض شىء إلا وأنت قادر على فرض شىء آخر ، وعجيب أن لا فرق حرفى بين كلمتى

(فرض) و (رفض) ، نفس الحروف ، ولكن حركة الراء إلى أمام الفاء لا تغير تماما ولكنها أيضا رمز عميق لكون الفرض (حركة) أو (فعلا) وفى النهاية إجبار .. برضه ما علينا من هذا كله ، هناك كما قلنا أجزاء من العالم العربى تعلن عداءها لأمريكا وللسياسة الأمريكية وتعتبرها أبشع درجات الاستعمار العالمى ، وأنا لا أناقشها فى هذا . وقد يكون لى نفس الرأى ، ولكن هؤلاء الذين يقولون هذا ويفعلونه دول ومؤسسات وتنظيمات ، وليست أفرادا مثلى عاجزة . وبما أنها كذلك ، وبما أن أمريكا ليست كلمة وإنما هى مؤسسات (جهنمية) و (أخطبوط) وعقول خبيثة واسعة الحيلة ، ومعامل تفريخ أسلحة وأشكال عدوان ، فالسؤال هو ماذا فعله أو يفعله هؤلاء اللاعنون الساخطون لمعرفة ذلك (العدو) ما داموا يعتبرونه عدوا . وما دام المثل الحكيم يقول : اعرف عدوك ؟ الواقع أن معلومات الرافضين لأمريكا وللسياسة الأمريكية فى شرقنا العربى لا تقل عمومية أو سطحية عن معلومات من يعتبرونها الصديق الأول أو على الأقل الراعية المثالية لاستتباب (النظام) واللاشيوعية واللااشتراكية فى المنطقة .. فتصور أنت تربط نفسك وبلدك وشعبك وتضع كل بيضك كما قلنا فى سلتها وأنت لا تعرف عن هذا البلد الخطير فى حياتك وفى مصيرك إلا معلومات أى سائح أو ضيف طالت قليلا ضيافته .

يقينى أن من يعادون أمريكا هم أولى الناس بالتهام المعلومات وتحليلها وإدراكها ومن يصادقونها تعتبر مسألة كهذه مسألة حياة أو موت .. ومع هذا فعلى اتساع عالمنا العربى كله لا يوجد فى أى بلد عربى أو أى جمع

أو تجمع عربى (مركز) لدراسة أمريكا : النظام والسياسة والعوامل الظاهرة والخفية واتجاهات الرأسمالية الأمريكية والشارع الأمريكى والمؤسسات ، سياسة الدولة الاتحادية وسياسة الولايات ، سياسة البنتاجون ووزارة الخارجية ومجلس الأمن القومى الأمريكى وسياسة الـ سى . أى . إيه وآلاف بى آى ، والمراكز الجامعية المتعددة (للتفكير) الأمريكى تجاه الشرق الأوسط .

* * *

لهذا السبب لا نستطيع أن نجد ببساطة (سياسة) يتخذها بلد عربى ، أى بلد عربى ، تجاه أمريكا .. نجد علاقات وصداقات وصلات شخصية ومصالح أو معارك وعداء ، أو رضاء ، ولكنا نجد سياسة مرسومة .. سياسة بمعناها العلمى الدقيق .. سياسة نحدد فيها بالضبط ماذا تمثل أمريكا بالنسبة لنا ، ثم ما هى هذه الدولة العظمى التى أصبحت كما يقول حتى بعض كتابنا التقدميين أعظم دولة فى عالم اليوم .. من هى .. وما هى ؟ دراسة واعية دقيقة مفصلة بحيث حين نأتى للخطوة التالية وهى خطوة ما هو موقف هذا البلد أو ذاك تجاه أمريكا ، لا نأخذه على ظلام ، أو (جهجهون) كما يقولون ؟ وإنما هو نور وبينة . وبحيث يتحدد لنا على ضوئه أيضا ليس أن نكتفى (ببوصم) أمريكا بأنها استعمارية مؤيدة للصهيونية أو نصدر حكم الصداقة لصالحها . بحيث يتحدد لنا كيف يمكن أن نغير من تجاه أمريكا ناحيتنا إذا كان اتجاهها ضارا بنا ، أو نحارب هذا الاتجاه إذا كان لا مفر من محاربته . أو — فى الناحية الأخرى — بحيث ندرك كيف يمكن أن ينتمى هؤلاء الذين يعتبرون

أمريكا صديقة وحامية لمصالحهم ضد « الزحف الشيوعى » ، ينمون هذه العلاقة ويطورونها لمصلحتهم الشخصية هم ، وأيضا إذا كانت بلادهم وشعوبهم تهمهم فلمصلحة هذه البلاد والشعوب أيضا .

* * *

والدليل واضح أمامنا وصريح والمثل واقع أمامنا فى الحال وصارخ ، حكاية فوز كارتر وهزيمة فورد . لكأنما تعليقاتنا العربية ـــ ومن أناس محترمين فى نظرى تماما ـــ تتحدث عن ظاهرة كونية حدثت هكذا والمطلوب هو بحث أسباب حدوثها واستقصاء جذور الموضوع كله .

إن نجاح كارتر بالتأكيد لم يكن ضربة حظ أصيب بها السيد جيمى أو سوء حظ لازم السيد فورد . لو كان عندنا (مركز) واحد أو هيئة واحدة فقط فى عالم عربى شاسع وغنى وخطير ، بل يكاد يكون صانع الأحداث الأول فى عالم اليوم ، لو كان لدينا فى عالم كهذا مركز كذاك ، لعرفنا ومنذ زمن أن فورد لن ينجح ، وأن التغييرات التى سبقت وصاحبت عملية انتخاب الرئيس الأمريكى ، بل ومنذ حكاية ووترجيت وعزل نيكسون ، لعرفنا وأدركنا أن دفة الأمور تتغير ، وأن اليد تتدخل دائما لتغيير دفة الأمور فى اللحظة المناسبة ـــ كما حدث عند اغتيال كيندى ـــ قد بدأت تعمل فى اتجاه يحتم نجاح كارتر والحزب الديمقراطى . .

وأنا لا أزعم أنى دارس أو متبحر أو حتى أملك واحدا على مائة من قدرة أى مركز دراسات أو أى كاتب متخصص فى السياسة وتبحر فيها ، فى الواقع أنا أسمى معلوماتى السياسية وبالذات عن المسائل الخارجية ،

أسميها بينى وبين نفسى على الأقل معلومات وتحليلات أحيانا لا سند لها من الواقع ولا أستشهد فيها بأقوال أو وقائع ، وإنما هى فى حقيقة أمرها خواطر فلاح مصرى يفكر فى السياسة العالمية فى وقت أصبح التفكير فى السياسة مسألة علمية لا يقوم بها أبدا شخص أو مكتب وإنما أجهزة رهيبة كاملة متكاملة وحسابات إلى أبعد من أبعد مدى .

* * *

الواقع أنى حين كنت فى الولايات المتحدة فى الخريف الماضى سعيا لفرض نفسى على مراكزها الطبية ، ورغم أن مستشفى البحرية الأمريكية ـــ أرقى مركز للعلاج فى العالم ـــ اعتذر عن قبولى كمريض باعتبار أنهم لا يعالجون إلا من يخدم علاجه السياسة الأمريكية فى المنطقة التى جاء منها ، فى الحقيقة لم يغضبنى أبدا هذا الموقف ، فمراكز العلاج فى الدول الشيوعية أيضا لا تقبل أن تعالج فى مستشفى الكرملين مثلا إلا من يخدم علاجه الجبهة الاشتراكية أو الشيوعية فى العالم .. أو فى تلك البقعة من العالم . لم آخذ المسألة بطريقة عاطفية لسبب أنى أدرك بعمق أننا لا نحيا فى عالم رومانسى حالم شهم يقدم العلاج للمحتاج بصرف النظر عن رأيه أو دينه أو مبدئه . عوالم صادقة تماما ـــ وحتى صريحة جدا ـــ مع نفسها ومصالحها . من معى أو ينفعنى أعالجه أو أعطيه . ومن ليس معى أو لا يفيدنى فمن الحمق أن أضيع معه وقتى أو جهدى أو مالى .

المهم . فى ذلك الخريف تصادف أيضا أن كانت تلك الزيارة ذات الدلالة العظمى التى قام بها الرئيس السادات للولايات المتحدة . زيارة لم

تأت من فراغ ولم يكن مفروضا أن تؤدى إلى فراغ ، ففى كل حديث للرئيس الأمريكى فورد أو للدكتور كيسنجر مسألة النجاح الأمريكى فى حل مشكلة الشرق الأوسط تقدم كالمؤهل رقم واحد للفوردية الكيسنجرية ومن قبلهما النيكسونية . كانت تقدم وكأنها أهم من مشكلات التضخم وازدياد البطالة أو سياسة الوفاق ذلك أنها لم تكن تقدم إلى (جماهير) الشعب الأمريكى ، وإنما كانت تقدم إلى من هم أهم من مجرد كونهم جماهير .. إلى (صناع) الرأى العام الأمريكى .

* * *

ولنتوقف قليلا عند نقطة الرأى العام هذه ، أو رأى رجل الشارع .. فالكثيرون منا ومن غيرنا يأخذونها دائما وكأنها قضية مسلم بها ، وما دام رأى رجل الشارع كذا أو رأى الجمهور كذا فلا بد أن هذا هو الحق . لا أحد جرؤ فى حياته أن يتهم الرأى العام بالخطأ أو الخطل ، إنما الكل إذا وصلت المسألة إلى الرأى العام ، يسجد منطقيا ويؤمن على صوابية الرأى العام (إن جاز هذا التعبير) ذلك لأنه دائما رأى الأغلبية العظمى من أفراد الشعب ، وما دامت الديمقراطية هى حكم ورأى وسياسة الأغلبية (مع الاحترام الواجب طبعا لرأى الأقلية) فدائما هذا الرأى العام السائد هو الصواب .

وإذا كان لنا أن نعرف عدونا حقا فمن الواجب أن لا نعرفه فقط لنفسد خططه وإنما فى أحيان لنتعلم منه ، ولا بد لنا هنا إذن أن نسلم أن اليهود كشعب وكسلالة كانوا — باعتبارهم فى أى مجتمع يكونون هم الأقلية — أدركوا أن قوتهم عمادها سلاحان رئيسيان : المال ..

والرأى .. أو الدولار والفكرة . إذا كنت أغنى من فى مجتمعك فقط فلن تكون أقوى من فيه ، وإذا كنت أذكى الناس أفكارا فى مجتمعك فقط فستظل قوتك نظرية . أما إذا كنت تملك الفكرة والمال فأنت مالك حينئذ العقل والجسد معا ، أنت فى الحقيقة مالك الجهاز العصبى والجهاز الدورى والباقى كله عضلات وعظام .

وقديما كان ينحصر الفكر فى بعض الكتاب وذوى الرأى ، ثم بظهور الكتاب والمطبعة اتسعت دائرة أصحاب الفكر فى المجتمع ، ثم بظهور الإذاعة والتليفزيون وأجهزة مخاطبة عشرات ومئات الملايين معا وفى وقت واحد وصلت (ديمقراطية) الفكر من الدائرة الضيقة التى كانت محصورة فيها وكانت تصل إلى الرأى العام منقولة (عن) المتحدثين أو عن الكتب والكتاب إلى أوسع دائرة وصلت إليها (الديمقراطية الفكرية) حتى أصبح رجال نساء الشارع يفكرون مع المفكرين ويبدون الرأى مع أصحاب الرأى . ومنذ أخذت هذه الوسائل تتسع وتشمل أعدادا أكبر وأكبر من الناس ، بدأ أولاد أعمامنا اليهود ذوو الذكاء الرهيب الذى تعمل به أى أقلية منضامنة فى أى مجتمع ، بدأوا يدرسون ثم يتقنون ثم يستأثرون تماما (بصناعة) الفكر وقد وصل (أرسطو) الواحد القديم أو (فيثاغورس) المتواضع إلى عصر صناعة الـ mass production of thoughts .

وهكذا صاحب عملية تطور المجتمع الصناعى واتساع ديمقراطية الحكم أى الاتجاه أكده فأكثر إلى أن (تختار) الأغلبية حكامها لتحكم نفسها بواسطتهم .. صاحب هذا باستمرار اتساع قاعدة التفكير

العريضة .

وأى حكم فى الدنيا ، ماذا هو على وجه التحديد ؟ أليس هو عملية أن يختار المواطنون جميعا أناسا أو أفرادا يودعونهم ثقتهم ليحققوا لهذه الأغلبية العظيمة (الأفكار) التى تراودها .

إذن الذى يحكم فى النهاية ليس هو الشعب بجسده أو بوجـوده العضوى ولكنها (الأفكار) التى تسود هذا الشعب ، وتتملكـه ، وتسيره .

بمعنى آخر إذا كنت أنا كأقلية لا أستطيع أن أفرض على المجتمع العريض تمثيلى الجسدى له ، فإنى أستطيع أن أنفذ سياستى أنـا إذا استطعت أن أجعل الرأى العام الشعبى يتبنى أفكارى أنا ويسير بها .

من أجل هذا نلاحظ أن تركيز (أبناء عمومتنا) كان فى القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر وحتى العشرين يلجأون إلى الحكام والملوك ليكونوا مستشاريهم وصناع أفكارهم .

وما قصة يوسف الصديق وعمله وزيرا لمالية فرعون تمهيدا لجلب قومه إلى مصر بغريبة (أو حتى بعيدة) ، نلاحظ أنه بانتقال السلطة تدريجيا من أيدى الملوك الأفراد والزعماء الأفراد إلى أيدى المجموعات الحاكمة التى بدأت تتكون مثل مجالس اللوردات ثم مجالس الشيوخ ومجالس النواب .. الخ .

ولا نجد فى التاريخ الحديث مثلا أوضح مما حدث فى الولايات المتحدة لهذا (التسيد) ، على خزائن المجتمع دولاراته من ناحية ومن ناحية أخرى على عقول هذا المجتمع أو بالضبط على أفكاره .

ولهذا أنا أرى أن (فضيحة) ووتر جيت لها وجه آخر مختلف تماما عن كل ما سبق فى تحليلها . وإليكم ، فى رأيى ، المتواضع ، الساذج كما سبق وحذرت ، ما حدث .

عقب الحرب مباشرة والمآسى التى حدثت ليهود أوروبا ولألف اعتبار آخر ساد الحزب الديموقراطى الحياة السياسية الأمريكية ، ذلك لأنه الحزب الذى لا يمثل الرأسمالية الأمريكية القحة ، وإنما هو فى حقيقة أمره يمثل الأقليات الرأسمالية — وأكبرها طبعا الرأسمالية اليهودية — المتحالفة معه والمرتبطة بأقسام كبيرة من الرأسمال الأمريكى — حزب فى ظاهره يبدو أكثر تحررا وأكثر شعبية ولكنه الحزب الذى تحظى الدوائر اليهودية التى أخذت تتبلور بعد قيام إسرائيل — على هيئة دوائر صهيونية علنية أو شبه علنية تحظى داخل هذا الحزب بأكبر اعتبار .

ولقد ظل هذا يحدث إلى أن تورط الحزب فى حرب فيتنام (التى بدأت فى عصر كيندى) وكاد يتورط فى حرب عالمية (حادثة خليج الخنازير مع خروشوف وكوبا) ثم التأييد المطلق الأعمى لإسرائيل ضد العرب فى الشرق الأوسط .

وحين طال المدى وفتشت الرأسمالية الأمريكية ومن ورائها الطبقة المتوسطة والعاملة فى أمريكا فى دفاترها فوجـدت أنها تخسر بهذه السياسات الخارجية عمياء التعصب على طول الخط (بينما — وهذا هو المضحك ، سياسة داخلية أكثر تحررا ساعدت هذه الفئات نفسها على اكتشاف الحقيقة) حينما فتشت ووجدت أنها تخسر ، خاصة والرأسمال اليهودى ورأسمال الأقليات بعيد عن استثمارات البترول التى بدأت تخسر

عباب الخط البيانى صعودا إلى القمة . حينما بدأت تنتعش هذه الرأسمالية الأمريكية القحة وتحاول أن ترى الأمور من وجهة نظر مصالحها هى الخاصة نجح نيكسون الجمهورى — ضد منافسه الديمقراطى رغم حصول منافسه على تأييد الدوائر اليهودية قاطبة . وجاء نيكسون إلى الحكم ، وفى نفس الوقت الذى لمع فيه نجم كيسنجر كمفكر يهودى هذا صحيح ، ولكنه ليس متعصبا ذلك التعصب الذى يجعله لا يفكر إلا لما تحت قدميه ، فأمريكا تحمى يهودها ويهود إسرائيل إذا كانت قوية وقادرة على هذا الحمل ، أما أن تظل تحمل ما فوق طاقتها حتى لو كانت الدوائر الصهيونية هى الراكبة فسوف تنهار أمريكا وينهار معها ما تحمله فوق كتفيها . كان المطلوب إذن ليس إنقاذ أمريكا ورأسمالها القح فقط ، ولكن إنقاذ الرأسمالية العالمية نفسها ، تلك التى كانت تدفعها سياسة الديمقراطيين بقيادة الصهيونية لسياسة عنيفة تجاه روسيا والمعسكر الشرق وتجاه العالم الثالث وبالذات تجاه العرب .

وفعلا ، انتهت المواجهة تماما فى فيتنام ، ووقعت اتفاقيه سيناء فى الشرق العربى ، استفاد الرأسمالى الأمريكى من المقاطعة البترولية ورفع الأسعار إلى درجة ركعت الرأسمالية اليابانية والألمانية والأوربية وبالتالى الرأسمالية فى العالم كله بما فيه خلفاء ديجول وأمسك الرئيس الأمريكى لأول مرة منذ أمد طويل بمقود السفينة الرأسمالية كاملة .

وسمى الناس ماتم إسفينا حدث بين اليهود الأمريكيين وإسرائيل وبين أمريكا السلطة والدولة والرأسمال ، وسموه سياسة التوافق ، وسموه أشياء كثيرة ، إلا أن اسمه الحقيقى كان بداية عهد أن تقود الرأسمالية الأمريكية

القحة الولايات المتحدة والعالم الرأسمالى كله ، لمصلحتها ، وبصرف النظر إن تضامن هذا أو تناقض مع الأقليات الرأسمالية الأخرى وعلى رأسها الرأسمالية اليهودية .

* * *

وهنا دق ناقوس الخطر .

فمعنى هذا أن تستقل السياسة الأمريكية أو بالأصح رجال السياسة عن التوجيه السياسى والفكرى للدوائر الصهيونية العالمية ، والأمريكية بالذات .

ولهذا فكان مطلوبا وبسرعة حل (بحجم) — على رأى إخواننا الشوام — أولا الرئيس الأمريكى .

للتمهيد ثانيا (لتحجيم) الجمهوريين الرأسماليين الأمريكيين القح .

ثالثا وبسرعة إنهاء حالة وحلاوة وثمار استقلال الرأسمالية الأمريكية عن أى نفوذ يهودى ، وهذا لا يكون إلا ليس فقط بالتحجيم دائما بإزاحة الحزب الجمهورى كله من الحكم ، لعودة حكم (الجبهة) ، تلك التى تستطيع الدوائر المذكورة أن تلعب وبسهولة وخفة يد عظمى فى مياهها حتى لو كانت رائقة كمياه البيسين .

و (فضيحة) ووتر جيت لن يذكرها التاريخ ، إذا كان جادا حقا كتاريخ ، إلا كنكتة .. نكتة هائلة الضخامة ضحك بها ليس فقط على شعب كبير عظيم ذكى مثل الشعب الأمريكى ولكن على عالم كبير وذكى مثل عالمنا المعاصر .

* * *

صحيفة الواشنطن بوست هى أهم مصنع صحفى تصنع فيه الأفكار .

وآه من عملية أن (تصنع فكرة) .

الأمر ليس فهلوة كما تعودنا أن نفعل هنا ، وليس لعب عيال كما تفسر بعض الحكومات حقائق دامغة فى بعض الأحيان . الأمر هنا أمر ذكاء مفرط ودقة متناهية ــ وعلمية شديدة ــ داخل فيها علماء اجتماع ورجال دين وممثلات سينما ودهاة مخابرات وخبراء فى كل فرع ولون وملة .

ولهذا لم يكن صدفة أبدا أن الذى بدأ (فضيحة) ووتر جيت صحفيان شابان من صحفيى الواشنطن بوست أصبحا الآن أشهر صحفيين أمريكيين بطبيعة الحال .

بقى يعنى أمريكا التى يغتال فيها رئيسها كيندى وتؤلف لها ألف لجنة وتحقيق لا تستطيع العثور على القاتل الحقيقى أو القتله الحقيقيين وراء الحادث والتى يغتال فيها مارتن لوثر كنج وأيضا لا يعثر لقاتله على أثر . أمريكا التى صعدت الجريمة إلى عصر الفضاء والمعجزات ، وأصبحت المافيا فيها فى مستوى علم وأسرار الطبيعة النووية وفيها من يستحقون ــ بجدارة ــ جائزة نوبل فى الإجرام . واسمحوا لى هنا أن أستطرد بمناسبة جائزة نوبل التى منحت للكاتب اليهودى الأمريكى (سول بيلو) ، والذى حين دعتنى جامعة شيكاغو عام ١٩٦٦ لأكون (كتابا زائرا) فى قسم الشرق الأوسط كان هو فى نفس الوقت يعمل كاتبا أمريكيا زائرا فى كلية الآداب بنفس الجامعة ، وحدث أن التقينا عند

الأساتذة ودعوته على العشاء (أنا الذى دعوته والله ، مع أننا كنا فى أمريكا) ، وخلال الساعات الست والثلاثين التى كانت لا تزال أمامى ليحين ميعاد الدعوة حاولت أن أعرف عنه شيئا من خلال إنتاجه ، فذهبت إلى مكتبة الجامعة واستعرت الروايات الخمس ــ وقد كانت كل ما كتبه حتى ذلك الوقت ــ وبدأت قراءتها وفى ذهنى الأطار الذى أدخله فى روعى الأستاذ الذى عرفنى به حين قدمه لى باعتبار أنه (أحسن كاتب روائى أمريكى) ، أقرأ وأذهل ثم أغلق الكتاب وأعود أقرأه ، أتناول قصة أخرى . أكرر المحاولة لا لمحة عبقرية واحدة ألمسها ، قصة قصيرة واحدة لهيمنجواى ، بل رواية لفرانسواز ساجان أعظم بكثير من هذا الكاتب ذى الروح الميتة التى يحاول أن يصور بها بطلا واحدا خلال القصص الخمس ، يهودى وحيد ضائع وأحاسيسه التى لا تريحك أو حتى تستثير شفقتك ، عالم شاحب لا تخترقه شهابة انفجارة أو مفاجأة إحساس ، وأقسم أنى جاهدا ومخلصا حاولت أن أركز كل طاقتى وأقرأ له رواية كاملة وكأنها واجب مدرسى ، ولم أستطع أبدا أن أتمها . ولكنى أيضا لم أعجب أبدا أو أندهش حين نال جائزة نوبل ــ لنفس هذه الأعمال ــ لهذا العام ، فهو كاتب ويهودى وأمريكى . وجائزة نوبل جائزة داعرة يمنحها داعرون سياسيون باسم الأدب وكل ما فيها إما مسخر لإذكاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، وإما لجعل أكبر عدد ممكن من (علماء) اليهود ، أمريكيين أو غير أمريكيين ينالونها . ولنراجع معا من فاز بها ولماذا خلال الأعوام العشرين الأخيرة ؟ إن ما أزعجنى حقا أن الصناعة الغربية كانت دائما متقنة ، حتى الصناعة

المغشوشة منها كانت متقنة .. أما أن يأخذ سول بيلو الجائزة وفى العالم مارلو وجارثيا وألان روب جرييه وليوبولد سينجور وجنتر جراس والبى ومنك راخ أناند وعشرات غيرهم فى أمريكا اللاتينية وتركيا واليونان وحتى فى عالمنا العربى أستطيع على الأقل أن أعد عشرة من الأحياء يتوارى أمامهم كل ما كتبه مستر بيلو خجلا . ولكنها جائزة لم تعد تخفى وجهها ، فهى بصفاقة غريبة تطل من باب (الأدب) وتقول : صهيونية أنا والأفضل عندى دائما هو اليهودى السامى . وكأنها تحرض العالم ليصبح كما يودون وكما يصورون : ضد السامية . ولكن لحسن الحظ فالعالم أرق من هذه العقول التى تؤجج الأحقاد والنعرات العنصرية . وتحت شعار — يا للوقاحة — القيم الإنسانية ومحاربة العنصرية .

وأيضا ، ما علينا ..

السؤال هو : هل لو كان أصحاب الواشنطن بوست أو المشرفون على تحريرها ، ثم الموجهون لجرائد وتليفزيونات ومحطات الإذاعة الأمريكية والنوادى وقاعات المؤتمرات والمحاضرات ، باختصار صناع الرأى العام ، هل لو كان هؤلاء لا يريدون لووتر جيت أن تكون أيمكن أن تكون قد حدثت ؟ هؤلاء الذين تغاضوا عن اغتيال رئيس بأكمله ، وأكبر زعيم زنجى بأكمله ، أكان سيؤرق ضمائرهم كثيرا أن يتغاضوا عن أن رئيسا (أمر) بأن يستمع بعض مساعديه إلى مكالمة تليفونية يجريها أفراد الحزب المنافس ؟ ياسلام على الضمائر الحساسة ، وبالضبط عند اللزوم ! والنتيجة : بره ياأستاذ نيكسون وبفضيحة مدوية . بره لأى رئيس

أمريكى يحاول أو يفكر أو يجرؤ مرة أخرى أن ينفرد ، حتى لو كان يمثل فعلا مصلحة أمريكا الرأسمالية الحقيقية ، باللعبة .

وليس هذا فقط فعلى الكونجرس الذى آلت إليه أجزاء كبيرة من مسئوليات رئيس الجمهورية بعد طرد نيكسون ، أن يحذر هو الآخر . ففضائح الجنس ومعداتها جاهزة ، وممكن حتى أن يحاسب على رأى الكاتب الساخر بوكوالد ؛ على « الزنا بالنظر » فالرأى العام قد تنبه ، وتنبه إلى أن الذين يحكمونه لا بد أن يكونوا (أطهار) . هذه (الفكرة) هى عينة واحدة من عينات (صنع) أفكار الرأى العام وخلق محظوراته و (تابلوهاته) .

وكان النفخ فيها والتضخيم أمرا لا مفر منه لأن الهدف لم يكن التخلص من رئيس جمهورى كنيكسون بدأ يصنع علاقات مباشرة مع الـ (الأعداء) السابقين الصين وروسيا والعرب ، فإن سريان الماء مباشرة بين البيت الأبيض أو حتى بين الكونجرس وبين بكين وموسكو والقاهرة والرياض والجزائر وبغداد والكويت مسألة مخيفة قد تجعل المؤسسة الأمريكية تستغنى تماما عن هذا السمسار النيويوركى الذى لا يزدهر إلا بالمضاربة والمواجهة وازدياد التوتر وخلق عداوة صليبية (تخيف) الأمريكيين دائما وتجعلهم باستمرار أسرى الأفكار التى يصنعها لهم صناع أفكار الرأى العام الأمريكى ، وبالذات الدوائر الصهيونية المسيطرة سيطرة شبه كاملة على أجهزة توجيه الرأى العام .

سابقا كانوا يحكمون عن طريق الملك المطلق إذا كان هنالك ملك مطلق .

إذا جاءت الرأسمالية والديقراطية يسيطرون على الأحزاب بدعوى الاشتراكية العالمية (الشيوعية) مرة ، والاشتراكية الديمقراطية العالمية (الأشتراكية) مرة وحتى الاشتراكية الوطنية (التى يسمونها الأفكار الفاشية والنازية) .

ولكن أعلى تلك المراحل على وجه الإطلاق ، هو ما حدث فى أمريكا ، فمادام الذى يقرر من يكون السناتور ومن يكون الرئيس هو الرأى العام المكون من الناخب العام والمواطن العام ، فليكن الهدف على وجه التحديد هو (صياغة) الرأى العام كما نريد وندعو ، هو بعد هذا يختار الأشخاص الذين ينفذون هذه السياسة وتلك الأفكار فهى أفكارنا وسياستنا .

ومن المؤسف أن عصر ازدهار أجهزة الاتصال الجماهيرية الواسعة يحتم بالضرورة (لأنه أيضا عصر الإنهاك العصبى المستمر والاستنزاف الفكرى) ازدهار الأفكار الوقتية والسهلة والمتداولة وغير الشخصية وغير العميقة وغير المدروسة ، بحيث أن (صناعة) الأفكار لم تعد تقتضى التمعن والعمق وإنما أصبحت تتطلب أن تكون (كبيرة ولذيذة) ، و (سهلة على العقل وسهلة على المعدة) أسهل أن تروج أن أمريكا فى خطر وأن الشيوعية تزحف وأن لا بد من تقوية الكنائس والأديان لمواجهة خطر الإلحاد الماحق والوفاق مصر وإسرائيل هى معقل الديقراطية بين عرب أثرياء سفهاء ينفقون بتهور ويكنون لنا العداء .

وهكذا كان لا بد أن يذهب نيكسون والجمهوريون ، ويأتى كارتر والديمقراطيون . كان عظيما جدا لو جاء كارتر والديمقراطية ، ولكن

المؤسف أن الديمقراطيين فى أمريكا الخارجية رجعيون تماما ولا علاقة لهم بديمقراطية الداخل .

ولهذا فإشفاقا على العالم مما قد تورطه فيه سياسة خارجية أمريكية ، إشفاقا على العالم من حرب المذاهب الوهمية التى يروح ضحيتها بشر حقيقيون أثمن فى رأيى من أى مذهب ، إشفاقا على منطقتنا العربية بالذات أن تعود إليها أمريكا الهراوة والانحياز الأعمى ، إشفاقا على العالم من سياسة لا يراد لها فى النهاية إلا مصلحة خبثاء يستغلون فكرة وفلسفة شعب الله المختار وأرضه المختارة نفسها أتمنى لو تصل أفكارنا نحن ، وضرورى هناك طريقة لكى يعرفوا هناك ما يدور فى رؤوسنا نحن ، فمجيء كارتر هذه المرة قد يكون صعودا بالرئاسة الأمريكية إلى عهود روزفلت المجيدة أو هبوطا بها إلى عهود جونسون غفر الله له .

إن مفترق الطرق هذا فى حاجة إلى وقفة طويلة ، خاصة من أولئك الناخبين حسنى النية الذين جاءوا بكارتر فى سبيل حكم أفضل ومنطق أسمى من منطق القوة الغاشمة وذمم أنظف بكثير من تلك التى تحاسب رئيسا لأنه تسمع على خصمه ولا تحاسبه لأنه قتل عشرات الآلاف من الأبرياء فى فيتنام وذبح عشرات من أخلص الخلصاء فى شيلى وغيرها .

مفترق طرق نعم ، لأمريكا ، وللعالم ، وبالذات لهذا الجزء العربى من عالمنا .

وهذا .. أو الجهجهون .

* * *

ومعذرة لقد نسيت .. إلى الأسبوع القادم يا مستر ميلر .. ويا مارلين مونرو ..



محور نيكسون ــ يونس

مثل مارى أنطوانيت وهى تساق إلى المقصلة وقف (بطل) الساعة أحمد يونس فى مجلس الشعب يصرخ : لماذا أنا وهناك احتلال إسرائيلى لسيناء لماذا أنا وهناك مذابح فى لبنان . لماذا أنا وهناك أزمات المواصلات والمجارى والتليفونات .. وهناك أعاصير رهيبة فى الصين وزلازل فى الفلبين ، لماذا أنا بالذات ؟ .

والحق أنى حين أمعنت النظر فى صورة الرجل وهو يهتف بهذا الحق وجدت أن ملامحه تنطق بكلام آخر تماما ، إذ كان وكأنما يريد أن يقول : لماذا أحمد يونس وفى البلد آلاف من أحمد يونس وأكبر بكثير من أحمد يونس .. لماذا على رأسى أنا وحده أن يطير بينما الرؤوس يانعة وكثيرة وتعج بها البلد وفى حاجة ماسة إلى ألف أبى حجاج ثقفى ، وقد حان قطافها ، أن يقطفها .

ولكنه لم يقل هذا بالطبع ، فهو لم يصل بعد إلى مرحلة اليأس الكامل : ولم يقرر هدم المعبد ويقول : على وعلى أصدقائى . إذن فالأمل لا يزال يداعبه أن ينجو بالذات تنجية هذه الرؤوس نفسها ، أو إذا عاقبته فليكن بنقله من الاتحاد الزراعى التعاونى إلى الاتحاد الصناعى التعاونى مع لفت نظره إلى (ضرورة مراعاة ذلك مستقبلا) !

والحق أن هذه ليست أول مرة أرى فيها صورة ، لبطل يناشد الأرض

والسماء (العدالة) .. منذ عامين ربما رأيت صورة للرئيس نيكسون فى اللحظة التى قرر فيها أن يستقيل ويغادر البيت الأبيض إلى الأبد يعانق زوجته ، وينحنى ليضع رأسه (المتعب تماما) فوق كتفها ، ولا يبدو واضحا أنه كان يبكى ، ولكن المؤكد أنه كان يفعل شيئا أتعس من البكاء ، ولا بد أنه هو الآخر كان يقول : ولماذا أنا وكل الرؤساء فعلوا هذا ، كل رئيس حزب فى التاريخ تجسس على خصومه ، كل غنى حاول التهرب من الضرائب ، كل متنافس استحل لنفسه أن يتبع أى طرق وأحط طرق للفوز على منافسه .

فلماذا أنا . لماذا وهناك مشاكل الشرق الأوسط والأدنى ، لماذا وهناك سياسة الانفتاح مع روسيا ، لماذا ومصير أمريكا كله معلق فى يدى أنا ، لماذا بالذات ، ولماذا ووتر جيت بالذات وكل مكان فى أمريكا قد شهد ووتر جيت بطريقة أو بأخرى ؟ .

والحق أن محور « يونس ــ نيكسون » دفعنى للتفكير طويلا فى هذا الأمر ، خاصة بعد أن انضم إليهما السيد المحترم (تاناكا) رئيس وزراء اليابان الأسبق (وعضو الحزب الحاكم الحالى) ، وقد ضبط (هابرا) ــ أرجو أن تكون هابرا صحيحة لغويا ــ مليون ونصف مليون دولار من شركة لوكهيد ، ثم انضم إلى النادى ذلك الأمير زوج ملكة هولندا وأسماء كثيرة أخرى عالمية الشهرة بدأت تتسرب إلى الصفحات الأولى فى الجرائد العالمية المحلية باعتبارها من نجوم (فضيحة شركة لوكهيد ــ وقادتنى أفكارى إلى حكاية (الفضيحة) هذه كيف (تسربت) أخبارها إلى الصحافة الأمريكية والعالمية ، وأى قوة فى العالم

ممكن أن تضبط حالة رشوة بهذه الطريقة ثابتة المستندات وكأنها جاهزة للتقديم عند الحاجة إليها . أهى سذاجة منقطعة النظير من شركة هى بالتأكيد أضخم وأدق شركة لصناعة الطائرات ومحركاتها فى العالم ، أم أن للمسألة وجها آخر مختلفا تماما فى رأيى عن كل هذه المسرحية التى تدور فصولها على مسمع ومرأى من العالم .

* * *

ولكى نتتبع خيط أحمد يونس وقصة الاتحاد الزراعى التعاونى لا بد أن نبدأ من ووتر جيت .. والحق أن هناك وجهات نظر كثيرة ومختلفة فى حكاية نيكسون ووتر جيت هذه ولكننى أميل إلى الرأى القائل أن الدوائر الصهيونية التى تسيطر على دور الصحف والنشر والتليفزيون والإعلام فى أمريكا لما شعرت بتحلل الرأسمالية الأمريكية الضخمة متمثلة فى الحزب الجمهورى والرئيس السابق نيكسون ورغبتها فى التخلص من المائة فى المائة تأييد لإسرائيل ومعاداة للعرب ، هذا غير الإجراءات الداخلية المتمثلة فى المحاصرة الاقتصادية لوكر الرأسمالية اليهودية فى نيويورك ، أرادت أن تضرب عصفورين بحجر واحد ، أن تلقى درسا رهيبا على كل الرؤساء الذين يفكرون فى (الاستقلال) عن المؤسسة الصهيونية الأمريكية من ناحية ومن ناحية أخرى تنقل مركز اتخاذ القرارات من الرئيس ومجلس الأمن القومى إلى مجلس الشيوخ والسناتورات باعتبار أنهم أكثر قابلية للتأثير عليهم بواسطة الناخبين الذين توجههم وسائل الإعلام المختلفة التى تخضع بالتالى للنفوذ الصهيونى بل إن هذه الدوائر الصهيونية لم يكفها إرهاب الرؤساء على هيئة رأس

الذئب الطائر « نيكسون » وإنما تلفتت إلى أعضاء الكونجرس أنفسهم ترهبهم بالفضائح الشخصية وبالاتهام بالعلاقة بالسكرتيرات بل ودس سكرتيرات جميلات (يوقعن) السناتورات الذين معظمهم فوق الخمسين ويصبحن وسائل ضغط وإرهاب مسلطة على هذا السناتور أو ذاك بحيث من الممكن استخدامها وقت الحاجة .. ووقت الحاجة دائما ما يجىء ، ولا زلنا كلنا يذكر كيف أن الكونجرس الأمريكى هو — وليس فورد — الذى أصر على رفع الإعانة إلى إسرائيل وأجبر الحكومة على رفعها .

ولكن هذا كله ليس المهم فى فضيحة ووتر جيت ، فأخطر من هذا كله أن الفضيحة تحاكم الرئيس ، ومن بعده السناتور أو غيرهما . محاكمة أخلاقية فقط .

بمعنى أن الصحافة والرأى العام الأمريكى بدلا من أن يحاسب نيكسون أو غيره على دوره فى فيتنام مثلا أو دوره فى حرب أكتوبر أو دوره فى مذبحة شيلى أى دوره — السياسى الأخطر بكثير جدا من أخطائه الأخلاقية أو الشخصية ، يحاكمه على تلك الأخطاء الشخصية فقط وذلك بهدفين خطيرين جدا : الهدف الأول أن يبرىء (النظام) السياسى نفسه من أية تهم سياسية أو أخلاقية . بمعنى أن النظام مضبوط تماما ولا عيب فيه مطلقا إنما العيب هو فى (بعض) الأشخاص وحتى ليس فى بعض الأشخاص — كسياسة أو كسياسيين — ولكن فى بعضهم كنقط ضعف أخلاقية فقط — الهدف الثانى أن يخلق لهذا النظام الفاسد غطاء رائعا براقا ، غطاء ديمقراطيا جميلا حرا ، أو تريد أكثر من أن يستطيع أى

نظام أن يقبل رئيسه ؟ أليس هذا مهرجانا للحرية والديمقراطية وقوة تأثير الرأى العام ووسائل الإعلام ؟ .

وليس إذن (تبرئة) للنظام كله فقط من كل الجرائم والأخطاء السياسية والاقتصادية والإنسانية حتى وإن كان الثمن التضحية بكبش فداء ولو كان رئيسا للدولة أو رئيسا للوزراء ولكنها تبرئة مصحوبة (بزفة) هائلة من باب المحكمة إلى باب البيت حافلة بالرقص الديمقراطى العظيم وإطلاق بالونات الحرية وضرب النار فى الهواء أو فى بطون الأمهات فى بيروت ، آخر مولد للحرية واستنبات هائل لإيمان جديد يترعرع لنظام هو أعلى ما وصلت إليه البشرية من مستوى فى العدالة والحرية .

* * *

ومن مميزات النظام الرأسمالى فى العالم كله ، وفى الولايات المتحدة بشكل خاص أنه نظام ذكى جدا ، بارع تماما فى الاستفادة من أخطائه ومن اكتشافاته .. وهكذا فلم تكن ووتر جيت وسيلة فقط لخلع رئيس بدأت شكيمته الأمريكية القحة تقوى ، وتأديب سناتورات كانوا فى طريقهم للتمرد ، وإنما أيضا ، وهذا هو المهم ، كان اكتشافا أمريكيا رائعا جدا ليس فقط لتبرئة النظام فى أمريكا ، ولكن لتبرئة الرأسمالية فى العالم كله والدفاع عنها .

كانت قضية حدثت دون وعى كامل بأبعادها : ولكن بعد حدوثها ، اكتشف أنها ممكن استعمالها كدواء سريع عاجل وكأحدث صيحة لإطالة عمر الأنظمة الحاكمة المتهرئة الدائرة فى الفلك الرأسمالى

المهيمن على عالم اليوم : إن « الووتر جيتية » هى أحدث الطرق لإخفاء عيوب النظام بإظهار عيوب بعض أفراده .

وهكذا بدأت (فضائح) لوكهيد (تتسرب) ، و (تتهم) رئيس وزراء هنا وأميرة أو أمير هناك ، وفى سبيل إنقاذ حزب الديمقراطيين الأحرار ونظام الحكم فى اليابان ما المانع من الإطاحة بسمعة ورأس السيد تاناكا ؟ .

كنت أفهم أن يقوم مجلس الشعب ولا يقعد لأنه يناقش ليس فقط سياسة الاتحاد الزراعى التعاونى ولكن يناقش لماذا قام وماذا يفعل وماذا فعل للفلاحين أو للمزارعين أو لحركة التعاون فى مصر ؟ . أما أن يقوم مجلس الشعب ليناقش إهداء عربة شيفروليه لرئيس مجلس الشعب الأسبق أو غير هذا من التصرفات فصحيح أنه عمل خطير كان المفروض أن تقوم به النيابة العامة ومن زمن بعيد — وهذه هى الشطارة أو الحق أو العدل إن كان هناك وجود للشطارة أو الحق أو العدل ، ولكن دور مجلس الشعب أن يناقش « ماهية » الأشياء وسياستها ودورها وفاعليتها ، أن يناقش نفسه حتى والنظام الذى يسمح لأعضائه أن يتقاضوا مكافآت من زملائهم الذين يتحملون مسئوليات فى الدولة ويزاملونهم .. كنت أفهم أن نقوم جميعا لتناقش الأسباب التى تؤدى فى المجتمعات إلى أن يفرخ أمثال أحمد يونس والمغربى والمئات ، وسيظل يفرخ أمثالهم وربما من هم أكثر جشعا وخراب ذمة .

* * *

لبنان هو البداية ..

وبعد ..

هذا هو لبنان قد قسم أو هو فى الطريق ، ومع هذا لا تزال الدماء وبوعورة تسيل .. هاهم المسيحيون سيستقلون (بإسرائيل) المارونية الجديدة ، وها هم المسلمون سيستقلون (بإسرائيل) السنية الشيعية الدرزية الجديدة .. فهل هذه هى النهاية ؟ وهل ستكف الحرب مستقبلا بين المارون والأرثوذكس ، وبين اللبنانيين المسلمين والفلسطينيين ، وبين السنة والشيعة والدروز — وهل إذا كفت الحرب فى لبنان ستكف فى مسقط أو عمان أو الصحراء أو السودان ؟

أما آن الأوان أن نفيق قليلا أو نرفع رؤوسنا الممتلكة خدرا وحربا وطموحات وأحقادا وأدرانا ونتساءل : أليس هناك طريق آخر ؟ إن لبنان قد يبدو النهاية ولكن الحقيقة المرة أنه ليس سوى البداية والطريق أكثر وعورة مما قد يتصوره بعض حسنى النية . بل لا أبالغ إذا قلت إن المشكلة الفلسطينية برمتها ، مشكلة اغتصاب قطعة من قلب الأمة العربية والاستعداد للزحف على بقية الأجزاء أيضا ليست سوى مقدمة متواضعة لما ستتمخض عنه الأيام .

أعتقد أنه قد آن الأوان لنرفع رءوسنا المخبأة ونجابه بعض الحقائق ، أولها : حقيقة ما تكشف لنا وللعالم كله الآن ، أننا شعب عربى كبير هذا صحيح ، ولكننا فكريا أفقر الشعوب ومع هذا فنحن نعيش فوق أغنى كنز اكتشفته البشرية فى كل تاريخها القريب والبعيد .. نحن أفقر الناس نحيا فوق أغنى أرض ، وليس القياس فقط بالقيمة النقدية لهذا الكنز إنما

القياس بأهمية هذا الكنز ليس للبشرية قاطبة وإنما بالذات للنظام الغربى فى العالم كله ، وللصراع القائم بينه وبين النظام الشرقى ، إذ هو كنز الطاقة التى تحرك حضارة العصر الحديث بأكملها . وأنا لو كنت من أمريكا لما حفلت باستعمار العالم عسكريا أو بشن حروب ، يكفى أن أحتكر ثلاثة أشياء تجعل العالم كله يركع تحت أقدامى : القمح أى الخبز أملك سوقه وحق منعه أو إعطائه ، والطاقة أملك حق تخزينها أو توزيعها وتحديد سعرها واستهلاكها ، والتكنولوجيا وبالذات أسرارها العليا . إن من يملك هذه الأشياء الثلاثة يحكم العالم كله وتأتيه أغنى دولة شيوعية أو معادية خاضعة أو متقربة ومن بين هذه الثلاث تلعب الطاقة الدور الأول . فهى التى تزرع القمح وتسير التكنولوجيا وترسل فايكنج إلى المريخ . والطاقة يحيا فوقها العرب ولكى يمكن الاستيلاء على الكنز والتحكم فيه لا بد أولا من الاستيلاء على هؤلاء العرب .. ثانيا : ثبت أن الاستيلاء على هؤلاء العرب مسألة أسهل بكثير من اغتصاب فلسطين أو تحويل إسرائيل إلى ثكنة عسكرية أمريكية تعتبر حاملة طائرات ودبابات أرضية هى — ومعها الأسطول السادس البحرى — كفيلان (بإخضاع) هذا الشعب الراقد فوق أثمن كنز .. جربت السياسة الأمريكية منطق القوة الغاشمة هذا خلال الخمسينات والستينات فكانت النتيجة نوعا من التماسك العربى الذى كاد يؤدى إلى وحدة عربية وعسكرية على الأقل — كانت فى سبيلها لأن تصبح وحدة سياسية — وصحيح انتهت هذه السياسة بانتصار ٦٧ وهزيمة عبد الناصر رمز هذه القوة العربية الصاعدة ، ولكن الهزيمة لم تفرق العرب ، بل جمعهم مؤتمر

الخرطوم و كاد التضامن العربى بعد الهزيمة يؤدى إلى كارثة .
من أجل هذا كان لا بد أن يغير الغرب سياسته و يأتى بالكيسنجرية لتفتح ملفات المنطقة — قديمها وحديثها — وبالذات الملفات الإنجليزية وتتفحصها بعناية فائقة وما أروع ما وجدت الكيسنجرية ..

ثالثها : وجدت السياسة الأمريكوغربية الجديدة أن لا وجود لشىء كبير اسمه أمة العرب طالما صدرت باسمه الصيحات من صوت العرب ، إنما وجدت منطقة موبوءة بالقطرية والعشائرية والقبلية والتناحر الدينى والطائفى والعرقى ، وجدت عشرات ومئات وآلاف من الحزازات الكبيرة والصغيرة أججتها كلها حتى بلغت درجة الجحيم صرخة الثورة السوداء المتفجرة من باطن الأرض ، وبعكس ما فعله الإسلام حين هبط من السماء يوجه العرب ويبنى حضارة عربية عظمى ، ها هو البترول يفعل ما يفعله الشيطان ويتفجر من باطن الأرض ليشتت ويفرق ويخلق دولا فى أشد الثراء وثراؤها فى أيدى قلة ، ودولا فى أشد الفقر وفقرها ملك للكثرة ، وليضيف إلى الصراع الطائفى والعشائرى والقطرى والفئوى صراعا طبقيا ليس فقط بين الطبقات فى البلد الواحد ، ولكن بين الطبقات من دول المنطقة ، صراع طبقى بين الدول والشعوب وبين الشعب الواحد ، بل حتى بين أفراد القبيلة أو القرية الواحدة .

رابعها : ما ضرورة الترسانات المسلحة إذن والأساطيل الأرضية والعائمة إذا كانت النار موقدة وتحت الرماد وإذا كان عود الكبريت الواحد كفيلا بإشعال حرب يقتل فيها من العرب أضعاف ما يمكن أن تقتله إسرائيل أو غير إسرائيل ؟ (العرب) بأنفسهم عندهم الحل ،

وخلافاتهم وحزازاتهم كفيلة بنضح الكنز تماما قبل أن يفرغوا هم من خلافاتهم التى امتدت من أيام الجاهلية إلى عصرنا الحاضر .

خامسها : وحتى لا تحدث الكارثة ويبقى مال العرب فى أيدى العرب وفى بلاد العرب فلنصور لهم أن بإمكانهم أن (يشتروا) الغرب ، أى يصبحوا من أغنياء الدول الرأسمالية الثابته غير المهددة بخلافات وحروب ومصادرات وتأميمات بلاد عربية غير مستقرة .. صحيح أنه مجرد شراء (نظرى) مقابل أوراق نقد مودعة فى بنوكنا نتحكم نحن فى قيمتها ، بل حتى فى قيمة رصيدها من الذهب (خسر العرب حوالى خمسمائة مليون دولار نتيجة التخفيض الأخير فى سعر الذهب) ولكن المال لا يزال مالنا ، والمؤسسات — رغم شرائها — مؤسساتنا ، والمهم أن تبقى النقود بعيدة تماما عن (الأرض) العربية ، وعن (المؤسسات) العربية ، وعن كل ما يساهم فى جعل بلاد العرب للعرب حتى لو أصبحت وقفا على الأغنياء العرب .

سادسها : إن تجربة لبنان أثبتت أن عداء العربى للعربى لا يزال أقوى من عدائه لأعداء العرب ، فلنستثمر هذه التجربة ولأبعد مدى ولتنتشر عدواها من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب ، وإنما حذار من حريق كبير يجتاح المنطقة كلها ، فلتكن الجرعات منتقاة بعناية وبدقة ، وليكن كل حريق موقوت بحيث لا يحترق الكنز ، وإنما ينشغل (أهل) الكنز ، بكل حريق ينشأ ويختلفون ، ويتبادلون التهم ، وينعقدون وينفضون ، ويدب فيهم اليأس من عروبتهم نفسها ويلتفتون إلى الخلاص الفردى ، كل غنى يفكر بالهجرة بأمواله إلى الخارج ، كل تكنوقراطى

يفكر فى العمل فى بلد (متحضر) : فليستنزف المال والذكاء والبترول ولنبق لهم الصحراء والحزازات والفقر يتناحرون حولها :

وبعد ؟!

يا مفكرى العالم العربى .

يا شبابه ..

يا عقلاءه ـــ إن كان قد تبقى عاقل .

ولا أقول أبدا يا حكوماته ..

أرجوكم ..

اعقدوا مؤتمرا ـــ وفورا ـــ لنتدارك الجهنم التى نحياها والجهنم الأكبر التى تجهز لنا ..

* * *

وما أدراك

ما القلق أستطيع إن أقول إنى كنت ، زمان ، أعانى من مرض الاكتئاب .. ذلك لأن الخاصية المضحكة المأساوية للاكتئاب أنك ، الشخص الذى يبدأ يعانى منه ، لا يحس ذلك ، وإنما يغوص فى حالته دون أن يدرى ..

والاكتئاب ليس هو (الزعل) كما هو شائع ومعروف عنه ، ليس هو الميل للحزن والوحدة .. الخ . وإن كانت هذه بعض (أعراضه) . الاكتئاب علميا هو نوع من أمراض (القلق) النفسى ، ويحدث كرد فعل لانواع المشاكل عقلية ونفسية . عقلانية وغير عقلانية .. وأنا حين كنت مضابا بالاكتئاب كان الأطباء حين يذكرون هذا لى لا أجد لكلامهم معنى أو صدى فى نفسى ، فقد كنت (داخل) الحالة ومن يكون داخلها لا يستطيع أن يعرف لحالته سببا ، بل هو لا يدرك أصلا أنه غير طبيعى ، كل ما فى الأمر ، أنه ، بعد أن يشفى يحس أنه فعلا كان دائما متوتر الأعصاب ، يزدرد وكأنما رغما عنه الطعام والشراب ، ويتجرع الحياة اليومية بمرارة ، يقوم ولا رغبة لديه أن يقوم من نومه ، فاتر الهمة تجاه كل شىء . الهدف ، هدفه اليومى ، وهدف حياته أصلا غير واضح مطلقا أمام عينيه ، يتخبط ، تارة تعتريه حالة من المرح الكئيب المبالغ فيه ، وأحيانا يبكى وكأنه حالا فقد أبويه وأصبح طفلا يتيما محاطا

بالظلام الكامل . أحيانا أخرى تعتريه نوبة تمرد هائلة وفعلا ، كالسجين المحاصر حين يحاول الفرار ، يتمرد ، ويرتكب حماقات ، ويشبع نفسه بكمية حقد مفاجئة على شخص ما أو وضع ما ، وكأنه هو السبب فى كل متاعبه . حالات تمرد ومحاولات لإخراج الطاقة العدوانية الكامنة فى كل البشر ، والتى تتحول عند الأصحاء الأسوياء ، إلى طاقة إبداع مثلا أو قهر عاقل للظروف المعوقة أو الأشخاص المعوقين ، أو طموح زائد للوصول إلى مراتب أعلى ، تخرج عنده على هيئة طاقة طفولية محطمة تخربش وتجرح وتبقر بطون الكراسى وأحيانا بطون الناس ..

أعراض كثيرة كثيرة لا حصر لها ، وتأخذ عند كل إنسان طابعا خاصا به نتيجة ظروفه وتكوينه وشخصيته . ولكن دائما هناك علامات مشتركة لدى المصابين بالاكتئاب . خاصة ذلك الإحساس الباطنى الممض الذى وصفه علماء النفس بقولهم إن الشخص المكتئب يصبح هدفه اللاواعى وكأنه يريد أن ينكمش على نفسه ويتحول إلى جنين يعود من حيث أتى إلى رحم أمه . أو باختصار أدق ، يريد العودة إلى العدم الذى خرج منه ، الموت .

جربت كل الأطباء ، هنا وفى الخارج ، وكل عقاقير الدنيا أخذتها ، ولم أشف .. ذلك لأن الحالة كانت أكبر منى وكان الجزء الأكبر منها راجعا إلى القلق العام على مصيرنا ، فكأنه ، القلق بلا حل سريع يحدث فى حياتى وأراه . القلق بلا مخرج .

ولم أكن أعرف أن عقلى العميق جدا يعمل فى اتجاه آخر ، يريد الموت ويطلبه ، حتى أنى كثيرا ما حلمت به ، يأتى رقيقا جميلا كالحلم

الهفهاف ، أحس بروحى تنسحب من الجسد وكأنها قوس كمان تعزف بانسحابها ذيل لحن موسيقى وديع جدا ، محبب تماما ، يرغب لك أن تنتظر النهاية ، نهايته ونهايتك ونهاية الحالة كلها والحصار ، بشغف غير متعجل ولكنه أيضا يستعجل .

وهكذا كان لا بد أن تؤدى بى هذه الرغبة الدفينة إلى أن أواجه الموت الحقيقى ذات مرة ، ليس مرة واحدة فقط ، إنما عدة مرات ، قد أكتبها وتكون قصة ، وقد لا أفعل أبدا ، ففارق كبير بين أن تراه حلما يهيئه لك عقل عميق أحمق ، وبين أن تواجهه واقعا مخيفا ، أبشع ما فيه أنه صامت ، لا صخب فيه ولا ضجة ، كالمؤامرات ، الحياة تخمد ، تحس بها تنطفئ ، ذبالة عقلك تدرك هذا ، ومرعوب أنت إلى النخاع ، ولا تملك شيئا ، من شدة رعبك تنسى حتى من أنت ، وما النهاية ، وتصبح النهاية والموت والرغبات الدفينة أشياء تكرهها إلى درجة تخاف معها أن تموت من شدة ما يضج به جسدك من كره .

وكأنما كانت تلك المواجهة محكمة لا يعلمها إلا هو فقد قربه منى تماما ليرعبنى إلى درجة أن ارتد محبا إلى الحياة بأقوى وأعظم ما أستطيع . كانت حرارة اللقاء كفيلة بإذابة أى صلب وأى ماس وأى اكتئاب ، كفيلة بإشفاء أى قلق واختلاعه من جذوره .

وهكذا ولدت من جديد ، بلا قلق أو اكتئاب .

ولكنه علاج رهيب ، لا أراه الله لأحد ، فأى مرض فى العالم أفضل منه ، بالطبع أفضل من الموت ، ولكم الحق أن تهزوا أكتافكم فأنتم لم تروه ، واحذروا ، فأبشع ما فيه هو الغدر ، غدر يأتى ، وغدر يروح ،

وحتى لا يعطينا الوقت لتبين ملامحه .

ولكن ..

ما هذا الحديث الكئيب عن الموت والقلق والاكتئاب .

سببه فى الواقع أنى بدأت أفزع من ظاهرة الاكتئاب الجماعى المصابة بها قطاعات كبيرة من طبقاتنا المتوسطة والعاملة .

وأيضا لا يزال السؤال الذى طرحته ذات مرة عن إمكانية وجود هذا النوع من المرض الجماعى معلقا فى انتظار إجابات الدكاترة علماء النفس وعلماء الاجتماع . ولكن ما أعرفه بدقة أن تسعة من عشرة من العلماء الذين ألقاهم فى قاهرتنا الحبيبة ، السائرين على أقدامهم أو فوق دراجات أو شاحنات أو عربات ، البائعين والبائعات الشارين والشاريات ، معظمهم يعانون من حالة قلق داخلى إذا كان البعض يدركونه بوعى فالأغلبية العظمى لا تعيه ، تعانى من أعراض فقط دون أن تدرك لها سببا ، تعانى سواء أرادت أو لم ترد ، بل حتى تعانى رغم محاولاتها المستميتة ألا تعانى .

وللقلق فى حياتنا قصة .

كنا نحيا فى ظل أوضاع قد بدأت إلى حد ما تستقر منذ أوائل الستينات إلى هزيمة ٦٧ . على المستوى الشخصى كانت معظم الفئات قد اطمأنت إلى أنها غير مهددة فى القريب العاجل على الأقل بكوارث من أمثال الفصل أو فقدان الدخل الاقتصادى . صحيح أن الدخول قليلة ولكن هناك الارتكان الدائم إلى الدولة وقد تحدد النشاط الخاص إلى حد كبير وأصبحنا كلنا عمالا وفلاحين ومثقفين وموظفين بطريقة أو بأخرى ،

نقبض آخر الشهر أو آخر الموسم أو أواخر العام ، بينما الدولة تمر بكل مراحل تطور تجربة الملكية العامة ، من بيروقراطية إلى حكومية إلى تواكلية ، إلى آخر هذه الأمراض .

وفجأة هزمنا هزيمة منكرة مدبرة عام ١٩٦٧ .

وفى يوم وليلة تبدى لنا ما كنا نرتكن إليه ليس دولة كبيرة سترعانا وتحمينا ، ولكن ، وكأنما كنا نرتكن إلى حائط مائل سقط جيشه تماما فى ساعات ، وحياته كلها أصبحت مهددة بالسقوط .

من هنا فجزء كبير من فجيعتنا فالهزيمة وأصابتنا وكأننا جميعا بحالة الإحباط والاكتئاب بعدها ، ليس سببه فقط الخدش الكبير الذى حدث كأمة ، وإنما سببه الأعمق فى الحقيقة راجع إلى أننا كلنا بدأت عقولنا الواعية والباطنة والأبطن (تقلق) ، أى تنظر إلى المستقبل بعين متوجسة غير مطمئنة ، بحيث لم يعد أحد منا متأكدا ليس فقط من وضعه فى المستقبل وإنما حتى إلى وضعه آنذاك ، وهكذا بدأت لدينا كمجتمع حالة الاكتئاب الجماعى بحيث فى داخلنا مضى يتراكم العلقم ، سنة وحقبة إثر حقبة .

وقد حاول جمال عبد الناصر نفسه الخروج من هذه الحالة ليبدأ مرحلة مقاومة انتهت إلى ما سمى أنذاك بحرب الاستنزاف ، ورغم البطولات الفردية العظيمة التى بذلت فى تلك الحرب ، إلا أن نتيجتها كانت عكسية تماما فالتخريب المتعمد لمدن القناة وتهجير مئات الآلاف وضرب المصانع والمدارس والكبارى والمنشآت كان وكأنما يفعل على الدولة ليؤكد لنا أن قلقنا الرهيب فى محله بل لا بد بمرور الأيام أن يزداد .

وفعلا كان قلقنا بمرور الأيام يزداد .

خاصة بعد ما حدث للمقاومة ، رمز الأمل ، فى الأردن .

ومات عبد الناصر الخالد من شدة اكتئابه .

وكان حزننا التاريخى عليه الذى لم يحدث له مثيل ، ليس حزن شعب فقد زعيما ، ولكنه حزن مكتئبين يودعون آخر أملهم فى الخروج والحياة والانتصار على الهزيمة والقضاء على القلق ، وأن نعود أصحاء .

وهكذا حين جاء اليوم الموعود ، أفرغنا علقمنا الممعن المتراكم سما زعافا فى جسد العدو وتحصيناته وقواته .

ذلك أن أحد طرق الخروج من القلق ومن الاكتئاب أن تحدد عدوك وسبب قلقك وتسحقه .

وقد فعلنا لأيام .

شفينا فيها جميعا وعدنا أطفال الحياة ، نضحك ، ونتكاتف ، ونتخادم ، عادت الشهامة ، والبطولة والتضحية ، عدنا أصحاء .

ولكن كان من المحتم ألا يدوم هذا .

وكان من المحتم أن تكتفنا القوتان الأعظم من جديد ، تكتف حركتنا تجاه العدو .

ولكنا لم نيأس ، قلنا نعالج أساسا سبب نكسة عام ٦٧ ، نعالج الدولة والعلاقة بين الثورة والمواطن ، باعتبار أن سبب النكسة أن هذه العلاقة كانت علاقة قهرية أكثر منها علاقة ثورية ، وكانت علاقة كبت أكثر منها علاقة انطلاق وتحرر .

ثم أن الأزمة الاقتصادية ، خاصة بعد الحرب ، ازدادت تفاقما .

وعاد القلق على المستقبل من جديد .

ولكن هذه المرة لم يأخذ شكل القلق الجماعى السوى الذى كان السبب فى نصر أكتوبر ، إنما أخذ شكل الخلاص الفردى .

والحقيقة أن الطبقات المتوسطة والكادحة هى التى تعانى أكثر من عبء أى أزمة اقتصادية . ذلك أن السباق الطبقى الرهيب يتحول إلى عملية دفاع رهيبة هى الأخرى عن النفس ، فالكادحون يفكرون دائما ويحلمون أنهم يوما ما سيصلون إلى مستوى الدخل المتوسط المكفول ، أو من يدرى ، ربما الأغنى ، والمتوسطون يلهبهم دائما سوطان سوط الطموح إلى أن يكونوا أغنى ويطمئنوا على مستقبلهم تماما ، وسوط الخوف المرعب أن ينحدروا مرة أخرى إلى طبقات الكادحين ، ويصبح الموظف عاملا ، والعامل متعطلا ، والبقال صبيا فى محل بقالة .

هنا يعود القلق زاحفا ورهيبا ، فهو لم يعد قلقا فقط على المستقبل ، أصبح معظمه قلقا على الحاضر . وكيف لا وأنا لا أركب تاكسيا إلا ونادرا ما أجد سائقا ، سائقا فعلا ، وإنما أجده مدرسا ، أو معيدا فى جامعة ، أو أحيانا حتى ضابط شرطة . كيف لا وهاهو ذا لكى يظل محتفظا بالمستوى المتوسط الذى هو فيه يعمل ، وفعلا عاملا ، والأزمة تزداد ، وينشق الناس ، وكأنه يوم القيامة ، والخلاص بأى ثمن ، بشقة مفروشة ، بما هو أفدح ، ولتسقط أى قيمة ، فماذا بعد أن أسقط أنا من الطابق الثانى حيث أقطن إلى بدروم الحياة وقاعها . ولينج بجلده من سرق أو اختلس أو حلب أو نهب أو باع أو سمسر ، لينجو بمستواه الاقتصادى فقط إذ يكون قد فقد كل قيمة وكل ما يجعله محترما حتى فى نظر نفسه ،

أثناء عملية (الخلاص) تلك .

إنى أبتسم وأنا أقرأ كثيرا من أسماء المرشحين فى الانتخابات وشعاراتهم ، وكأن كثيرا منهم لا يخوضها انتخابات سياسية يريد أن يمثل بها مواطنين أو اتجاهات وإنما وكأنه يخوضها انتخابات اقتصادية يريد أن يجمع بها أصوات الناخبين ليتاجر بها بعد هذا تحسينا لمركزه الاقتصادى هو أولا أو مركزه السياسى تمهيدا لتحسين مركزه الاقتصادى وهلم جرا .

نعم هناك أزمة اقتصادية .

ولكن هذه المواجهة الفردية المطلقة ، هذا السباق الرهيب أن تصعد فوق أكتاف الغير ، أن تركل ، أن تسب حتى وتتشاجر وتدوس ، هذا الرعب الجنونى أن يرفع الكرسى الخيزران من تحتك وتسقط كادحا من جديد وراء كل ما نلمحه فى شارعنا من مظاهر التمرد والفوضى والقذارة ، وراء كل ما هو سائد على أفواهنا من كلمات متداولة ، ومسرحيات وأفلام منحطة تهدم كل قيمة وتخدر المواجع الشرفية والكرامية ، ففى سباق كهذا أنت محتاج أن تتبلد تماما ولا يذكرك أحد بمبدأ أو بقيمة بالتعاطف أو الحنان أو إنكار الذات ، بالتضحية أو العيب ، فى حاجة أن تنسى تماما أنك إنسان ، فأنت تريد أن تكون مجرد متسابق لاهث لا يعطله عن الصعود طيف أو مبدأ من كرامة .

أعتقد أن ذلك الحل الفردى لن يصلح أبدا .

فى بلد نام كبلدنا وفى ظروف كظروفنا ، وفى نظام للتعليم يحيل كل عام مئات الآلاف إلى أصحاب مؤهلات متوسطين ، أى يأخذ من

الكادحين ويصب فى طبقة متوسطة مختنقة بالازدحام والتباغض ، فى ظل موارد محدودة ، وقدرة على الاستدانة ستظل دائما محدودة ، فى ظل أحلام لن يتحقق ٩٩٪ منها ، إذ من سيغتنى سيكون واحدا من الألف ربما ، والباقون إما كما هم وإما إلى (انحدار) . فى ظل كل هذا وما هو أكثر ، القلق الفردى أو الحل الفردى لا يمكن أن يؤدى إلا إلى حياة كالهلاك .

نعم هناك أزمة ...

ليست فقط أزمة اقتصادية ، ولكن ما هو أهم .. إنها أزمة قلق اقتصادى رهيب يجتاح معظم أفراد مجتمعنا .

حتى الأطفال بدأت العدوى تتسرب إليهم وتسأل الولد أو البنت من هؤلاء ؟.. ماذا تريد أن تفعل — وهو يدوبك خمس سنوات ، يقول : أريد أن أكون مهندسا أو طبيبا .

مع أن الأطفال دائما يفكرون أن يروا بلاد العجائب أو يعزفوا الموسيقى أو يرقصوا أو يغنوا .

ولكن حتى غناء أطفالنا ، أتى عليه القلق الاقتصادى .

أناس حولنا فى بلادنا العربية يعانون من قلق ازدياد الثروة المفاجىء فيلجأون كالضائعين إلى الغرائز .

ونحن نلجأ إلى الغرائز أيضا ، ليست غرائز الجنس أو الملذات ، ولكنها الغرائز الأقل ، غرائز الدفاع عن الوجود ذاته ، إن ذلك الوجود يهدده القلق الاقتصادى الرهيب .

ألا تريدون أن نفتش معا عن مخرج أو حل ؟ ذلك أن الاستسلام إلى حالة ذلك النوع من القلق أولا لن يحل أزمتنا الاقتصادية ولا النفسية ، بالعكس ، سيؤدى إلى المزيد منها والمزيد ، وإذا كان السباق ضرورى فالنتيجة سقوط جماعى .

فأهم رأس مال عندنا هو الإنسان .

ولا بد أولا من إنقاذه .

* * *

دكتاتورية العدالة

لكى يرفع الإنسان رأسه عن أكوام ما تحفل به الرسائل والأقوال والجلسات الخاصة والحياة اليومية والسنوية ! التى تبدو سرمدية ، لكى يقول الإنسان لنفسه فى النهاية : وبعد ؟ ما الحل ؟

كثيرا ما أشبه حياتنا بعربة كانت مندفعة بسرعة غير مضبوطة على الطريق وكان لا بد ، شئنا أم أبينا ، أن يحدث للعربة حادث وأن تصطدم بلورى أو فنطاس أو حتى بعربة كارو ، وكان مفروضا بعد ما وقع الحادث ، وذهب ضحيته من ذهب ، أن يهبط الركاب الباقون ، بما فيهم السائق ، وأن يدفعوا العربة المصابة إلى أقرب ورشة ، وأن يتولـوا إصلاحها جميعا لكى تعود وتمضى على الطريق .

ولكن ما حدث أنهم وقفوا حولها ، منتظرين معجزة أن تنصلح العربة من تلقاء نفسها ، ولما طال بها الانتظار ، وفرغ الصبر ، بدأ كل منهم يسعى إلى خلاصه المفرد ، ويأخذ له قطعة غيار أو صامولة ، أو حتى يخلع عجلة القيادة ، ويمضى بها إلى أقرب تاجر مسروقات ، ليبيعها ، وبثمنها يمتطى أى شىء ، وينجو .. ويبقى من لم يستطع أن يسرق ، ومن لم يستطع أن يخلع ، ومن عجز بشرفه أو بصدقه أو بغبائه عن أن يترك قومه الركاب ، ويمضى ناجيا بنفسه ، وتبقى معه ومعهم العربة وقد أصبحت كومة من الحديد الخردة ..

ونعود نرفع رأسنا من فوق المنظر المفجع ونقول : ما الحل ؟

أعتقد أنى لا أقولها الآن وحدى ، فكل منا ، بما فينا من أطفال حتى ، وفى كل وقت ، ولدى كل مشكلة تثار ، ودائما المشاكل وفى كل آن تثار ، يسأل نفسه ، وبعد ؟ ما الحل ؟

ليت المشكلة يمين أو وسط أو يسار .. ليتها سياسة فقط أو أخلاقية فقط أو اقتصادية أو تربوية أو توزيعية أو ذممية أو قلة ذمة فقط ، ليتها الإسلام (المفترى عليه) أو الماركسية (بسم الله الرحمن الرحيم) أو الحرية والليبرالية ، أو هذه القذائف الجوفاء الطنانة التى تشبه صواريخ الأطفال تنطلق فى كل اتجاه ومن كل اتجاه .. وتجعل من سماء حياتنا (كرنفالا) لا مثيل له من الألوان والأقوال والفنون والحكم والشعارات والشعارات ضد الشعارات ..

ليت هذه كلها كانت المشكلة ، إذن — رغم صعوبتها — لهان الأمر .. فلو عرفنا المشكلة ، أو حتى مئات وآلاف المشاكل لقطعنا الطريق إلى ثلاثة أرباع الحل .

فلنتلفت حولنا أيها الناس نبحث ، لنغوص فى أعماق التاريخ البعيد والقريب تاريخنا وتاريخ غيرنا نتلمس ونستدل ، لنعمل كل ما تبقى لنا من عقل ، وكل ما لدينا من علم وفراسة ، وفتاكة ، حتى يمكن أن نتحرك ، ومستحيل أن نظل واقفين بجوار العربة الخردة ..

لقد حدث مرة أن هببنا فى يوم وليلة ودفعنا العربة دفعة قوية جبارة ، قطعت من جرائها شوطا مهولا ، ولكنها لم تلبث أن توقفت لماذا اندفعت .. ولماذا عادت تتوقف .. وما السبيل إلى أن ندفعها مرة أخرى لتظل تمضى

وتمضى دون توقف ؟ ..

لقد قرأنا كلاما جميلا كتبه الزملاء الذين زاروا الصين (الشيوعية جدا من فضلك) .. وهى بلاد تمت مثلنا إلى العالم الثالث ، بل ووقعت قبلنا فى خصام رهيب مع السوفييت ولا تزال واقعة .. ولكنها لا تكتفى بلعن السوفييت وإلقاء اللوم فى كل شىء عليهم ويتوقف واجبها عند هذا كما نفعل نحن ، مثلما فعلنا ذات يوم ظللنا نلعن أمريكا والاستعمار .. ونتوقف أيضا عند هذا ، إنما كانت تجربة قطع العلاقات الاقتصادية والعسكرية ، وتقريبا السياسية ، مع السوفييت (حافزا) قويا جدا لهم كى يقفوا على أرجلهم هم ثم يمضون فى السباق الرهيب مع الزمن ، بل ومع السوفييت أنفسهم .

المقالات الجميلة المروعة بتجربة الصين .. كان ينقصها — فى رأيى — أن يكشف لنا أحد الزملاء عن سر هذه المعجزة التى حدثت هناك ، فقد بدأ الحديث كما لو أن المعجزة حدثت من تلقاء نفسها ، أو كأن الشعب هناك صحا ذات يوم فوجد المجتمع كله يتحرك إلى الأمام .

فى الهند أيضا ياما قرأنا عن أنديرا غاندى وتجربة الهند (الديمقراطية جدا من فضلك) .. والآن هذا هو علمها يصل إلى القنبلة الرادعة الرهيبة وهذا هو فدان قمحها يصل إلى أربعة أضعاف ما ينتجه فدان قمحنا ، وهذه هى محاكمها تعمل ضد رئيسة الوزراء نفسها أحيانا .

ولكن دائما ، مع الحق ، وتخذل أعداء المسيرة الهندية العظيمة .

هذه نماذج من العالم الثالث حولنا ، النماذج التى تتحرك

وأيضا فى تاريخنا الإسلامى القديم .. كنا ننهض ونتحرك أولئك السادة الغيورين تماما على إسلامنا .. المطالبين بعودتنا إلى أمجاده ، أو عودة أمجاده إلينا ، لا يقولون لنا ، مثل هؤلاء الذين ذهبوا وذهبنا معهم نطلب العلم ولو فى الصين ، لماذا .. لماذا جاءت فترة على الحكم الإسلامى ، كان فيها عظيما ومجيدا ودافعا إلى أقصى أمام محدثا فى الفكر وفى الحياة تلك الثورة التى للأسف أوقفناها نحن بأيدينا وأخذها منا العالم الأوربى المسيحى ومضى يطورها إلى أن سبقنا بها وسبق الزمن .. فما نشاهدة الآن من حضارة أوروبية شاملة ليس فى الحقيقة إلا امتدادا لإسلامنا العظيم الأول .. الامتداد الحقيقى لإسلامنا — فإسلامنا اليوم ليس إلا امتدادا لإسلام توقف وتجمد منذ عصر المأمون .

* * *

فى الحق مهما نظرنا حولنا .. واستبطنا تاريخنا .. وغصنا بأبصارنا إلى داخل نفوسنا .. سنجد أن السر الوحيد لما حولنا ولما كناه من حركة ، والسر الوحيد لهمومنا الآن وتخلفنا ، السر الأوحد ، يكمن فى كلمة واحدة هى (العدالة) .. إن العدالة هى حلم الإنسان القديم ، منذ الفلاح الفصيح وإلى الآن ، الحلم الذى حاولت ديمقراطية الإغريق تحقيقه ، وكلما تحقق بعضه كان المجتمع يقفز إلى الأمام ، الحلم الذى حاولت اليهودية والمسيحية تحقيقه وكلما قاربته كان الإنسان القديم يقفز التخلف الواعد ويتقدم إلى الأمام ، الحلم الذى جاء الإسلام فى عهوده الأولى يطبقه بمثالية شكلت القوة الدافعة الرهيبة لبناء كل ما تلا هذا من حضارة إسلامية .. الحلم الذى ثار من أجله لوثر على الكنيسة وأنشأ البروتستنتية ، الحلم الذى راود الفلاسفة من أيام أفلاطون إلى كارل

ماركس وأنجلز وحتى فانون وماركوز .. العدالة .. ليست كما هجناها نحن واقتصرنا على تسميتها بالعدالة الاجتماعية .. وإنما العدالة — فى كل أشكالها وصورها — عدالة النقود وعدالة السلطة والنفوذ ، عدالة الريف والمدينة ، عدالة الحى والشارع والحارة ، عدالة الكيان البشرى المحترم مهما كان عمله أو لونه أو جنسه أو دينه ، عدالة الذنب إذا أذنبت ، والعقاب إذا عوقبت ، والقانون إذا ساد القانون .. باختصار دكتاتورية العدالة فى كافة صور الحياة وأنواعها وأشكالها ، إن حلم إمامنا الكبير محمد عبده بالمستبد العادل ، كان حلما خياليا تماما ، فمادام المستبد إنسانا أو الإنسان مستبدا فلن يكون أبدا عادلا ، إنما العدل يأتى من (استبداد القانون) أو المسئول أو حتى الحزب ، استبداد القاعدة وتطبيقها بلا أى استثناء ، بل كلما كبر المطبقة عليه يكون التطبيق أقسى وأمر .. دكتاتورية العدل واستبداده بأى مجتمع هى وحدها الحرية ولا حرية سواها .

ومشكلتنا فى الحقيقة ، هى أننا لا نملك ذلك القانون المستبد الواحد .. الذى يطبق على الناس جميعا من أول مسئول إلى آخر الرعية ، بل بالذات أول مسئول ، لا نملك ذلك القانون المستبد الواحد وإنما نملك ألفا .. بل مليون قانون .. وطوال النهار نفصل ونتحايل ونعدل فى كافة القوانين والدساتير والنظم والأصول .. بعدد ما نحن فيه من طبقات وفئات وتفاوت سلطات واستبداد سلطات بسلطات ..

وفى الصين عدالة الزى الواحد والطعام الواحد ووسيلة المواصلات الواحدة ، وقاعدة السكن الواحدة ، قد لا يكون فيها تساو فى

السلطة .. ولكن من قال إن الصين وصلت إلى المجتمع الأمثل .. فى الهند عدالة ، صحيح ليست كعدالة الصين ، ولكن هناك على الأقل ذلك الحد الأدنى من العدالة ، ليست المكتوبة فى الكتب والدساتير وبرامج الأحزاب ، ولكن العدالة المرئية والمسموعة والمشاهدة يوميا ، والمطبقة أولا على رئيسة الوزراء .

فالقاعدة فى دكتاتورية العدالة هى ضرب المثل فهى ليست عدالة يصدرها الحاكم لتطبق على المحكوم فقط .. ولكنها العدالة تطبق أولا على الحاكم وأمام عين وأذن المحكوم ليؤمن أنه فى الإمكان بعد هذا أن تطبق عليه ..

وهذا السبب الذى نشكو منه أو كففنا ويئسنا حتى من الشكوى منه ، هذه اللامبالاة ، هذا الإحساس الممض الرهيب أن البلد ليست بلدك ، وأنك آخر المسئولين عنها ، سببه أن بعضهم يركب السيارة .. يسابق بها الريح ، ويعيش ويتسلط كأوناسيس ونابليون ، بينما أنت مركون فى انتظار أوتوبيسك الخردة موضوع بين نارين ، إما أن تبقى نظيفا جائعا شريدا خائفا أن يدوسك الانجراف وكأنه السيل العارم القادم ، وإما أن تسرق لك قطعة غيار أنت الآخر أو تغمض عينيك عن آخرين يسرقون قطع الغيار وباختصار وفى النهاية تنحرف ..

إن الطبيعة البشرية ضد الانحراف فى كافة صوره وأشكاله . والإنسان أصلا وأساسا ، خلق ليحيا شريفا ونظيفا ، والشاذ هو أن يجرم أو يتعمد الخطأ أو الخطيئة ، هو لا يفعل هذا ــ فى معظم الأحيان ــ إلا مرغما ، وإلا ، بالذات إذا وضعته بين خيارين قاسيين ، بشعى القسوة ، إما أن

تجف روحه ويتبلغ بشرفه وقناعته وإما أن يقلد السائد ويفسد ..

* * *

إن المشكلة ليست مشكلة فقر الإمكانيات ، فكم من شعوب ودول مرت بأزمات أعنف بكثير من أزمتنا الحاضرة ، بل ونحن ، وهذا هو الغريب فى مستوى اقتصاد قومى أعلى بكثير من كل سنواتنا السابقة ، ولكن المشكلة الأساسية أن العدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية والسلطوية غير مستبدة ، عدالة بها من الثقوب أكثر مما بها من خيوط الغربال ، عدالة تطبق على الخائب فقط .. أما الشاطر فهو من يركب فوق العربة .. حتى لو كانت حطاما .. ويطلب من الآخرين أن يزقوها ويزقوه معها .. نحن جميعا مستعدون أن نزق هذا صحيح ، ولكن (كلنا) نزق ، كلنا ندفع ، وبكل ما فى قدرة كل منا على القوة ، شرط أن لا يركب البعض ويكون عملهم إعطاء الأوامر (للعبيد) بالزق . كلنا على استعداد أن نضحى ، كم أحلم بأن نبيع جميعا عرباتنا الخاصة وبثمنها نبنى المصانع ونصنع ملايين الدراجات ، شرط أن نبيع ــ جميعا ــ عرباتنا الخاصة ، وأن نركب ــ جميعا ــ الدراجات ، ذلك أن دكتاتورية العدالة تقتضى أن تتوزع الحقوق والواجبات بالتساوى بحيث لا يكون لعربى على أعجمى فضل إلا بمقدار ما يبذل فى سبيل بلده ومجتمعه وليس بمقدار المنصب الذى يتولاه .. أو المال الذى لديه .. أو ما يستطيع اقتناءه ..

* * *

إن التقديرات الاقتصادية تقول إننا فى حاجة ــ خلال السنوات

الخمس القادمة — إلى اثنى عشر مليار جنيه لنعبر أزمتنا الاقتصادية فقط ، هذا إذا اعتبرنا أن أزمتنا أزمة اقتصادية فقط ، فما قولك عن الأزمة التربوية والعلمية ، والحكومية والتكنولوجية والنظامية العامة والخاصة والمعنوية والروحية والأخلاقية .. إلى آخر القائمة التى لا أعتقد أن لها آخر .. ودول الخليج لن تمنحنا مجتمعين أكثر من عدد (٢) مليار فقط خلال السنوات الخمس ، فكيف سنحصل على العشرة آلاف مليار جنيه تلك ؟ وحتى ولو بمعجزة أن يتفق العالم الغنى بأجمعه كله ، بأمريكيته وروسياه على إعطائنا إياها ، فلمن ستذهب ، والطريق وعر وشاق وملىء بقطاع الطرق .

نحن — إذن — شعب فقير ، يمر بأزمة طاحنة ، ولا معجزات هناك تنقذه . هناك فقط هو : ذلك الشعب ، هو الشعب وهو المعجزة .. وهو العشرة .. وهو الألف مليار .. هو الذى عاش هنا ، والذى سيعيش ، وهو وحده الذى بيده الحل . ولا حل إلا بأن يعمل .. فليست هناك شعوب بالسليقة فقيرة وشعوب بالسليقة غنية ، هناك شعوب تعمل وتنتج .. وشعوب لا تعمل ولا تنتج .. وإنما تقعد هرتها ويقتصر نشاطها على استهلاك كل ما تصل إليه يدها .. ووراء كل شعب لا يعمل ولا ينتج يوجد دائما وضع يسبب له هذا .. أو نظام ، نظام لا تستبد فيه العدالة ، عدالة الحق ، وعدالة الواجب ، نظام اختلت عدالة توزيع الأعباء فيه ، عدالة السلطة أو الاقتصاد أو القانون أو المركز أو الدخل أو حتى عدالة الركوب والمرور .. أو كل هذه مجتمعة .

وحلنا ومنقذنا ومخرجنا من هذا المأزق وكل مأزق ، حلمنا البشرى القديم الذى نادرا ما تحقق ، هو عدالة حادة قاطعة كحد السيف .. أو على الأقل — يا هوه — حد أدنى من دكتاتورية العدالة فهى وحدها دكتاتورية الشرف ، والعمل ، والقيم ، والحرية ، والعدل ، والإنسان ...

* * *



تعالوا ننظف مصر

استمعوا أيتها السيدات وأيها السادة .. المسألة تجاوزت فعلا حدود المنطق والمعقول ، حدود أى صفة بشرية أو حيوانية .. حتى وأنا قد أبدو مزعجا ومقلقا للراحة ، ولكن إذا كان الأمر أمر إزعاج جثث تمر بحالة موت روحى ونفسى وجسدى كامل .. فأنا مستعد أن أكون أكثر إزعاجا إلى درجة الوخز بالإبر والمسامير والخناجر حتى .. لم يعد معقولا ولا إنسانيا أبدا أن نستمر نحيا بهذه الطريقة .. الموت ، والله أفضل ، والوباء ، أفضل ، والحرب أفضل ، وأى شيء أفضل ..

منذ شهرين كان عندى مشوار فى (دوران روض الفرج) ، وليس مهما الآن كيف وصلت إلى هناك ، أما المهم حقيقة فهو ما وجدت عليه شارع روض الفرج الرئيسى .. كانت المجارى (ضاربة) فى الشارع .. والماء بشع الرائحة .. والمنظر والتكوين يغمر الشارع لمسافة لا تقل عن نصف كيلومتر .. والناس تضع أحجارا ، أو أحيانا تخوض فى هذا البحر البشع القبيح لتعبر الشارع ، والعربات تصنع بعجلاتها وبالأقل أقذر الأمطار الصناعية .. هززت رأسى للحال التى وصلت إليها مرافقنا العامة ، وقلت فى سرى : معذور والله هذا الشعب الذى عليه أن يتحمل انقطاع مياه النظافة وغزارة المياه القذارة .. الماء المقطر ممنوع مقطوع ، والماء البشع موجود وطافح بغزارة .. معذور والله هذا الشعب .

ومضى شهران ، وبالأمس فقط كان على أن أذهب مرة أخرى إلى روض الفرج .. وليس مهما كيف ولا بأى طريقة وصلت هناك ، فلنترك جانبا حديث المواصلات والتاكسيات ، ولكن المهم ، بل الشيء الذى لا يصدقه عقل .. أو منطق أو عين ترى وأنف يشم ، أن أصل إلى هناك ، لأجد نفس المستنقع الرهيب ، يغمر نفس المساحة من الشارع ويعبق الجو برائحة لا يمكن أن يقبل الحياة فى ظلها إنسان أو حيوان أو نبات أو حتى جماد .

شهران وأنتم أيها السادة الأفاضل سكان روض الفرج ، تغوصون فى وحل المخلفات البشرية هذا ، شهران وأنتم تتلوثون وتشمون وتقاسون وتعانون ، شهران وأنتم تصبرون .. لعن الله صبركم .. لعنت حياتكم .. لو كنتم مجموعة من الكلاب الضالة لهجت من الحى كله وحتى من العاصمة كلها .. لو كنتم مجموعة من الحشرات للدغت نفسها بنفسها وأنهت هذه الحياة ذات الرائحة العفنة الكريهة .. ولكنكم ـــ الكارثة الكبرى ـــ بشر ، بشر ترتدون البدل والجلاليب (النظيفة) ، نساء مسرحات الشعور أنيقات البلوزات والجيبات ، دكاكين ، ومطاعم وأناس تركب العربات والتراموايات ، أرق كائنات على سطح الأرض .. كيف تحملتم بالله هذه الحياة لشهرين ، ومن يدرى .. ربما تتحملونها لعام أو حتى لبضعة أعوام .. أليس فيكم رجل واحد أو بضعة رجال (يثورون) على هذا الوضع ويذهبون إلى مهندس المجارى أو التنظيم وينتزعونه من مكانه قسرا ويمرغون أنفه فى المياه الطافحة ، أليس فيكم آدميون أكثر يذهبون إلى محافظ القاهرة ويحملونه حملا إلى شارعهم

ولا يتركونه إلا وقد عاد الشارع يصلح لمسير وعبور وإقامة الآدميين ، وأنتن يا نساء الحى .. كيف تحملتن أن (يعيش) أطفالكن ويتمرغن فى شارع كهذا ؟.. يا من تضعن أحيانا البرفانات .. كيف احتملتن الرائحة ، وإذا كان الرجال قد تقاعسوا ، فكيف تقاعستن أنتن ؟..

والحق أنى لا أتحدث عن روض الفرج وحده ، إن طريق (ملك حفنى ناصف) بالإسكندرية ، وغيره ، إن أى شارع أو حارة فى القاهرة أو الإسكندرية أو أسيوط أو البدارى .. إن كل مكان فى مدننا يضج بكم من القذارة أو الإهمال والبشاعة لا يمكن أن يصلح معه إطلاقا لحياة البشر .. ومع هذا فالبشر يحيون فيه .. متبلدين بلادة لا يمكن أن تكون لجنس البشر ، وكأنهم يتلذذون بمشهد المجارى والقذارة ، وكأن كائنات أنيس منصور التى هبطت أو تهبط من السماء ستقوم هى وليس هم بعملية النظافة .. وكأن الحكومة لها عين ترى القذارة وتزيحها .. وكأنه لا يزال هناك أمل فى جهاز التنظيم ومصالح التنظيم..والمجالس المحلية يدكم منها والأرض .. فجهاز النظافة العام فى مصر — مثله مثل كثير غيره — قد تفسخ تماما وانشل ، نفس الشلل والتنبلة التى أصابت الإنسان وكل يعتمد على الآخر فى عملية التنظيف .. السيدة تعتمد على الخادم أو الخادمة — إن وجدت — والخادمة على البواب المحلية على جامع القمامة الذى أصابه الوخم هو الآخر .. وبدلا من أن يعبيها فى عربات ويحملها إلى خارج المدينة ، بدأ يختار أى وأقرب مكان إلى منطقته ويفـرغ فيها قمامته ، وتتعالى الأكوام ، أمام عين العسكرى ، وأمام عين الكناس ، وأمام عين معاون البلدية ، ولتتعايش العين والناس والقذارة ، ولتتعايش

التنظيم مع الفوضى ، ولتتعايش الكمد المحمود الذى أصابنا مع القذارة التى تتراكم أمامنا وداخلنا ، ولنتحول فى النهاية إلى مجموعة من الحيوانات القذرة تحيا فى جحور قذارة اسمها (المدن) .. بل حتى الحيوانات أبدا ليست بهذه القذارة ، القطة تظل تلحس ابنتها بلسانها و (تنظفها) لأن الطبيعة الحيوية حتى لو كانت طبيعة حيوانية هى ضد القذارة .. ولأن القذارة هى الفوضى فى التركيب وفى المعنى وفى الرائحة وفى المذاق ، والحياة هى الدقة فى النظام والرق فى التركيب ..

* * *

اسمعوا — أيتها السيدات وأيها السادة — لقد يئست تماما منكم ومنكن ولم يعد لى أمل إلا فى أجيال الشباب الجديد .. ولهذا فأنا شديـد الاندهاش أن يكون تصرف الشباب هو الآخر على هذا النحو .. إن هذا ليس أول جيل من شباب مصر ، فللشباب فى مصر تاريخ وأجيال .. وقد كان الشباب على الدوام هو القوة القاهرة الدافعة للثورة وللتغيير . كان مشهد التدخل الأجنبى فى مسائل مصر الاقتصادية والسياسية هو الذى أزعجه حتى قام بثورة عرابى ، كان مشهد العساكر الإنجليز والأستراليين فى شوارع القاهرة هو الذى أزعجه إلى درجة القيام — قلبا وقالبا — بثورة ١٩ ، كان مجرد مشاهدته للوجوه الحمر المطلة من ثكنات قصر النيل وعمارات شويكار فى شارع قصر العينى يزعجه إلى الدرجة التى يقوم فيها بثورة ٤٦ ، و٤٧ ، و٥١ .. ويسقط منه الشهداء ويسيل منهم الدم الأحمر الطاهر يخضب أرضا أبوا عليها أن تدنسها أقدام ووجوه المحتلين . كان مشهد العلم الإسرائيلى على ضفة القناة الشرقية يدفع دمه للغليان

حتى قام بالانتقام العظيم فى ٦ أكتوبر . أيكون مشهد حى بأكمله يستنقع فى مياه المجارى .. أيكون مشهد أكوام القذارة والقمامة والزبالة ، أيكون هذا القبح الكسول المستشرى أقل بشاعة من وجوه الإنجليز الحمر ــ النظيفة على أى الأحوال ؟...

ورب قائل يقول إن هذا كان (استعمارا) وكان إهانة (للكرامة الوطنية) ، ولكن القذارة والمجارى المتفجرة والرائحة التى لا تطاق أشد إهانة (للكرامة الإنسانية) .. فكيف إذا طاقها العاديون ، يطيقها الشباب ، تطيقها قلوب بكر لم تلوثها القذارة ، أعمار القدرة على التضحية وبذل النفس ، كيف سكت الشباب فى حى روض الفرج وفى طريق ملك حفنى ناصف ، وكيف يسكت فى كل مكان وحارة من مدننا على حياته اليومية وهى تلوث وكأنما بفعل عدو مبين خبيث . إن المسألة ليست مسألة عياقة أو شياكة أو (استنظاف) المسألة مسألة آدمية ، والصين قبل أن يأكل شعبها أو يرتدى ما يليق (نظفت) حياتها أولا من الذباب ومن الحشرات ومن أكوام القمامة ذلك أن الإنسان الذى يطيق القذارة والتعايش معها لا يمكن إلا أن يكون قد فقد أبسط دافع يحركه للحياة أو للعمل أو لعمل شىء من أجل الوطن .. إننا كلنا نعتمد على الحكومة وعلى التنظيم وعلى ــ ودائما ــ (الآخرون) لتنظيف بيوتنا أو شوارعنا أو حوارينا ، فلنعتبر أن الحكومة قد ماتت أو غير موجودة ، لنعتبر أننا (نحن) المسئولون ليس عن نظافة كل منا فقط ، ولكن عن نظافتنا كلنا ، نظافة حياتنا ونظافة أحيائنا .. إننا لا يمكن أن نفلح فى السياسة أو الثورة أو بمجرد الجدل حول يمين أو عقيدة أو دين ونحن

نحيا فى قذارة ، لنحيا أولا كآدميين ، وبعد هذا نتناقش أو نختلف أو حتى نتقاتل .. لنكن أولا جديرين بحياة الآدميين الجسدية لنكون جديرين بأية حقوق سياسية أو اجتماعية أو أى شىء آخر ..

يا شباب مصر .. تعالوا ننظف مصر .. لتتألف منكم لجنة فى كل حى .. تضم الشباب من الطلبة والعمال وحتى من تلامذة إعدادى وابتدائى وتلميذاتها ، تنظف الحى ، وترغم عمال النظافة على العمل ، وعمال التنظيم ومهندسيه ومفتشيه وأجهزته وتنتزع لهم حقهم فى نظافة شوارعهم ومجاريهم ، ولنبدأ أولا ننظف شوارعنا وغدا ننظف حياتنا كلها ، من ألفها إلى يائها ، ومن اقتصادها إلى سياستها .. ولكن فلنبدأ ، حتى قبل أن نقرأ أو نكتب أو نأكل ، لنبدأ عملا نحس به أننا بشر نستحق حياة البشر ، وأننا ــ شباب وشابات ــ نستحق أمجد وأعظم فترات الحياة .. اعملوا شيئا يا شباب غير ضياع الوقت هائمين فى الشوارع وكأنما فقدتم الرشد ، ضائعين فى النواصى والحوارى ومطلقين الأذى من ألسنتكم على (اللى تسوى واللى ما تسواش) .. اصنعوا شيئا .. الآن .

دين الحكمة ..

فى رسالة لبقة مؤدبة ــ وهذا أحيانا نادر فى أمثال تلك الرسائل ــ لفت نظرى مواطن ــ يبدو أنه ضالع فى أمور الدين ــ إلى أنى قد ارتكبت إثما ــ دعا الله أن يغفره لى ، حين استعملت تعبير (عقلية انصر أخاك ظالما أو مظلوما) متهما إياى أنى بترت مطلع هـذا الحديث الشريف ، ثم يستطرد موردا نص الحديث كله عن صحيح البخارى ..
والحق أن هذا الخطاب ، وغيره ، أثار فى نفسى تساؤلا لا حصر

لها .. فأولا أنا لم أقل هذا حديث شريف ، وإنما أنا قلت (عقلية) انصر أخاك ظالما أو مظلوما مثلما يقول الإنسان أحيانا « عقلية » لا تقربوا الصلاة .. ويسكت عن إتمام باقى الآية ، إن قولا كهذا لا يعتبر (استشهادا) بالآية ولا بالنص ، وإنما يتحدث عن (عقلية) أخذ نصف القول وترك النصف الحقيقى الآخر الذى من أجله نزلت الآية أو قيل الحديث .

وثانيا ، هذا يدل على أنى كنت محقا فى النص على هذه العقلية عند البعض ، فقد وضح لى الآن أن بعض الناس يقرأون ما يكتب قراءة (شكلية) محضة يقرأون بنفس عقلية : لا تقربوا الصلاة ، ومستعدون أن يحكموا بالتجديف أو أحيانا بالكفر لمجرد الشكل وليس أبدا معنى الأشياء وأعماقها . وهذا أيضا ليس غريبا ، فقد تحولت ديانتنا المحمدية على أيدى البعض إلى (شكل) الوضوء ، و (شكل) أداء الصلاة ، و (شكل) ما ترتديه المرأة أو لا ترتديه ولا يهم بعد هذا أن يكون للرسالة المحمدية العظيمة مضمون أعمق وأشمل ، ذلك المضمون السماوى الشامل الذى من أجله هبطت الرسالة لتشكل إيمان الناس فى كل زمان ومكان ، وتشكل ضمائرهم .. أبعث محمد عليه السلام نبيا ليقول لنا ماذا نرتدى وماذا نأكل ؟ لقد بعث هذا البعث العظيم أولا وأساسا ليهدينا إلى من نعبد .. ولماذا ، ليهدينا إلى الخالق عز وجل ويحيطنا بأعظم رسالة ..

وثالثا ، ألاحظ فى الفترة الأخيرة حساسية مفرطة ضد أن يتحدث أحد عن أى شىء يتعلق بالدين إلا رجال الدين ، فى حين أن الإسلام — كما يقول فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى — ليس فيه أصلا رجال

دين ، فكل مسلم هو رجل دينه ، هناك فقهاء وعلماء هذا صحيح ، ولكن الحديث عن الإسلام ، والمسلمين هو من حق كل مسلم ، بل إن (خليفة) المسلمين نفسه يطلب من أى عربى أن يقوّمه إذا انحرف ، بمعنى أنه — أى الخليفة صاحب النبى وحبيبه وأعظم داع لرسالته — يطلب من أى عربى عادى أن (يقوّمه) إذا أخطأ ، معنى هذا أنه ممكن أن يخطىء هو أيضا ، وأن من (حق) أى عربى أن يدرك هذا الخطأ وأن يقول له رأيه — مهما كان جاهلا أو متواضعا — أى أن يقول له مفهومه الإسلامى لما ارتكبه الخليفة ..

فكيف تريد إذن أن نحول هذا الدين الواسع العريض ، هذا البحر الذى من حق أى منا أن يغترف منه ما شاء إلى (حنفية) ضئيلة عليها قوم (مدججون) باحتكار (الفهم) للإسلام وكأنما محظور على عقل أى منا — مهما بلغ نبوغه — أن يفهم إلا من خلال فهمهم هم وتقديرهم هم واحتكارهم هم ..

إنى مصر على أن لا كهنوت فى الدين ، وأن من حقى أن أفهم إسلامى كما أريد وكما أستطيع ، والله وحده سبحانه وتعالى هو الذى سيحاسبنى على فهمى ، بل إنى مصر على حقى حتى فى أن أخطىء الفهم وأن أعترف بالخطأ إذا ما أدركته ، فديننا الحنيف جاءنا — ليس لأننا ملائكة منزهون من الخطأ — وإنما لأننا بشر نخطىء وقد نصيب ، وحسابنا من الخطأ والصواب لله وحده مالك كل شىء وخالق كل شىء وصاحب الأمر والنهى ، أما أولئك الذين ينصبون أنفسهم أوصياء على دين الله وعلى أمة الله فهم يرفعون أنفسهم إلى رتبة رسل ، ولكنهم رسل

بغير تفويض ، وليظهر لى أى منهم من فوضه ولماذا هو وحده المفوض وأنا مسلم مثله ، وربما أكون أكثر منه تقوى وأشد منه إسلاما بسلوكى وقيمى وعقيدتى .

من فوضه ليرهبنى ويخيفنى ويجعلنى أعبد الله من خوف ليس منه سبحانه ، وإنما من جماعات الإرهاب الدينى الذين يريدون إعادة محاكم التفتيش وطغيان الكنيسة وحرق الناس أحياء لمجرد قولهم إن الأرض تدور حول الشمس ..

إنى إنما أعبد الله عن حب ، ومن يحب لا يخاف ، لا يخاف بالذات أولئك الذين يريدون إحالة أعظم رسالة حب عرفها الإنسان إلى سلاح اتهام وبطش وتعذيب وكأنهم هم وحدهم المسلمون وبقية الخلق إما كفرة أو منحرفون أو بلا قدرة على التمييز ...

إن الإسلام للناس جميعا ، حتى للأمى الذى لا يقرأ أو لا يكتب و لم يهبط ليكون دين خاصة ودين قلة وأوصياء على خلق الله ، دعوا الناس تعبد الله بلا إرهاب ، وإذا دعوتموهم إلى الدين فإنما كما قال الله سبحانه وتعالى : بالحكمة والموعظة الحسنة . لم يقل أبدا بالسوط ولا بالسيف ولا بالقهر .. بالحكمة والموعظة وليست حتى أى موعظة .. وإنما بالموعظة الحسنة .. أتعرفون الموعظة الحسنة ؟؟ .

* * *

الثقة الفعل

لنتعاهد سويا عهد الله والوطن على أن نمضى فى طريق التحرير إلى منتهاه حتى نسترد كل شبر من الأرض العربية ، وحتى نرى شعب فلسطين الصامد وقد استعاد حقه وكيانه ، ولنستمر فى معركة البناء الداخلى لا يلهينا عنها شيء إلا أن تصبح الديمقراطية بنيانا لا يمكن أن تهزه أعتى العواصف والأنواء .. وليكن رائدنا فى هذا هو التمليك والتآخى والموضوعية والاحتكام إلى العقل وتجنب فرض الرأى ..

هذه ليست آراء (كاتب) ، ولكنها كلمات الرئيس أنور السادات عشية الإجماع على اختياره رئيسا للجمهورية وقائدا لمسيرتها لست سنوات حافلة قادمة .. والفرق بين كلمات الكاتب و كلمات الرئيس أن كلمات الكاتب تكون من قبيل التمنى أو التبشير برأى أو إيضاح الرؤيا ، ولكن كلمات الرئيس ليست أمانى ، إنها كلمات رجل يملك فى يده سلطة أن يحيل الأمانى إلى (فعل) ، والأحلام إلى (قرارات) والرأى إلى (عمل) والأصل فى حياة أى شعب أو أمة أو ثورة هو العمل ، هو الفعل ، وما الحرية وما الممارسة الديمقراطية الحقيقية وما العقائد بكل تناقضاتها أو تشابهها إلا (وسائل إنتاج) بشرى حقيقى وفعال ومؤثر يغير فى حياة الناس ويقضى على متاعب البشر ، بل ما طلب العدالة فى الحق والواجب ، والعدالة فى التوزيع والعدالة فى الثواب والعقاب ، ما

هذا كله إلا وسائل لجعل الإنسان (إنسانا) بحق ، وما دام سيصبح إنسانا فهو من تلقاء نفسه سيعمل وينتج ويبدع ويحتل عالمه وعالم الآخرين إلى شيء جدير حقا ببنى الإنسان ..

إن أقصى ما يحلم به الكاتب وما يريده أى مواطن مصرى هو هذا بالضبط الذى قاله الرئيس السادات ، الفرق أننا كلنا نستطيع (القول) ولكنه هو هذه المرة الذى أوكلنا إليه (الفعل) . إننا لم ننتخبه تكريما له فقط لما حققه من منجزات ضخام خلال فترة رئاسته الأولى ، ولكننا هذه المرة ننتخبه لأننا فى أمس الحاجة إلى رئيس (يعمل) و (يفعل) و (يحقق) ، فالمشاكل التى تراكمت ، والقضايا المعلقة لا تزال . لم تعد تحتمل التأجيل ليوم واحد أو ربما لساعة واحدة ، وليثق الرئيس أننا لن نركن إلى النعاس ، كما لم نركن أبدا إلى النعاس ، لنتركه وحده يعمل ويفعل ويحقق ، فنحن ــ وأى شعب فى الدنيا ــ لا يختار الحاكم ليتباهى به ، أو ليكون رمزا ، إنما يختاره ويشدد فى اختياره كوسيلة عظمى يغير بها الشعب من أحواله ويحقق بها ما يريد ، وسيلة حاسمة باترة ليتحرك بها الشعب و (يفعل) و (ليعمل) ، كل ما فى الأمر أن بعض الحكام لا يتلقون الرسالة أو الثقة بمفهومها الصحيح ، ولا يتحركون فى اتجاه الشعب ، فلا يتحرك الشعب لهم أو بهم ، بل فى أحيان يتحرك مباشرة ضدهم . فالحركة بدايتها ومنتهاها الشعب ، هو خالقها ومالكها ومانحها لمن يختاره ولمن يستحق .

إنى إذ أهنئ رئيسنا السادات بهذه الثقة الغالية ، لأشفق على شعبنا مما يريده الرئيس منه ، فالحق أن شعبنا قد أعطى ويعطى بكل ما يملك

وما يستطيع . ولكننى لا أشفق على الرئيس مما يريده شعبنا منه ، فهذه الثقة وهذا الاجماع معناها أن بإمكانه أن يعطى أكثر بكثير مما أعطى .

* * *

رسالة عاجلة لك يا سيدتى ..

إن قضية إجراء حوار مع المرأة المصرية والعربية بشكل عام ، أقصد حوارا بينها وبين الرجل مسألة أصبحت ملحة وضرورية وحتمية لوجودهما معا . إن المرأة تتحدث والرجل أيضا يتحدث ولكن كليهما لا يقول سوى (مونولوج) .. أى يتحدث إلى نفسه فالمطلوب أن يتحول إلى (ديالوج) أو حوار .

ولكنى الآن لا أريد أن أبدأه .. فالجدار العظيم الكائن بين الرجل والمرأة جدار لا بد كى يهدم أو على الأقل نستحدث فيه بعض الثقوب والمنافذ وحتى الشقوق .. فإن الأمر يستلزم استعدادا أكبر بكثير ..

هذه مجرد رسالة عاجلة ..

وهى موجهة بالذات إلى سيدات نادى سبورتنج بمصر الجديدة ونادى الشمس بمصر الجديدة أيضا وحبذا لو تلقتها أيضا سيدات نادى الجزيرة والصيد والقاهرة إلى آخر قائمة النوادى ..

وبالذات إلى السيدات اللاتى يملكن (وقتا) يضيع الكثير منه فى ثرثرة مكررة حول الموائد وأشغال التريكو والكانفاه وذلك الحديث الظريف الذى يسمونه (النميمة) .. أولئك اللائى يملكن ترف الشغالات يقمن بأعمال البيت والطباخين يطبخون ، أولئك اللائى يملكن المال نفسه ويشتكين من الأرق والأعصاب ويلجأن إلى الحبوب المنومة ، هؤلاء

اللائى أقول لا يعملن ولكن يختلقن لأنفسهن أعمالا هامشية تماما لا يمكن أن تكون ذات أثر فى حياة الناس أو حتى حياتهن هن أنفسهن ..

أنا هنا لا ألوم ولا أعاتب وإنما أحاول أن أخاطب الضمائر التى أعتقد أنها من الداخل غير راضية أبدا ، ومكتئبة .

سيداتى .. يامن يملكن هذا الوقت وتلك القدرة .. هناك عمل عظيم ونبيل وجدير حقا بأى إنسانة أو إنسان يحيا فى عصرنا هذا .

ذلك أننا فى عصر يمج أن يكون الإنسان فيه عالة على مجتمعه أو حتى عائلته ، يمج البطالة حتى لو كانت صاحبتها جميلة ورشيقة ومن عائلة ، يمج أن يعيش الإنسان بلا (دور) هام يؤديه فى ذلك المجتمع ..

أقول إن لدى عمل لكن .. ذلك هو مستشفياتنا .. فى كل حى من أحيائكن هناك مستشفى أو أكثر . وإذا كانت شوارعنا وبيوتنا قد أصبحت تعج بالقذارة .. فمستشفياتنا العامة أصبحت مسألة النظافة فيها شىء نسيه الخلق تماما و لم يعودوا يذكرونه . إن المريض الذى يلجأ إلى المستشفى العام هو بالدرجة الأولى مريض فقير ، ولأن النظافة مسألة اقتصادية أساسا فهو يحيل المستشفى الذى قد يكون غنيا بأجهزته وأطبائه واستعداداته إلى مكان ، كمنزله ، كشارعه ، قذر ..

وإذا كانت القذارة فى الشوارع مسألة ضررها لا يظهر فى الحال ، فالقذارة فى مستشفياتنا شىء خطير للغاية لأنها تعنى الموت بالعدوى والميكروب .. وصحيح هناك أجهزة وموظفون وعمال وعاملات متروك لهم أمر النظافة فى تلك الأمكنة الحساسة ، ولكنهم جميعا (موظفون) لدى الدولة ، والنظافة الحقة (رسالة) فى حاجة إلى من

يتبناها تبنى المبشرين ، فهى مثلها مثل رعاية المرضى والتمريض عمل (مقدس) ومن هنا جاءت فكرة (الترهين) فى خدمة المرضى وإدخال الراهبات مجال التمريض ، ذلك أن رعاية أى مريض أو مساعدته ربما أهم بكثير من علاجه على أيدى الأطباء المحترفين : لا بد أن تنبع من قلب مؤمن حقا بما يفعله ومستعد أن يضحى من أجل أن يحس بوجوده الحقيقى وأن يكون له فى الحياة رسالة .. وأن يأوى إلى فراشه فى نهاية اليوم وهو — أو بالأصح — وهى قد أحست بدفء الحياة يتسرب إلى روحها لأنها ساعدت إنسانا آخر أن يشفى أو يعيش .. ليت ذلك النداء الإنسانى العميق المركب فى كل منا يدعونا أن نمد يد المساعدة لكل من يستغيث بنا أن نساعده .

وأنا أكتب هذه الكلمات أحس بعشرات الأفواه من المرضى تستغيث استغاثات مكتومة تتوجع إلى الله طالبة العون والمساعدة ، ولا من مغيث .. لقد قرأت مرة أن إحدى الجمعيات قررت أن تتولى عضواتها الإشراف على نظافة مطار القاهرة الجوى حتى نستقبل السياح والقادمين بوجه لامع نظيف . وهذا عمل جميل لا شك ونية طيبة ، ولكن العمل الأعظم والأجمل ، والنية الأصدق والأنبل ، لا أن نرى العالم وجهنا الخارجى الأول لامعا نظيفا ، ولكن أن ننظف مستشفى حينا وأن نساعد مريضا ، وأن نعمل ذلك العمل الذى قد لا يكون له بريق تنظيف المطار ولكن له عند الله وعند الخلق أثمن وأعمق الوقع .

تذكرت هذا كله حين زرت فى الأسبوع الماضى قسم الرعاية المركزة لمرضى القلب الجديد بمستشفى الدمرداش ذلك الذى أنشاه ويرعاه

طبيبنا الكبير الدكتور حمدى السيد ، بالتبرعات وانتزاع الأظافر جمع ثمن بنائه وشراء أجهزته وبحسم شديد هو وفريق الأطباء الذين يعملون معه الأستاذ الدكتور محمد الفقى والأستاذ الدكتور عبد الخالق ثروت والدكتور مغازى طنطاوى وأطباء القلب الكبار الأستاذ الدكتور محمد عطية وحمدى الدمرداش وجلال مختار زيادى والكثيرون الذين يضيق المجال عن نشر أسمائهم جميعا وبالذات حكيمات القسم وممرضاته . هؤلاء الجنود المجهولون للرأى العام بنوا فى قلب المستشفى (الحكومى) واحة رائعة نظيفة يلقى فيها أفقر المرضى ربما نفس العناية التى كنت ألقاها فى مستشفى هارلى ستريت ، أعظم مستشفيات لندن .

ولكن الصدمة البشعة تجىء حين نغادر هذه الواحة الخاصة وننتقل إلى العيادة الخارجية بنفس المستشفى وبكل مستشفى ، حين ننتقل إلى الأقسام الداخلية ، إلى حيث تحل الوظيفة محل الرسالة وتغيب عين (الراهبة) المرأة الواهبة نفسها تماما لتلتقط الخطأ أنى وجد الخطأ ، والقذى أنى وجدت القذارة .. هذه مهمة لا يمكن أن يقوم بها إلا متطوع أو متطوعة .. ومن أجل هذا العمل وحده .

سيدتى فى النوادى المذكورة وفى كل حى من أحياء القاهرة و كل مدينة من مدننا .. يا من تملكين بعض الوقت ، لماذا لا تلتقين مع جاراتك وصديقاتك وتكونّ — وفى الحال — نواة لجمعيات : صديقات المستشفيات . تأخذن الأمر مأخذ الجد ، وتعملن شيئا من أجل مريض قد تتوقف حياته على يد حانية عن إيمان تساعده ، ومتطوعات جادات بقروش قليلة ممكن أن يحلن مستشفياتنا إلى أماكن ، لا أقول يصبح

العلاج فيها مثاليا ، ولكن على الأقل تصبح أماكن رعاية نظيفة لا يموت الناس فيها قذارة أو إهمالا ..

سيداتى : أكتب هذه الكلمات فى الليلة العظيمة — ليلة القدر — وعشمى أن تكون أبواب السماء مفتحة لكلماتى ورجائى وأن تهبط من السماء على قلب كل منكن شعاعة نور تفتح لها الطريق أمام عمل إنسانى هائل ينتظرها ..

* * *

« غنى » يا عبد الحليم

قد مات شهيدا يا ولدى من مات فداء للمحبوب .. اصدح يا عبد الحليم وغن ، فالمتعة قد بدأت تتسرب إلى نفوسنا الجافة ، نفوس تيبست فلا أحد يرويها والحر اللافح يشويها .. والدنيا ركام من الأهوال والمشاكل .. غن يا عبد الحليم فلعل وعسى ، لعلها ساعة نستريح فيها ، يبدأ الأخضر يغطى على الأصفر ، ربما نبت برعم .. غن يا عبد الحليم فموسيقاك جميلة ، والموجى رقيق وشاعر الموسيقى الشعبية وأورج مجدى الحسينى وكأنه النشوة .. غن أيها الناحل الأسمر فى بدلتك البيضاء الجميلة ، زنبقة من قلب طيننا البنى ، أعرف كم تعانى وتقاسى وكم قاسيت لتشرخ التربة وفى عناد تشق الطريق وتصعد وتتبوأ مكان النغمة جميلة العذاب فى قلوب الملايين والملايين .. غن يا بلدياتى .. يابن القنايات الذى استولى على القاهرة بلا جيش أو انقلاب . وحكم العواصم العربية بلا حسب أو نسب أو مخابرات ، بأغنية الحب ، يقولها لقلوب وألسنة رغم كثرة (كلامها) عن الحب و (استعمالها) للحب لا تحب ، ويتسرب صوتك إليها هامسا ، ودودا لا تجفل منه ولا تنكمش ، إذ هو صوت يحرض على الحب ، وحتى لو حرض على اللوعة والأسى ، فهو ذلك الأسى الجميل الذى يمهد لتقبل الحب وزرع الحب ، وحب الحب ..

غن يا عبد الحليم ، رغم كل شىء غن ، واقرأ لنا يا نزار العظيم فنجاننا المقلوب ليس بيد قارئة ، وإنما بيد زمن غادر ، ومؤامرات وانقلابات ، ودماء من كثرة سيلها وشدتها ، قلبته ، وقلبتنا معه ، فهو مقلوب ونحن مقلوبون معه نقرؤه . فنقرؤه أيضا بالمقلوب .

غن يا عبد الحليم ، فهى دقائق متعة ، فعلا أحس ويحس معى الآخرون بالمتعة ليتها كانت متعة التخدير ، ولكنها للأسف أو لحسن الحظ ، متعة مفتوحة الأعين ، مفتوحة الذاكرة ، مفتوحة الوعى .. أعرف أن دماء غزيرة تسيل فى بيروت .. أعرف أن الإسرائيليين نجحوا فى اختطاف الطائرة المخطوفة وقتلوا الأوغنديين والمختطفين .. أعرف أن ستمائة قتلوا فى يوم واحد فى السودان ، أعرف أن الدماء تسيل من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب فى وطننا العربى ولكن ، غن يا عبد الحليم ، غن فلربع قرن من الزمان أيها الناس ونحن بلا يوم راحة ، نحيا فى جهنم الحرب وجهنم الثورة وجهنم الانقلاب ، وجهنم الحكم العرفى ، وجهنم البيان رقم واحد ورقم مليون ، نجوع ونموت ، نمرض ونموت ، نثور ونموت ، ننتكس ونموت ، ننتصر ونموت ، نموت ونموت .. غن يا عبد الحليم واقرأ لنا الفنجان يانزار .. قد مات شهيدا يا ولدى من مات فداء للمحبوب .. ليتنا هذه الأنواع من الشهداء . إنما نحن فى معظم الأحيان شهداء الرعونة ، وشهداء أيدينا وسيوفنا ، شهداء حكمنا الوطنى وحكوماتنا المختلفة أو المتفقة ، شهداء آلاف وملايين النوازع الصغيرة التى يحفل بها إنساننا وعالمنا العربى ، شهداء الأعداء الأذكياء الذين يلعبون بنا على الدوام و لم نلعب بهم إلا مرة ، شهداء عقول من

فرط رجعيتها تحجرت ، وأقوال من فرط تخفيفها من معانيها نصبت أقفاصا من حديد ، وقيودا ، شهداء عصر « الاستقلال » نحن ، فى كل كفاحنا ضد الاستعمار الأجنبى بقديمه وحديثه لم نخسر جزءا من خسارات كفاحنا ضد أنفسنا وكله — ويا للغرابة — باسم الشعب وكله باسم الثورة ، وكله تحت أروع وأضخم وأمجد الشعارات .

غن يا عبد الحليم ، فلم يبق لنا إلا أن نسمعك .. مقدورك يا ولدى أن تبقى مسجونا بين الماء وبين النار . مقدورنا أن نبقى مسجونين مخنوقين بين الدم القريب الذى تحول إلى ماء وبين نار العدو التى تحولت إلى جحيم .. وبرغم جميع حرائقه ، برغم جميع سوابقه وبرغم الريح ، وبرغم الحب سيبقى يا ولدى لحين ، سيبقى يا عزيزى نزار ، فى أى مكان من أرضنا يبقى ، فى أى كوخ ، وكل كوخ ساكن فيه الحزن والحقد والدم ليل نهار .. صدقت فقط حين قلت مقدورك أن تمضى أبدا فى بحر (الحب) بغير قلوع ، وتكون حياتك طول العمر كتاب دموع .. أو تكون الراء قد سقطت سهوا منك وتكون تقصد بحر (الحرب) .. وأى حرب .. حرب لا معنى لها بالمرة ..

أنا أفهم أن نحارب الاستعمار .. أما ما يحدث الآن فأنا لا أفهمه أبدا .. إلا إذا كان الشعار الأمريكى المعروف : دع الآسيويين يحاربون الآسيويين ، قد طبق ، وبنجاح هذه المرة ، فى عالمنا العربى بنجاح ساحق ماحق .. اذبح واقتل ، بالهوية وعلى الهوية ، لنعد القهقرى إلى الحروب الصليبية ، كل ما فى الأمر أن الغزاة هذه المرة قادمون من الداخل ، وليس فيهم (قلب أسد) واحد ، إنما هى قلوب نعام وذئاب

وكلاب .. غن يا عبد الحليم .. الحب سيبقى يا ولدى أحلى الأقدار ، كده يا نزار ؟ ما لقدرنا إذن انعوج وانحرف وأصبح القتل عندنا أحلى الأقدار .. وحبيبة قلبنا يا ولدى ليس لها عنوان ، فهى فى كل مكان ، وشاعرنا الكبير هو الآخر بلا عنوان ، فأنا أريد الكتابة لنزار ، فأين نزار ، وتحت أى شعار يقف ؟ .. ربما يموت شهيد شعار .. من مات فداء للمحبوب استراح وربما أيضا أراح ، أراح المحبوب بالذات ، فالناس لا تحب لتستشهد أو تموت ، الناس تحب لتفرح وتستمتع وتسعد ، الناس تحب لتنطلق وتمرح ، الناس تحب فعلا لا قولا ، الناس لا تحب لتبقى مسجونة بين الماء وبين النار ، الناس — كل الناس — ما عدانا ، فالحب حدانا حزن ساكن فينا ليل نهار ، ودموع غزار ومرار ، ونعيق سمج مدرار .

غن يا عبد الحليم ، أمتعنا قليلا وسط دوى الرصاص الأعمى ، حمام الدم يتخلط على أعيننا وأيدينا ويحنينا ويخضبنا بالسواد ، ولا نملك سوى المداد ، وأضغاث مداد .. ويأخذ وزراء الخارجية العرب قرارا بإيقاف القتال (فورا) يا سلام .. وتشتبك قوة (السلام) الليبية ، مع قوة (السلام) السودانية انتقاما لمذبحة السودان فعلا يا جامعتنا العربية (فورا) هى الكلمة . (فورا) يتم الانعقاد ، ولا انعقاد .. فورا يتم القرار بلا نفاذ لأى قرار .. فورا إذا أرادت مصر توقف الهجوم على السودان الحبيب ، ولكن (فورك) أيتها الجامعة الكبيرة ليس له من قرار حتى لو كان بقرار .

غن يا عبد الحليم ، وقل يا نزار .. ماذا تقول الآن يا نزار ؟ .. وإذا

كان صديقك المشعور فيه قد استشهد حبا وأثار قريحتك فماذا تفعل القريحة حين يستأصل شعب ويستشهد الناس حربا ، حربا مغلوطة ، حربا منتحرة ، حربا مجرمة لأنها حرب من الاتجاه الخاطىء ، حرب الصديق للصديق ، حرب الإخوة المصابين بلوثة وكأنهم يعانون من مرض خبيث وراثى .

غن يا عبد الحليم ، فعندنا نحن الآخرين حرب ، قنابلها مقالات واتهامات ، وضحاياها شعب مضيع نقلوه بالشعارات والتلويح بأقدس المقدسات ولم يبق إلا أن يقيموا له المأتم ويهيلوا فوقه التراب .

غن يا أخى ، أمتعنا لحظة ، لحظة زمن واحدة . لشعب ما أقل ما عاش ، وما أقل ما يستمتع بالعيش إذا عاش ، حتى لقد أصبح الموت هو فرحة المتعة الباقية .. غن يا عبد الحليم ، فربما النسمات المتصاعدة من قلبك الفواح تغطى على الطفح ، طفح النفوس .. وطفح الجلود ، غن ، وكان غن ، فقد أفلت الزمام ، ولم يعد أحد يستطيع وحده أن يصنع شيئا ، مهما قال أو كتب أو فعل ، الحريق الأعظم بدأ ، وجهنم قبل ميعادها انتصبت « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه » ودولته التى تأويه .

غن يا عبد الحليم ، فقد استمتعت بك ساعة ، وربما ملايين معى اختلسوا هذه الساعة الممتعة !

غن ، فقارئتك لم ولن تقرأ أبدا فنجانا يشبه فنجانك . رأت ونجمت كثيرا ولكنها لم ولن تعرف أحزانا تشبه أحزانك .. والحزن أبدا ليس علينا بغريب ، إنه دمنا ولحمنا وطعامنا وشرابنا ، نحفظه ونرعاه ونعتنقه

ونحتفظ به كما نحفظ ونقدس التراث . كل ما فى الأمر يا عبد الحليم ويا نزار ويا قارئة الفنجان .. أنى أنا هذه المرة ألمح الحزن وقد أخذ سواده الفحمى يتحول إلى جمرة نار والفنجان من كثرة ما حمل فيه من بن أسود قد أخذ قاعه يثقل ليستعد للاعتدال ..

* * *



رأس الملك الأبيض

كش ملك .. مات . يا العبقرية اللاعب الذى أنهى وجود كل قواتك تقريبا .. ملك ووزير وأحصنه وطابيات وأفيال وعساكر ، بحركة صغيرة ، بحركتين ، بثلاث على الأكثر ، تجد ملك (الأبيض) قد اختنق فى خانته تماما وانتهت اللعبة . أنت مثلى لا تتقن الشطرنج وأنا مثلك لا أتقن السياسة ، ولا أعرف التفاصيل ، وليس عندى جهاز معلومات أو اطلاعات ، ولهذا فنحن سنلتقى حتما عند هذا الجهل وبالجهد المشترك .. فنحن فى سبيلنا إلى إعادة النظر فى مشكلة مثيرة ، مهمة وحيوية .. وأخطر قضايا العصر على الإطلاق بالنسبة لنا ، ليس بالنسبة للعالم العربى فقط وإنما حتى بالنسبة لأخص مشاكلنا الداخلية فى كل بلد .

نحن فى سبيلنا إلى رؤية القصة (اللبنانية الدامية) من وجهة نظر عربية وجديدة علينا تماما ، وجهة نظر متفرجين بعيدين تماما عن الاندماج .. ليس لأن هذه النظرة هى الطريقة (العلمية) الوحيدة (لإدراك) حقيقة ما حدث ولماذا حدث ما حدث ولماذا يظل حادثا ما يحدث ؟ .. وسيظل ، ولكن ، لأننا أيضا وبصراحة هكذا أصبحنا فعلا وبحكم الواقع متفرجين .. وإلا ، فقل لى بذمتك ما هو دورك أو دورى أو دور أى مواطن ، هنا أو هناك ، فى هذا الذى يحدث فى لبنان ؟ .. أنت لا تتحرك وأنا لا أتحرك .. هى تقرأ وتمصمص الشفاه .. وهو تولت أرقام

القتلى المتوالية كل يوم تنويم إحساسه مغناطيسيا بحيث يتلقاها كما يتلقاها النائم ، أضغاث أحلام . هجوم جديد . مائتان وخمسون قتيلا وكذا مائة جريح . وكأنها أرواح ودماء مئات الدجاج وليس البشر .. المشكلة إذن خرجت من يدنا ، بل هى أخيرا لم تكن فى يدنا .. وكان الزعيم اللبنانى كمال جنبلاط لاذعا تماما ومندوب إحدى مجلاتنا يسأله : ما رأيك كيف ستكون نهاية الحرب فى لبنان وماذا يترتب عليها من نتائج ؟ كان خفيف الدم تماما وهو يقول : اسألوا الفلكيين فى مصر .. ويقصد العبقرى الفلكى أو التونسى الفلكى لا أعرف .. إذن هذا هو أحد أطراف المعركة الرئيسية ، هو الآخر مثلنا ، خرج الأمر من يده .

بل حتى ولو توقفت الحرب فى هذه اللحظة . الآن مثلا — وهذا احتمال مستبعد طبعا ، أنكون قد خرجنا من المستنقع اللبنانى سالمين ؟ أم نكون قد خرجنا بأكبر عدد من الضحايا شهدته ساحتنا منذ حروب التتار والحروب الصليبية . ومنا فينا ، وبأيدينا خرجنا مثخنين بأبشع ما تزدحم به الصدور من جروح وضغائن ، خرجنا بخسارات ضخام لا يمكن أن نتبين مدى ضخامتها وبشاعتها الآن وربما فى المدى القريب .

الجرح اللبنانى إذن مغور (الآن) فى صدورنا ، حتى لو توقفت الحرب .. ولأن الكارثة حدثت ، والخديعة تمت ، فلا يبقى الآن لمتفرج مثلى ومثلك ومثل الزعماء : كمال جنبلاط وياسر عرفات ، مثل حافظ الأسد وبيار الجميل وسركيس ، مثل مواقف مصر والسعودية والكويت وليبيا والعراق والجزائر ، مثل مواقف المائة والعشرين مليون عربى ، إلا أن نعرف كيف خدعنا وكيف أمكنهم أن يفعلوا ذلك بنا وأن نقبل ذلك

بأنفسنا ، لا لنتذكرها عبرة طوال التاريخ المقبل ، وإنما لنتدبر الحادث لكل منا الآن ، فى كل بلد عربى وليس على مستوى السلطة والقيادة فى كل منها ، وإنما حتى على المستوى الفردى الشخصى الذاتى ، لى ولك ولها وله !

فما حدث خطير .. خطير .. خطير ..

وما يحدث وما يمكن أن يحدث أخطر .. وأخطر .. وأخطر ..

ولنتدبر ما حدث ..

ولكى نتدبر نتعلم معا لعبة الشطرنج ..

* * *

فى لعبة الشطرنج يكون أهم أهدافك أن تخفى (هدفك) عن عدوك ، وقد لعبتها قواتنا المسلحة المصرية ببراعة فى عبور ٦ أكتوبر فلم تتصور إسرائيل للحظة أن هذه التمرينات الروتينية على عبور القنوات (الصناعية) والطبيعية يمكن أن تنقلب فى ساعة صفر إلى عبور (حقيقى) .

إخفاء الهدف ـــ إذن ـــ أمر مهم تماما . ليس فقط فى لعبة الشطرنج ، وإنما فى لعبة السياسة والحرب والاغتيال . فنحن نحيا فى عصر الغدر . انتهى تماما عصر (إعلان) الحرب واللقاءات الشهمة فوق أرض المعركة .. فالغدر أقوى الأسلحة ، وبالغدر حاربتنا إسرائيل كل حروبها .. بل وعقدت أحيانا هدناتها واتفاقاتها ، ومنهم تعلمنا وسنتعلم أكثر . ذلك أن الغدر طريق لا نهاية له ، فإخفاء النية ممكن أن يتخذ أشكالا لا عد لها ولا حصر .

والحق أنى مثل غيرى من ملايين المواطنين ، لم أتصور أن هذه الاحتكاكات الأولى فى لبنان ممكن أن تصل إلى قمة المأساة التى نقف فوقها أو تحتها اليوم .. ذلك أنها كانت تشبه حركة العسكرى أو البيدق الأولى . حركة بريئة لا يقصد بها سوى التقدم خطوة . لا يمكن أن نتصور أن هذه الحركة ما هى إلا مقدمة لإفساح مجال (الوزير) الأسود كى ينقض . وحتى لو تابعت حركة الوزير فلن تفطن أبدا إلى أن الهدف النهائى هو رقبة الملك (الأبيض) وكلمة : كش .. مات .

لن أقول الآن من هو الملك (الأبيض) . ومن هو الوزير (الأسود) فنحن نحاول حل معضلة ، أو ربما استخلاص قانون . وفى مجال العلوم يحدث هذا بتجريد الأشياء والموجودات من محتواها المادى والمعنوى وإحالتها إلى رموز رياضية وحلها كمعادلات رياضية بحتة .

ونحن الآن قد جردنا الرقعة من الجثث ، ونظفناها من الدماء لنرى الأبيض من الأسود فيها ، وأحلنا القوات إلى رموز شطرنجية ، وإذا كنت سأذكر اسم هذا اللاعب أوذاك ، أو اسم تلك القوات أو تلك فأرجو أن نجرد الأمر أيضا من فكرة الاتهام ذى الوثائق والحيثيات ، ذلك أننا الآن لا نحاكم ، بل حتى لا نتقاتل ، نحن كما أود أن أذكر مرة أخرى ، نراقب (اللعبة) .. وكيف (لعب) بنا ، (بضم اللام أو فتحها ، أنت حر) .

* * *

بدأت النقلة الأولى .. تحركت القوات اليمينية حركة ، ورد اليسار اللبنانى .. عسكرى بعسكرى .. أكل العسكرى عسكريا .. انطلقت

الأفلام المجيدة فى الصحافة العربية تتحدث عن الصراع بين (اليمين) و (اليسار) فى لبنان ، باعتبار المشكلة مشكلة (طبقية) .

(من المحتم على أن أذكرك معى بأن الهدف الخفى كان — وربما لا يزال خفيا — وهو : كش ملك .. مات .. للملك الأبيض) .

بدأنا إذن نتناول نحن ، أقصد عباقرة المحللين والمنظرين والعارفين ببواطن الأمور ، نتحدث عن الصراع بين اليمين واليسار فى لبنان . عن اليمين الغنى الذى يملك كل شىء ، وعن اليسار المظلوم المهضوم الذى يسيطر على جماهير واسعة من الشعب اللبنانى .

وما دام الأمر هكذا ، فالمقاومة الفلسطينية كانت حكيمة جدا حين أعلنت بصراحة ووضوح فى هذه الأيام القليلة جدا الأولى ، أن هذه مشكلة لبنانية داخلية ، وأنها — المقاومة — ستبقى بعيدا عن ساحة الصراع الطبقى اللبنانى .

ولكن لأن هذه لم تكن إلا الخطوة الأولى ، فقد كان لا بد أن تعقبها الخطوة الثانية البسيطة جدا . وهى إضافة كلمة المارونى إلى اليمين والمسلم إلى اليسار ، وهكذا صعد الصراع إذن إلى مرحلة أن أصبح بين اليمين المارونى واليسار المسلم .

إذن المشكلة التى بدأت (طبقية) أو أوحى إلينا أول الأمر أن المشكلة طبقية ، سرعان ما تحولت إلى مشكلة طائفية ، لماذا ؟ لكى يستدعى إلى ساحة المعركة كل التراث الطائفى الذى يلتهب من زمن تحت الرماد .. كل النعرات والصراعات والصغائر الطائفية اللعينة الكامنة منذ مئات السنين والتى — للأسف — لم تتول فكرة وطنية حقيقية إذابتها وإزالتها

من الوجود ، تدفقت مرة واحدة إلى الساحة وبغزارة متزايدة .

وبدا كأن الحرب أصبحت تماما بين — ليس المارونيين والسنة والدروز — وإنما بين المسيحيين أجمعين وبين المسلمين أجمعين .

وهكذا كما توسعت رقعة الاستقطاب العالمى . فأى مسلم بطبيعة الحال لا بد أن ينصر المسلم ، وأى مسيحى بطبيعة الحال لا بد أن ينصر بقلبه المسيحى ، وأصبحت صحف وإذاعات وتليفزيونات العالم ونحن من بينه ، نتحدث عن الحرب الصليبية الجديدة بين المسيحيين والمسلمين . كل ما فى الأمر أنها حرب صليبية عربية هذه المرة ، زيتها فى دقيقها ، وشهداؤها هم القاتلون والقتلة معا .

هنا كان لا بد أن تأتى الحركة من جانب المقاومة .

(وأيضا لا تنس معى أن الهدف النهائى هو اغتيال الملك الأبيض) ..

فإذا أبقت المقاومة على موقفها (المحايد) من هذا الصراع بين اليسار (ولو كان مسلما) وبين اليمين (ولو كان مسيحيا) . لو وقفت على الحياد بين التقدم والتأخر ، وبين التحرر والتبعية ، إذن لفقدت صفتها كمقاومة وقيمتها كقوة ثورية عاتية ليس فى لبنان وحده بل وفى المنطقة العربية كلها .

إذن لا بد أن تأخذ المقاومة موقفا .

لابد أن تتحرك قطعة الشطرنج . فالهدف الخفى الأول (إذ دائما هناك الهدف الأخفى والأعظم) هو إخراج المقاومة من جيوبها وخنادقها واستحكاماتها إلى الساحة المكشوفة .. الهدف .. جر رجلها .. مجرد الرجل ، وستتوالى الحوادث والأحداث وتصعيد المواقف ، وسيتولى

اللاعب العبقرى ، مهمة التحريك . وفى الوقت المناسب ، وخلق الظروف التى لا يمكن معها إلا أن تتحرك كما يريد هو حتى ولو لم ترد أنت .

(بركم راجعوا هذه الجملة مرة أخرى ، وخصوصا أنتم يا سادتنا الساسة) .

* * *

وجود الناس فى أرض الناس ، حتى لو كانوا أهلا وأشقاء ، دائما أمر وإن احتمل لفترة فهو أمر مستثقل . ووجود الفلسطينيين فى لبنان ليس مسألة طارئة أو تاريخية يرجع ربما إلى سنوات ثورة ٣٦ وقبل ٤٨ بكثير . وجاءت الحروب المتعاقبة بآلاف جدد من المهاجرين ، ثم كان من المحتم أن يصبح الوجود (مسلحا) ليدافع عن نفسه لقصور الجيش اللبنانى الرسمى عن حماية حتى اللبنانيين فى الجنوب أنفسهم . وهكذا نشأت التنظيمات المسلحة وعلى رأسها (فتح) والجبهة الشعبية بل و (تعرب) التسليح وخلقت منظمات وتنظيمات وعشرات (الجبهات) المتحدة والوطنية والثورية والفوقية والتحتية ..

أقول هذا كمقدمة لا بد منها لكى أقول إن جر ساق المقاومة الفلسطينية كان معناه دفق كميات وافرة من مخزون الحزازات التى قامت بالنسبة للوجود الفسلطينى على أرض لبنان . آلاف الحزازات الصغيرة والكبيرة يضاف وملتهبا إلى الحزازات الطائفية والعرقية والعشائرية والمارونية والسنية والأرثوذكسية والدرزية والشيعية والعلوية والكاثولوكية والغربية والشرقية والعربية والعراقية والسورية والبعثية

والشيوعية والقومية والشعبية والفتحية والصاعقية والنضالية والأيلولية الأسودية ، إلى آخر قائمة لا تنتهى ويبدو أنها لن تنتهى أبدا ..

وإننى — فى أسى هائل — لا أملك إلا أن أعجب بعبقرية اللاعب فقد (ضحّى) كما يقولون فى الشطرنج ، فى هذه الحركة ، جر ساق المقاومة ، بثلاثة أرباع الرقعة .

استطاعت القوات الفلسطينية ، اللبنانية التقدمية أن (تكتسح) فى أسابيع قليلة وتستولى على ما يقرب من ٨٠٪ فى المائة من مساحة لبنان وبدا كما لو كان لبنان موشكا على الوصول إلى رحلة (الديمقراطية الشعبية) بقيادة كمال جنبلاط وياسر عرفات . أقول (بدا) لأن هذا هو المهم . فقد كان من المهم تماما أن تنجر ساق أكبر إلى ساحة الرقعة .. ساق سوريا (التقدمية) وإلى جانب من ؟ . إلى جانب اليمين و (ضد) القوات التقدمية المتحالفة .

أليس — بذمتكم — لاعبا عبقريا ، ذلك الذى اختزن السلاح (الشيوعى) الروسى ليضرب به القوات (التقدمية) فى لبنان ، وروسيا جالسة كالدب الكبير الحائر ماذا يفعل ؟ بينما الآخر ، (بلعب) وأى لعب يلعب .

ولكن هذه كانت مجرد حركة ، ولا تنس معى فى النهاية أن الهدف هو رأس الملك الأبيض .

* * *

ألفان من الجنود والمعدات ، ثم أربعة ، ثم خمسة ، الساق تخوض الساحة العربية تصطخب وتجأر وتثور وتفور . الدنيا كلها قامت ولم

تقعد ، الحرب التى بدأت (طبقية) لبنانية محضة تصبح بعد قليل حربا طبقية طائفية إسلامية مارونية ، ثم حربا مسيحية يمينية ضد تحالف إسلامى تقدمى ، ثم حربا إسلامية علوية مارونية سورية كتائبية ميليشية جميلية شمعونية فرنجية ضد قوات تقدمية بعثية شيوعية درزية شيعية سنية فلسطينية لبنانية ليبية عراقية جزائرية مغربية سودانية ..الخ ..

الهدف اغتيال المقاومة الفلسطينية ..

وكل ما سبق وحدث إنما هو الانقلاب . صحيح أريقت دماء وولدت جراحات لا تندمل ، ولكن ، لا اليمين الليبى بكل فئاته ولا أى قوة أخرى داخل لبنان أو حتى خارجه كان باستطاعتها أن تقوم بهذا العمل القذر .

كان لا يمكن أن يحدث هذا إلا على يد جيش حديث مدرب ، وعربى ، وهذا هو المهم تماما ، ليس مهما أن يكون الخنجر من واشنطن أو موسكو ، إنما المهم أن تكون اليد (عربية) . لتكون الجريمة كاملة ، بحيث لا يمكن أن يترك الفاعل الحقيقى أثرا ، وبحيث من الممكن ليس فقط أن تباد المقاومة فى لبنان ، وإنما أن يختفى أثر الوجود الفلسطينى فى العالم العربى ، ويباد ، بأيد عربية أيضا ، بحيث أن ما يحدث فى لبنان يتكرر وبأشكال أخرى فى بلاد عربية أخرى بل وعلى مستوى عربى عام ، الحساسيات اللازمة موجودة ومتوفرة بكثرة ، المناخ موجود ، الصراعات الرهيبة قائمة وموجودة،التفاوت الطبقى والصراع الطائفى والعرقى والعشائرى بخير كثير والحمد لله .

والآن الملك الأبيض فوق جبل لبنان ، وحده ، فى خانة السيك

الأخيرة . والوزير وإن كان أبيض إلا أن ما سميناه الوزير الأسود يقول ، دون أن يقول ، فهو لا يقول ، إنه فقط (يحرك) ، بلا كلام ، والشطرنج أبدا ليس فى حاجة لكلام ، يقول كش .. مات .

يقولها بخنجر (روسى) وبيد (عربية) وأمام الملأ كله .

وكأنما هو ضامن أن أحدا لم يعد يستطيع شيئا ..

* * *

أكان غلاة المتخيلين يتصورون هذا ؟ .

أكان أحدا فى عام ٧٤ أو ٧٥ أو حتى أوائل ٧٦ يتصور أن المقاومة ستغتال فى لبنان ؟ ..

هذا التداعى الخطير للأحداث ، هذه الـ Master Plan .

هذا الإخفاء الخطير للهدف ..

كيف (لعب) بنا ، كلنا ؟ ..

وكيف لا يزال (يلعب) بنا ..

إن اللاعب على وجهه قناع ، لا أستطيع أن أتبين تماما من هو . هل ، هل تستطيع أنت ؟ ..

تبدأ الألعاب كلها فى لعبة الشطرنج بنقلة ..

وفى (شطرنجنا) العربى كما رأينا ، يبدو أن الموضة أصبحت أن النقلة الأولى هى إطلاق صرخة : الذئب الذئب .. اليسار اليسار . اليمين اليمين ..

أم أنى جاهل فى السياسة مثل جهلك فى لعبة الشطرنج ؟ ..

* * *



أحقا أحلى مذاقا من العسل ؟!

لا أعرف ما هو سر ذلك الدقيق أقول الغبار المثبط الذى يتسلل داخل وحول خلايا جسد الإنسان ومخه فى بلادنا . كنت وأنا مسافر — و لم يمض على سفرى هذا أكثر من شهر — وأنا أنظر من نافذة الطائرة أو العربة أو القطار ، وأنا سائر أحث الخطى فى قلب شوارع لندن أو باريس أو حتى قرية أوربية نائية ومتواضعة ، كنت وأنا أرى الغابة أو النهر الصغير ، وأنا أرى الشاب والفتاة والرجل والطفل والمرأة سائرين هائمين مسرعين فى الشارع ، كأن عقلى يشبه معمل الأفكار المزدحم ، تتوالد فيه الأفكار بمعدل فكرة فى كل دقيقة ، وترتبط وتتناغم ، ثم فى أحيان كثيرة أخرج باستنتاج رائع هائل ، تفد إلى الموحيات والأفكار وكأنها طيور النورس قادمة فى أفواج تلو أفواج لبحيرة عقلى المليئة بالسمك والطعام تصفق بأجنحتها وتهفهف وتصطخب ، تزغرد وتلهو وتتعابث وتتلاقح ، تصعد فى السماء وتهبط إلى الهدف فى سرعة انقضاض البرق .

أكثر من عشرة أفكار قصص قصيرة تعن لى ، مشاريع لتغيير مجرى الحياة تماما ، مغامرات فكرية ونفسية تتفجر فى أعماق ، إقبال على الحياة منقطع النظير ، خطط لمدى بعيد وقريب ، تجميع لماضىّ وحاضرى ومستقبلى يلتقى عند النقطة التى تركز وتقطر العمر وتحصل منه على ثمرة أو تراجع موقعه من الكون أو الحياة ، حركة دائبة فى اتجاه التحقيق

الفورى لكل ما أراه يصلح من أفكار أو مشاريع ، إقدام لا حد له ، اندفاع ، أعقل اندفاع مجنون فى اتجاه المستقبل وتحقيق الذات ، وتطوير النزوة لتصبح اكتشافا وخطة .. باختصار حياة مليئة كاملة ، أضرب فيها بأذرعى لتصل إلى أقصى المعمورة وأحلق فيها بأفكارى لتشمل مجرتنا كلها وتغوص أقدامى إلى أعمق أعماق تاريخى وتاريخ العالم ، وترتفع لتحلق فى القرن الخامس والعشرين وربما الثلاثين ..

هكذا أكون وأنا مسافر ، وأنا بالخارج ، وأنا بعيد ، وأعود ، وبقوة الاندفاع الذاتى أبقى هكذا للأيام الثلاثة الأولى أو ربما للأسبوع الأول ، مسافرا لا أزال فى الأكوان الخاصة والعامة ، خلاقا ، قادرا على تحقيق ما يجول بالخاطر ...

ثم يبدأ الدقيق الناعم ، الرمل الخفى الأصفر ، التراب الذرى المطفأ ، يتسرب .. فى العادة كنت لا أحس ولا أعى بمقدمه ، إن هو إلا هبوط تدريجى يبدأ يصيب الهمة ، تأتى الفكرة فأؤجلها إلى أن (يروق المزاج) بالليل ، وبالليل يأتى ما يؤجل روقان المزاج ، يعن لى المشروع فأقول : هذا ليس بعاجل ، وذلك ممكن تأجيله ، وما فائدة أن يبدأ الإنسان شيئا (مجنونا) كهذا ، الحياة سائرة وكل شىء ممكن أن يمضى هكذا سائرا وحده إلى الأبد ، يبدأ الغبار فعله ويبدأ الإنسان (يطمئن) إلى الواقع ثم (يركن) إليه ، ثم (يتلاءم) معه ، ويفقد الطموح فى تغييره أو الإطاحة به . تبدأ الأفكار تقل ثم تندر ثم تتلاشى ، وقوة الخلق تتضاءل ، والكتابة التى كانت مبهجة ورائعة متلألئة كالهدف الساطع الجميل تصبح عبئا ، ويوه .. لسه ح أقعد ع المكتب لأربع أو لخمس ساعات

ويؤوب الإنسان فى النهاية إلى حالة (الموت ــ الحياة) .. التى نحياها جميعا .

* * *

كنت أظن أن هذه حالتى الخاصة ، ولكنى وجدتها الظاهرة العامة المستشرية ، هناك شيء ما ، حقيقى ومروع وخطير ولكنه غير مرئى أو مسموع قائم فى حياتنا ، بيننا نتنفسه ونزفره ، ونعدى به بعضنا البعض ، نرتديه ونركبه ونلبسه ونطعمه ، شيء ما لست أدرى كنهه ، ولكنى أعرف تماما مفعوله ، شيء مثبط أو كاسر للهمة ، ومخمد للطموح ، ومضيع للهدف ، وخانق لكل فكرة ومشروع ومُثل ، قائم وماثل فى حياتنا : وهو ليس ــ كما يتصور البعض ــ خاص بمصر وحدها ، ولكنه الجو العام فى شرقنا العربى وغير العربى كله ، شيء وكأنه الإنزيم ضد النشاط وكأنه الطعم الواق من العمل والتفكير ، وكأنه قد أصبح الخاصية القومية التى تميز مرحلتنا (المجيدة) الحالية .

ما هو ذلك الشيء ؟ ..

أهو فقدان الهمة الفكرية القيادية الموحية ؟ ..

أهو هذه الأعداد الهائلة من البشر التى معها يحب المواطن منا الإنسانية مجردة ولكن بالتأكيد يكره (الإنسان) ، أو يكره هذه الكتل المتراصة من الإنسان ، تحيل ذلك الكائن الراق النادر ، أرق وأعظم وأجمل ما فى الوجود ، إلى مجرد رقم عشرى كبير ، حبذا لو يختصر معظمه أو يختفى أو يندثر ليبقى للتفرد البشرى قيمته وروعته ومجده ؟ ..

أهى الشمس الحامية الساطعة التى تجعل الواقع مضيئا تماما بكل ما فيه

من بشاعة وقبح بحيث ينعدم الجمال تماما أمام العين ، وحين لا يرى الإنسان الوجود جميلا ، أو يراه قبيحا . يتولى القبح أو انعدام الجمال إخماد حاسة الهمة والنزوة والخلق لدى الإنسان ؟

أهو الكسل الجماعى المسيطر ، يعدى ، كالإنفلونزا الآسيوية ، وحين ترى الناس جميعا كسالى أو متكاسلين ، فأى مبادرة منك لا بد مصيرها الاختناق والإهمال ؟..

والكسل الجماعى هذا فى رأيى نقطة هامة ، إذا كان بعض الناس يفسرون التاريخ بالعوامل الاقتصادية ، وهناك من يفسرون التاريخ تفسيرا نفسيا ، فإن لى تفسيرا لهذه المرحلة من تاريخنا اسمه التفسير الكسلى للواقع والتاريخ . كل شيء ممكن أن نفسره بالكسل حتى استلقاء متفرجنا فى مسرح أو سينما أو أمام تليفزيون ليتفرج على عمل (فنى) عبيط يقهقه له قهقهات حنجرية جوفاء سببه الكسل عن أن يقرأ كتابا أو يشهد عملا يضطر معه أن (يعمل) عقله فيه و (ينشط) .. حتى التحلل والانحلال لنزوله باستسلامنا كسالى للذة لا لذة فيها :

أم يكون السبب أننا مطحونون تقديريا ، سواء التقدير المادى أو الأدبى . بحيث يتساوى من يعمل بمن لا يعمل ، وبحيث أن من يعمل لا ينال إلا الفتات على ما يعمل ، ومن يكسب حقا هو من يرشو أو يرتشى أو يختلس أو يتاجر فى السوق السوداء.. أو يأخذ العمولة ، وكلها أكسل الوسائل للحصول على النقود . فهى ليست رأسمالية طموحة نشطة تقيم المصانع وتغذيها إرادة هائلة لبناء صناعة أو تجارة أو مشروعات ، وإنما هى رأسمالية كسولة هدفها الربح من أكسل طريق ، أى أسهل طريق ..

أم هى المشاكل الصغيرة الصغيرة التى تستحيل كل منها إلى مشكلة كبيرة كبيرة حين لا تستطيع أن تجد لها حلا ، وتتولى ، كذرات الدقيق والرمل والغبار الصغيرة والكبيرة الترسب فى مفاصلك الفكرية والنفسية لتحيلك فى النهاية إلى ذلك الكائن المقعد إراديا أو بلا إرادة ، المتكل على الله فى النهاية أن تحل المشاكل نفسيا وما عليك إلا أن (تصبر) عليها .

وآه من ذلك الصبر الذى يحفل به تراثنا الفكرى والشعبى . إنه ذلك العدو القاتل للإرادة وللعزيمة . الصبر . ذلك الاستسلام الممرض البغيض للمشكلة حتى يموت طموحك لحلها ، ذلك الاعتماد المتهافت على (الزمن) لكى يحلها أو يحلك أنت وتتحلل معه عزيمتك .

أفى تراث أى شعب فى الدنيا مثل يقول : الكسل أحلى مذاقا من العسل .. إلا ذلك التراث العظيم . تراثنا .

أم هذا كله ، مرة واحدة ، ومعا ، يكون ، ذلك الدقيق أو الغبار الذى يتسلل داخل وخارج وحول خلايا مخك وإرادتك وجسدك ، ويحيلنا إلى تلك الأشولة البشرية السمينة تتحرك فى بطء قاتل إلى اللا هدف واللا خطة واللا عجلة ولتصنع فى النهاية اللا شىء ؟ .

فيدرا .. وفريدة ..

الحظات قليلة نادرة هى تلك التى تدرك فيها عظمة وروعة الانتماء ، ليس الانتماء فقط ، وإنما ما هو أرق بكثير .. ألف إحساس وإحساس راودنى وأنا مزدحم مع أكثر من مائة مصرى ومصرية وعربى وعربية فى الغرفة الصغيرة الملحقة بجناح الممثلين فى مسرح (الأوبرا كوميك) بباريس فى أعقاب ليلة الافتتاح لمسرحية (فيدرا أرابيكا) أى فيدرا

العربية ، التى قدمتها فرقة المسرح القومى فى باريس .

وكانت الحفلة فوق حدود الروعة ، مباراة خطيرة فى الأداء والتجويد بين أكثر من قمة من قمم التمثيل المسرحى عندنا ، سميحة أيوب عبقرية الحضور والأداء المسرحى الجديدين ، أمينة رزق تاريخ المسرح المصرى ولا تزال جزءا كبيرا من حاضره ، عبد الله غيث ذلك العملاق ، فردوس عبد الحميد تلك الطاقة الهائلة مسرحا وصوتا جميلا ، وكان العبء شاقا على الشاب الجديد محمد العربى وسط هؤلاء العمالقة ولكنه استطاع أن يتشامخ ويصمد بأدائه ، صديقه ذلك الذى للأسف لا أذكر اسمه ، ليلة عربية فعلا ، فى قلب عاصمة المسرح فى العالم ، شىء لا بد يدفعك إلى أن تحس بفخر أن عندنا مواهب ، لا تستطيع فقط أن تقارب بالمواهب العالمية ولكنها فى أحيان تبزها وأحيانا فى قلب عاصمتها . كنت حاضرا لتوى من ندوة عن آداب الشرق الأوسط بدعوة من الدكتور طلعت هالمان وزير الثقافة السابق فى تركيا والأستاذ بجامعة برنستون الأمريكية حاليا ، والذى أقام وبرعاية من الأستاذ مورو بيرجر رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط بنفس الجامعة ندوة عن الأدب العربى وآداب منطقة الشرق الأوسط بالتعاون مع نادى القلم الدولى بنيويورك ، ندوة حافلة برئاسة المسرحى الأمريكى أرثر ميللر وحضرها عدد كبير من الكتاب والشعراء والمسرحيين الأمريكيين مثل جون إبدايك وميروين وإدوارد ألبى مؤلف : من يخاف من فرجينيا وولف ، وسأتحدث فى مرة قادمة بتفصيل أكثر عن هذه الندوة الهامة ، ولكن ما أريد الآن قوله أن الأدب العربى كان ممثلا فى هذه الندوة بالأستاذ يحيى حقى والدكتور إحسان عباس

والشاعرين الكبيرين أدونيس وعبد الوهاب البياتى و كاتب هـذه الكلمات ، ناهيك عن (سفيرة) الأدب العربى الدكتورة منى ميخائيل التى قامت بعملية الانتقاء والترجمة .

النماذج الشعرية والقصصية والنقدية العربية التى قدمت أذهلت الحاضرين ، أمريكان وغير أمريكان ، حتى لقد جعلتنى أحس أن أدبنا العربى الحديث مظلوم فى عالمنا المعاصر ، ونحن أول ظالميه ، فنحن لا نبذل جهدا فى ترجمته إلى اللغات المنتشرة ، وتشجيع طبعه وتداوله فى كل أنحاء العالم . إنه مفخرة لأى شعب متحضر تكاد تنحصر فيه كل إسهاماتنا فى الاختراع والابتكار والإضافة إلى التراث الحضارى العالمى .

كنت حاضرا من ندوة أحسست فيها — ربما لأول مرة — بالفخر أنى كاتب وأنى كاتب عربى ، وهأنذا الآن فى مهرجان مسرحى مصرى فى اللغة العربية فى قلب باريس . لحظة من اللحظات القليلة التى ترى رأسك وقد شمخت ، وتعالت فوق أمواج المحيط المتلاطم من الضياع التى تحيا فيها فنوننا وآدابنا وعلومنا وإنساننا بشكل عام ، ترفع رأسك عن جدارة .. وعن إحساس قوى أننا ممكن ، بل نحن فعلا ، شىء كبير وعظيم فى هذا العالم .. والقاعة مزدحمة ، والتدخين كثير . والحضور فى بهجة لامعة بالعرق والتأثر والانفعال والضحكات والتحيات والقبلات والأحضان ، نهنىء بعضنا البعض وكأنما نكتشف أنفسنا لأول مرة . سعيدون تماما أننا نحن .. وأننا هنا .. وأننا نصل وسنصل ..

كنا هكذا حين قابلنى الصديق الفنان سعد الدين وهبة رئيس البعثة الفنية إلى باريس : أتعرف هذه السيدة الواقفة هناك ؟ ..

نظرت إليها بإمعان . وهززت رأسى ببطء ، فلم أكن أعرفها .

قال : هذه هى (الملكة) فريدة .

— الملكة فريدة ! ..

فى الحال انشق فى ذهنى شريط طويل من ذكريات مريعة عن عصر الملكية ، والملكة الجميلة الأولى ، وفاروق ، والطفل الصغير الـذى كنته .. وأبى يرفعنى فوق أكتافه فى ميدان الأوبرا لأشهد مـوكب التتويج ، ثم الزواج ، وتلك الصورة التى كانت تباع بقروش للعروس الملكة والتى اشتريتها وعلقتها فى عروة جاكتتى الصغيرة .. إذن هذه هى الملكة فريدة ..

قال سعد الدين وهبة : أعرفك بها ؟!

وقدمنى إليها ، وفوجئت أنها لا تعرفنى فقط وإنما تواظب على قراءة ما أكتبه وما يكتبه المصريون والعرب .

ومرة أخرى عاد الشريط يلف فى رأسى بعد أن أصبحت الملكة الرسمية وبدأت صورها تظهر فى الصحف صور (رسمية) جامدة . جميلة .. هذا صحيح .. ولكنه ذلك الجمال المتعالى والذى يجب أن يكون ملكيا ومتعاليا ، باختصار .. غير إنسانى .. وأستغرب أنا وأتألم وقد فقدت فى رأيى البنت الحلوة التى كنت أعلق صورتها فى عروتى ، وها هى قد أصبحت (ملكة) .. لا يبدو على وجهها — رغم ابتسامتها — أى سعادة بالمرة .

والآن ها هى أمامى .. سعيدة كما لم أر إنسانة سعيدة هكذا .. كيف والهالة الملكية قد غادرتها إلى الأبد ، وهى الآن مجرد مواطنة وفنانة

ترسم ، وقارئة ، وقادمة مثلها مثل أى فنانة أو مواطنة عادية تحتفل معنا بفريق المسرح القومى . وتهنئنا وتأخذ معه الصور ..

هالنى ذلك البريق السعيد الذى كان يشع منها ورحت أحـاول تفسيره ..

و لم أتعب كثيرا لأفسره .. إن السلطة كالثراء الفاحش قاتلة لإنسانية الإنسان ، فهى تبعده عن البشر ، وتمنع عنه الانتماء ، وتحيله إلى كائن مكتئب وحيد ، عليه أن يكون وحيدا وبعيدا لكى تحفظ له هالة السلطة والثراء . وهذا أبدا ليس من طبيعة البشر ، فى حاجة للانتماء ، فى حاجة ماسة أن يكونوا (عاديين) ليكون لهم إحساس البشر ، وحس البشر ، وطعم البشر ، وإنسانية البشر .

ها هى المواطنة فريدة سعيدة ، أسعد ألف مرة عن كونها متوجة أو ملكة ، فهى أخيرا قد وجدت قبيلتها البشرية والإنسانية ، أخيرا قد أصبحت امرأة وفنانة ومنتمية وسعيدة بعاديتها ، سعيدة أنها (وسط) مواطنيها وليست (فوقهم) ، سعيدة يشع قلبها بسعادة لم تر مثلها وهى شابة ، جميلة رغم تجاعيدها ألف مرة أكثر من جمالها وهى فى العشرين ، مبتسمة هذه المرة ، ليس (كبوز) ملكى . وإنما ابتسامة بشرية نابعة من أعمق أعماقها .

ألا ما أحمق هؤلاء الذين يتكالبون على السلطة ويفقدون كل ما يجعلهم بشرا ليحصلوا عليها ويحتفظوا بها ، إذ فعلا يحصلون على القوة والنفوذ ولكن مقابل أن يموت فيهم كل ما هو جميل وإنسانى .. و كل ما يجعلهم فعلا ومن أعماقهم سعداء ..

* * *

من واحد إلى ٨٠٠ مليون

لم أحزن لوفاة ماوتسى تونج ، ذلك أن الإنسان لا يحزن لغروب الشمس بعد أداء وظيفتها . كنت ألحظه فى اللقاءات القليلة التى كان يلتقى فيها برؤساء الدول و كبار الشخصيات ، وسمعت تعليقا أو تعليقين من بعض من قابلوه — و كنت أقول لنفسى : لقد كبر الرجل الظاهرة وشاخ ، وآن له أن يستريح .

ولقد استمعت إلى نعى جمهوريتنا وتقريبا كل دول العالم له ، وقرأت بعض ما كتبه كبار المعلقين والكتاب . ولكنى ظللت لا أحس أن ذلك الجزء من نفسى الذى يمت إلى ماوتسى تونج قد لمسه أحد . ذلك أن ماوتسى تونج كان أستاذى ، أعظم أساتذتى على الإطلاق فى شىء محدد بعينه رغم أنى لم أقرأ له إلا كتابا واحدا لم يعجبنى كثيرا ، ليس لأنه غير جيد ، ولكن لأنه صينى تماما بحيث من الصعب على عقلية مثل عقليتنا أن تتفهم وبعمق كاف معنى الفهم الصينى للاشتراكية وللثورة الصينية .. و كيف يمكن أو يجب أن تكون . بل حتى ما قرأته عنه كان كله بأقلام غربية ومعظمها معادية .. أما المرجع الحقيقى الذى تعلمت منه فهو للغرابة : حياته ودوره .

فى قارة كبيرة صفراء : أو هكذا وصفوها ، فاصفرارها الأكبر كان فى روحها التى توزعت على سبعمائة مليون مطحون فى ذلك الوقت ،

سحقته أقدام أباطرة وحكام غلاظ ، وتسلل الإنجليز واليابانيـون والمبشرون يقضون على ذبالة الروح الباقية ، فى مجتمع تستباح فيه المرأة وتباع بيع السلعة ، فقير إلى درجة الموت بالملايين جوعا ومجاعات ، تائه فى بلاده الدائرية التى رغم اتساعها كانت تحتويه كالحق الذى تتكدس فيه ، ملايين الجرذان ، تائه فى حياته ، تائه فى مصيره ، تائه فى ثقافته ، تائه حتى بثوراته حين يثور ، وبانتفاضاته حين ينتفض ، وبحكمه الوطنى حين يصبح له حكم وطنى ، فى بلاد كلما قام شعبها سقط وتعثر حتى لقد أصبحت قولة زعيمه الوطنى الكبير صن يات صن (سعد زغلول الصين) : هذا مجرد فشلنا الثالث عشر .

فى بلاد اليأس الذى طغى بعد فشل الثورة والحكم العسكرى بقيادة تشانج كاى تشيك الذى قام فى جزء منها والجزء الآخر تحتله اليابان والإنجليز يمرحون فيه تجارة ومكسبا وأفيونا ومؤامرات .. بلاد حتى لا يجمعها شمل دين واحد ، بل هى ربما لم تصل إلى مرحلة الإيمان بالأديان ، كونفوشيوس وبوذا : وملة (الزن) وحكم قديمة قدم حكماء قدماء من المصريين ، لكأنها مصر فى أواخر عصر البطالسة الذى انتهى بتفسخ مصر القديمة نهائيا وبداية عصور الاحتلال الرومانى وما تلاه إلى ألفى عام منذ ذلك التاريخ ، لكأنها الجزيرة العربية فى أشد عصور الجاهلية جهالة وتفسخا وتخلفا .

فى بلاد مثل تلك ، وفى مدينة كشانغهاى ، ميناؤها الرئيسى ، الملىء بالمراكب التى تخطف الخير وتجلب وتخلق كل ما هو شرير وفاسق وخارج على القانون ، العاهرات والمهربون والقوادون والـلصوص وتجار الإنسان

والراسبون تماما فى القاع ، المتعاركون فى الحانات ، المخدرون بتدخين الأفيون وطقوسه ، القليلون النائمون فى الحرير ، والملايين التى تعيش تزحف ولكى تأكل تلحس وتموت كالدود دون أن تخلف وراءها إلا العفن .

فى مدينة كتلك يظهر فى إحدى صحفها المحلية التى تصدر أساسا لإرشاد (السياح) والبحارة إلى أماكن الفساد ، يظهر إعلان صغير يقول ما معناه : هل فيكم من يود العمل من أجل الصين القادمـة العظيمة ؟ هل فيكم من يكترث ؟ إذا كان ثمة أحد فليلقنى فى حانة كذا بشارع كذا فى الساعة كذا من يوم كذا .. والإمضاء ماوتسى تونج .. مواطن ..

ولا أعتقد أن (المواطن) ماوتسى تونج فوجىء كثيرا حين لم يجد أن من لبوا نداءه لم يتعدوا الأربعة (منهم تشوتيه وليوتشاويتشى وآخرهم توفى قبل ماوتسى تونج بشهور ، أولئك الذين أصبحوا فيما بعد (من عمد الحزب الشيوعى الصينى) من هؤلاء الأربعة أو الخمسة الذين التقوا فى ذلك المساء فى حانة صغيرة من حانات شانغهاى على ما أذكر ، لم يبدأ فقط تكوين الحزب فى الصين ، ولم ينم فقط إلى أن أصبح تعداد قواته ١٣٠ ألفا ولم يحدث الزحف الطويل من أقصى الجنوب المعاصر المضروب فى الصين إلى أقصى الشمال بحيث هلك منهم مائة ألف فى الطريق إنما بدأت الصين العظيمة الحديثة . تصور ، إنسان فرد واحد بادر بنشر إعلان فقير غريب واجتمع على أثره أربعة يصبحون بعد ربع قرن فقط ـــ وما قيمة الربع قرن فى حياة أمة ، بل فى حياة فرد ـــ دولة واحدة

من أعظم وأضخم وأهم دول العالم ، المخيف بعمالقته ، المعاصر .

* * *

الفرد له دور عظيم فى التاريخ .. فهناك أفراد كثيرون لهم أدوار كبرى فى التاريخ . ولكن ، أية أدوار ؟ ذلك هو المهم .. هناك أفراد عظام هذا صحيح .. هناك شخصيات بحكم عوامل كثيرة تمتلك فى النهاية صفة القيادة والزعامة ، ولكن ربما غرورهم الفردى ، ربما الظرف التاريخى الذى نشأوا فيه ، وربما عوامل التسوس الكامن فى النفس البشرية تجعلهم (يلوون) عنق التاريخ ، ليخضعوا التاريخ — أقصد تاريخ الشعوب — لمزاجهم هم ، وليفصلوه حسب أهوائهم وشخصياتهم ، هناك الإسكندر الأكبر ، هناك مارك أنطونى ، هناك نابليون وهتلر وموسولينى ، هناك دلاس وستالين وجونسون ، هناك كثيرون .. أرادوا : وفعلا ، (لووا) عنق التاريخ ، ولكن التاريخ كالجواد القوى الأرعن لايذعن إلا لمن يكون معه وليس ضده ، ولهذا كان سرعان ما ينفضهم ، ويعود إلى مجراه .

ولكن كان هناك ، دائما وأبدا ، هؤلاء الأفراد العظام ، وأنا لا أحب استعمال كلمة عظيم ولكنى أحيانا لا أجد غيرها وصفا ، هناك دائما هؤلاء الأفراد الذين بحكم إخلاصهم وحماسهم وقدراتهم وتكوينهم لابد وأن يصبحوا زعماء ولكنهم أبدا لا يلوون عنق التاريخ وإنما يسيرون به ومعه وكأنهم مسيرون ، من إرادة الناس فى التغيير يستمدون قدرتهم وإرادتهم على التغيير ، من حيث يتشممون بأنوفهم وحواسهم الربانية الخفية اتجاه رياح الإنسان يتوجهون إلى حيث تريد الريح ، هناك الرسل

والأنبياء .. وقادة الفن والفكر ، تاريخ البشرية حافل بمجموعة قد تكون قليلة جدا بالنسبة لتعداد البشر فى كافة العصور ، ولكنها هامة جدا لأن الواحد منهم أحيانا ينهى عصرا ويبدأ عصرا ، وعلى يديه تنتهى حقبة لتبدأ حقبة ، وبإرادته يتحول شعب ، أو تتحول قارة ، أو حتى تتحول البشرية جمعاء ، من أناس مظلومين ظالمين ، مجنى عليهم وجانين : متفسخين .... واللا اختلاف واللا تدجيل واللا خداع واللا كذب واللا نفاق .. هذا الكائن البشرى العظيم — واعذرونى مرة أخرى — لا يفسد إلا رغم أنفه ولا يفسد إلا لأن ما حوله وما فوقه وما تحته فاسد ، لا يفسد ، حتى لو أراد ، إلا رغم أنفه ، وإلا تحت ضغط ظروف أو مغريات هى أقوى من ضعفه البشرى وقدرته الفردية على الاحتمال ، نفس ساقطات الصين وعاهراتها تحولن إلى أمهر العاملات والمنتجات ، والمخدرون بالأفيون تحولوا إلى أوعى البشر ، والظالمون تحولوا بحكم سيادة العدل إلى أعدل العادلين ، واللصوص إلى شرفاء ، والمقهورون إلى أسوياء .. والقاهرون إلى دعاة للحق والخير والمساواة ، ولصوص الموانى إلى حماة لثروة الشعب ، والقوادين إلى مدرسين يعلمون البنات فضيلة أن تكون المرأة حرة ، والمرأة لا تكون حرة إلا إذا امتلكت حق تقرير مصيرها ، ومن الرقيق والحريم تحولت إلى إنسانة ، لها إرادة ، وبإرادتها تختار الرجل وتحبه أو تتزوجه ، والرجل من أب يختلس ليضمن المستقبل لأولاده إلى رجل حلت به سكينة الأمن إلى المستقبل ، وإلى أن المجتمع كله ، وليس هو ، كفيل بأولاده ومستقبلهم ، هذا الأمن البشرى حين يحل ، هذا العدل الأرضى حين يوجد . هذا الإحساس الغامر الجميل

أنك لست عبئا على أحد وأن أحدا ليس عبئا عليك وإنما معا و كلنا نحمل ونتحمل وندفع ، والإنجيل والتوراة . أليست هى ما تقوله الموسيقى الحقة والصوت الشجى وأذان المؤذن وقرع أجراس الكنيسة .

نحن ضعاف هذا صحيح ، فنحن لسنا آلهة ، ولكنا أقوياء تماما حين نجتث عوامل الضعف ، وأى ممن يجتث عوامل الضعف مصيره الجنة . الجنة أولا فى قلوب الناس ، والجنة ثانيا على الأرض ، والجنة ثالثا حين يقاضيه قاضى قضاة الكون ، ذلك لأن الكائن فى سمائه والكائن فى كل منا ، نخفيه حين نشاء ونظهره إذا ظهر الآخرون .

حرية الصحافة ليست حرية البعض ..

ليست حرية الصحافة هى فقط أن يكون الكتاب والصحفيون أحرارا فى التعبير عن آرائهم ولكنها أولا وأساسا (جزء) من حق (الشعب كله) فى التعبير عن نفسه ، الكتابة هنا يصبح دورها كدور المغنى .. ليس هدفه أن يمتع الناس بحلاوة صوته .. ولكن المغنى الحقيقى هو الذى يغرينا ويحرضنا على أن نغنى نحن ، إذ الأصل أيضا فى الغناء أن يغنى الناس جميعا . لعل هذا يفسر لى ظاهرة الخطابات الأخيرة التى وصلتنى ، خطابات لم تعد تحمل (شكاوى) و (توجيهات) شخصية أو فى معظمها لا تنعى مظالم لحقت بها ولكنها خطابات .. فوق ما تحمله من كلمات صادقة طيبة .. تحملنى عبئا روحيا مهولا .. (تعبر) عن وجهات نظر وآراء وحتى حلول لمشاكلنا ، لا تكتفى حتى بالنقد وإنما ترجع المرض إلى السبب وتصل إلى الأساس وتبنى البلد والحلم الجديدين .. خطابات .. من فرط صدقها — ليست (أى كلام) .. ولكنها تصل ببلاغتها حد الصدق الفنى الرائع حتى تبدو بعض الكلمات التى نقرؤها منشورة باهتة تماما إلى جوارها .

ولكم كان يودى أن أنشرها كلها هنا .. أو على الأقل مقتطفات منها .. ولكن رغم فرحتى الغامرة لهذه الانطلاقة التعبيرية المذهلة فأرجو أن تقبلوا عذرى أيها الأصدقاء فثمة اعتبارات كثيرة منها الساحة وظروف العمل والكلمات الصادقة الطيبة الموجهة إلى شخصى ترغمنى على حرمان قراء هذه الكلمات من القراء (كتابا)

الشمس لا تشرق فجأة

إذا الشمس غرقت
فى بحر الغمام
ومدت على الدنيا
موجات الظلام
ومات البصر فى العيون
والبصاير .
وغاب الطريق
فى الخطوط والدواير
يابو المفهومية
مفيش لك دليل
غير عيون الكلام .

الأبيات للشاعر أحمد فؤاد نجم من ديوان عن دار الثقافة الجديدة فى مصر . كنت قد قطعت الطريق الصحراوى على نفسى ، وأوغلت فى الرمل كثيرا ، وحيدا ، أستمتع بالوحدة والسكون وربما الإحساس الكامل بالعدم . أزيز السيارات البعيدة على الطريق يضايقنى كما يحرمك ناموس الريف من لذة الليل العظيم هناك . الوحدة أمر صعب فى شريط ضيق يحتله أربعون مليون نسمة ، بحيث من كثرة وشدة وازدحام ما ترى

تضيق أحيانا ، وتماما ، بالإنسان . كنت فى الحقيقة أفكر فى السراب ، تلك الظاهرة التى فسروها لنا (علميا) فى الطبيعة بقولهم إنها ظاهرة سببها الانكسار الضوئى وقوانينه تلك التى تجسد لعين الإنسان العطشان التائه فى الصحراء أنه ، هناك ، بعيدا ثمة ماء . ماء عذب يترقرق ويلمع وينادى من يشربه ، ويلهث التائه فى الصحراء جريا وراء الماء ، ولا ماء ، إنما وراء كل سراب ، سراب . ويظل التائه العطشان يجرى ويلهث ويحشد كل خلية من خلايا جسنده ليجرى ويصل ، ولا يصل ..

ما أقصر العلم المعروف إلى الآن أن يفسر بعض الظواهر تفسيرا كليا متكاملا .. فالسراب ليس فقط ظاهرة علمية تحدث بسبب معامل الانكسار الضوئى ، السراب أيضا له سبب أقوى إنسانى ونفسى .. فلو لم (ير) الإنسان ذلك السراب .. لو ، أدرك إدراكا كاملا وتاما وعميقا أنه حوصر بالرمال ، وتاه تماما ، وأن لا أمل ألبتة ، لمات ، أجل ، لمات .. فالحياة ليست هى القلب والنبض وإفرازات المعدة والأمعاء .. الحياة أولا وأساسا إرادة الحياة ، حتى فى الكائنات الدنيا التى بلا عقل هى إرادة حياة غير واعية . عند الإنسان بالذات ، إرادة الحياة مرتبطة بالرغبة فى الحياة ، ولا رغبة بلا (أمل) فى الحياة .. بمعنى أن الحياة هى (الأمل) المستمر فى الحياة والبقاء .. وفقدان الأمل تماما فى الحياة غير اليأس . فاليأس وإن كان عدم قدرة على الأمل تماما وانعدامه . إنه يعنى فقط أن العقل البشرى قد سدت فى وجهه جميع سبل الخلاص ، ولكن الأمل فى الحياة نفسها لا يزال موجودا . ولكن فقدان الأمل الكامل هو الموت ، إذ بدون ذلك الشعور ـــ حتى لو كان مرهفا ودقيقا لا يكاد

يرى — تخمد تماما رغبة الحياة ، الحياة ذاتها .. وإن كان سيظل الإنسان حيا . فهو فى الحقيقة سيحيا موتا أو سيموت حيا إلى أن يذوى تماما ويدركه الموت الجسدى الحقيقى الكامل .

السراب — حتى السراب — ليس كارثة بالمرة ، فهو قد يكون المعين على أن نبقى أحياء ، نمشى ونجرى ونلهث وراءه إلى أن نعثر على الماء الحقيقى ، قد لا نعبر أبدا هذا صحيح ، ولكن الطريق ليس أبدا أن نأمر أنفسنا حتى لا تذهب وراء الحلم والوهم ، ففى بقائنا — حتى بالسراب — إحياء فرصة أكبر وأطول للحياة ، بل ربما الفرصة الوحيدة للنجاة .

... و (عيون الكلام) كما يقول أحمد فؤاد نجم . وكما سبق أن قال كثير منا لنفسه ولغيره ، قد يكون السراب حين (يغيب الطريق فى الخطوط والدواير) .. فالكلمات ، حتى أصدق الكلمات ، ليست فى النهاية سوى كلمات لا تغنى مطلقا عن الحقيقة ، ولا يمكن أن تحل محلها ، إنما هى فى النهاية تعين ذلك الإنسان المحاصر المرهق أن يظل حيا حتى يجد لنفسه الطريق ، وحتى يعثر ، بنفسه أيضا ، على الحقيقة .. وكما لا بد للقارئ المحاصر من سراب من الكلمات كى يحيا ، فلا بد للكاتب أيضا (مصدر السراب) أن يكون له هو الآخر سرابه الخاص الذى يتراءى له حتى يظل قادرا على إفراز (عيون الكلام) ، ولو انطفأ السراب أمامه ، وحوصر هو الآخر تماما : لماتت الكلمات على شفتيه أو سن قلمه تمهيدا لموته هو الشخصى بعد فترة قد تطول وقد تقصر .

كنت جالسا على حجر والصحراء ممتدة رملية وجبلية ومتلونة

أمامى ، وضجة الحياة خافتة تماما من حولى ، أفكر فى هذا ، وأفكر بالمرة فى ذلك الخطاب الغريب الذى وصلنى من قارئ يقول فيه :

« إذا كنت قد ذكرت أننا نتمتع بحرية التعبير وأن أحدا لم يحذف لك كلمة أو مقالة فأتحداك أن تنشر وتقول كذا وكذا وكذا » .

كنت أفكر فى خطاب ذلك القارئ ، لا لأهميته الخاصة فهو مجرد خطاب واحد من بين طوفان من الخطابات وإنما لأنه يمثل قطاعا من تفكير البعض . ذلك القطاع الذى يتصور أن الحرية الحقيقية هى أن — فجأة هكذا — وفى لحظات ، تنتقل من حالة الصمت الكامل إلى الحالة القصوى التى يكون لك فيها حرية أن تهدم المعبد كله إذا أردت وكأننا انتقلنا إلى كون آخر ، تحكمه قوانين أخرى ، وكأنما نحن غير موجودين فى بقعة ما من عالم ثالث ، يحيا فى ظروف ما أهولها ، ويثقل كاهله بميراث رتيب من التسلط والكبت وتاريخ طويل فى محاربة الكلمة وقائلها وكاتبها .. بل محاربة الفكرة مهما تكن الفكرة ، والتفكير مهما يكن التفكير .

إنما خطأ وخطر هذا النوع من التفكير قائم على ركيزتين لا بد من إزالتهما تماما قبل أن نتصور بإمكاننا أن نتقدم خطوة . الركيزة الأولى هو هذا التصور القائم على تصور أن الآخرين زعماء كانوا أو كتابا أو مفكرين أو قادة على أن الواحد منهم هو هرقل الذى سيقوم بحمل المسئولية كلها وحده وأن عليه هو أن يحمل تبعة المشاكل كلها ويحلها وأن يكون (المسئول) الأوحد حتى عن حل مشاكل الخاصة . الركيزة الثانية هى هذا اللجوء الغريب إلى الآخرين لتكافح أنت من خلالهم .

فبدلا من أن يرسل القارئ خطابه هذا إلى المقصود بكلماته يحاول أن يحملك أنت مسئولية خوفه من أن يخوض التجربة ويتحمل نتائجها ، يريد أن يرضى ضميره على حسابك أنت ويقول : لقد كتبت إلى فلان وحملته المسئولية فكأنه أدى كل ما عليه من واجب وكفى الله المؤمنين شر القتال .

هذا فهم خطير تماما .. فالكاتب — أى كاتب — لا يمكن أن (يطلع الإنجليز من مصر وحده) . إنما هو فيما أعتقد يكتب ليس بهدف أن يزود الكون من حولنا بشمس ساطعة تضئ الظلام وتصنع النور الأوحد الوهاج ، إنما هو يكتب بهدف أن يضئ شمعة صغيرة ترى الآخرين كيف يضيئون شموعهم الخاصة ، بحيث من مجموع ملايين الشموع يتكون النور الجماعى الوهاج . والمثل الصينى البسيط القائل : بدلا من أن تلعنوا الظلام أضيئوا شمعة وينطبق هنا تمام الانطباق .. فبدلا من أن تعير الآخرين بأن شموعهم هزيلة ، وتطالبهم بأن يستبدلوها ، وعلى الفور بشمس كبيرة باهرة ، ألا تحاول أنت : من جهتك ، أن تتحمل مسئولية أن تضئ شمعتك الخاصة . أن تحاول حتى .. أن تبحث عن ثقاب ، إن ينطفئ ثقابك ، أن تحاول مرة أخرى .. بدلا من أن تواجه أنفاسك مع أنفاس الأعداء لإطفاء هذه الشمعة المتواضعة .. تفعل أبسط مبادئ المعاونة وأن تكون بقلبك حتى مع هذه الشمعة الوليدة .. ألا تدعو معى بقولك : اللهم احم شمعتى من أنفاس أصدقائى أما أنفاس أعدائى فأنا الكفيل بإخمادها . ألم تسمع أبدا عن المثل الشعبى الدارج : دارى على شمعتك تولع .

أم أنك فى الحقيقة لا تريد الحياة لشموع الغير ولا لشموعك ، وإنما تريد أن يظل الظلام تاما ودامسا ، لأن شعاعة الأمل تعنى أن تقوم وفورا بالحركة وبالعمل وأنت لا تريد أن تتحرك ولا أن تعمل ولا أن تكبد نفسك مشقة أن تحمل مسئولية أن تخطو خطوة ، ولهذا تريد إقناع نفسك أن كل شمعة توقد إنما هى نور زائف مخادع وأن الأصل هو أن الظلام مطبق وأن لا فائدة .. طيب يا سيدى .. لا فائدة .. ننتحر مثلا ؟! نحن ؟! نضل مثلك ونشل إرادتنا وتفكيرنا ومصادر الأمل فينا ونخمد أى سراب ونستعد للموت حياة أو للحياة موتا . إن حلم أن تشرق الشمس فجأة ، كاملة وساطعة ، حلم الموتى يأسا وكسلا وخمود همة ، فأبدا لن تشرق الشمس فجأة ، فهذه معجزة ولسنا وما كنا أبدا فى زمن معجزات ، إنما تشرق الشمس من صنع الإنسان ، ملايين الإنسان ، تشرق بشموع يوقدها كل منا ، ومن مجموع هذه الشموع ، من ملايينها ، يتبدى النهار ، ويبدو الطريق ، ونسير معا فى النور .. وأى شىء سوى هذا التصور لشروق الشمس وظهور النهار هو عبث أطفال وأحلام منتحرين يأسا وكسلا وخمود همة .. شمس الحياة من صنع الإنسان ، ليس الإنسان الواحد ، وإنما كل إنسان : والنور نورنا كلنا حين يساهم كل منا بشمعته ، ويجب أن نتعلم أن نكف عن لعن الآخرين لأنهم نجحوا فى إضاءة شمعة ، وبدلا من أن نلعن الظلام .. بدلا من أن نلعن الشمعة الواحدة الموقدة ، نتعلم كيف نوقد نحن شمعتنا وباستطاعة

كل منا لو أراد أن يوقد شمعته ، فالشمع المطفأ فى جيوبنا وحولنا ومعنا ، كل ما فى الأمر أننا لا نريد أن نتعب أنفسنا ونحمل مسئولية الإنارة لغيرنا ، ونكفى أنفسنا شر القتال . أبدا ، حتى الشمس ، لا تشرق فجأة .. نحن بالتدريج نصنعها وسنصنعها .

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه